التّشريع الإسلامي

مناهجه ومقاصده

الجزء الأول

اسم الكتاب: التشريع الإسلامي (الجزء الاول)

المؤلف: آية الله السيد محمد تقي المدرسي

الناشر: انتشارت المدرسي

الطبعة: الثانية شوال ١٤١٣

عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة

الثمن: ١٨٠٠ ريال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

المقدّمة

الصلاة والسلام على أشرف الأنبياء المصطفى الأمين محمد وعلى آله الميامين.

مبادئ الدستور هي القيم والأصول العامة التي يستلهم منها المشرع أفكار الدستور، وهي روح القوانين التي تتفَّرع من الدستور.

وعندما يقوم المشرع بوضع قوانين جديدة، فلا بدّ أن يعتمد على تلك الأصول لأنها تنفع القضاة عند اختلافهم في تفسير نص قانوني.

وكذلك التشريع الإسلامي ينبعث من روح عامة وقيم سامية تسري في أحكامه وأنظمته.

وكنت منذ عهد بعيد أمنّي نفسي بالبحث عن تلك الروح العامة وحينما توجهت شطر كتاب الله، وبدأت أستلهم من آياته الكريمة الرؤى والبصائر وأسجلها في تفسير سميته (من هدى القرآن) كان من جملة أهدافي معرفة روح التشريع الإسلامي. ولذلك آليت على نفسي ألاّ أتفرغّ للفقه إلا بعد الانتهاء من التفسير. ومن هنا عدت أتساءل من جديد: ما هي القيم السامية التي بيّنها القرآن الكريم للتشريع، وكيف نستفيد منها في فقه الشريعة؟

وبعد البحث عرفت أن تلك القيم هي روح الدين ومقاصد الشريعة والأهداف التي تسعى لتحقيقها أحكام الإسلام.

وقد توكّلت على الله وعقدت العزم على دراسة الموضوع من جوانبه، ولعل الله يوفقني لذلك بفضله.

بيد أني لاحظت أن هناك بحوثا تمهيديّة لا بد منها قبل الغوص في غمار الموضوع.

فألفت الكتاب الذي بين يديك وهو عبارة عن بيان مناهج التشريع الإسلامي، ليكون مفيداً لمن يسعى لتفقُّه الدين. وهو بمثابة علم الأصول حسب الأطروحة الجديدة التي أحاول بحثها في هذه الدراسة.

واليوم حين أُقدم هذا الكتاب للقراء الكرام، أسأل الله أن يوفِّقني لإتمام بحوثي القادمة في مقاصد التشريع الإسلامي. وقد سميت كلا الموضوعين بـ(التشريع الإسلامي مناهجه ومقاصده).

ورجائي من الله أن يمهِّد بهذا الكتاب -بقسميه- السبيل الأقرب إلى استنباط الأحكام الإسلامية من دون تعقيد أو تطويل، وبالذات فيما يتصل بِفقهِ المتغِّيرات والحوادث المستجدِّة.

وفي الختام أسال الله أن يوفّق علماءَنا الكرام لدراسة مقاصد الشريعة دراسة وافية ليسهِّلوا طريق تطبيق الإسلام في العصر الراهن، إنه ولي التوفيق.

طهران

٢٧/ ربيع الأول/ ١٤١١هـ

محمد تقي المدرسي

الباب الأول:

العلاقة بين العقل والشرع

الفصل الأول:

ما هو العقل؟

تمهيد ماذا يهديك إلى النور؟

أليس النور ذاته؟ كذلك عقلك يهديك إلى ذاته، وهل يبصر أحدنا عينه بغير عينه؟ فيجب-إذاً- ان لا نبحث في الظلمات عن النور، لأنّنا لن نجده هنالك، بل سوف نزداد عنه ضلالاً.

كذلك ضلَّ أكثر الناس عن العقول، فلم ينتفعوا بهذا الموهبة الإلهية إلاّ قليلاً. وترى بعضهم ينكر عقله أساساً، ويحتجُّ على إنكاره ببعض الحجج، ولا يدري أنّ احتجاجه ذاته دليله إلى عقله. وكيف يتسنىّ لمن لا عقل له أنْ يكون منطقّياً ويحتجّ على شيء بشيء؟.

العقل يكشف ذاته بذاته، ولا يحتاج أحدنا إلاّ إلى التذكرة به، واستثارته كالمصباح الذي رانت عليه الأوساخ يكفيك أنْ تنظّفه لتراه ثم ترى الأشياء به!.

والمناهج العلمية المختلفة، سبل العقل إلى الحقائق، والعقل هو الذي عرّفها، واستفاد منها، ولكنه لا يتقيَّد بها. وانّى له التقيُّد بها، وهو الذي كشفها لنا، وحدّد معالمها وأمرنا باتّباعها للوصول إلى الحقائق. وهكذا تجد العقل البشري لم يتقيد بمنهج أرسطو في المنطق، بل ابتدع عشرات المناهج الأخرى، كالمناهج الرياضية المتطورة، والمناهج التجريبية المختلفة[1].

كما أنّ الأذكياء من الناس قد يتجاوزون كل المناهج، ويتركون المجال لعقولهم أنْ تنطلق في رحاب الحقيقة، حتى يظنّ البعض أنّهم ملهمون –وليسوا بملهمين– ولكنهم يجوبون آفاق الحقائق بلا قيود.

ولهذا فإنّ تحديد العقل بأنه يدرك الكليات، ولا شأن له بالأمور الجزئية، أو أنه لا يدرك شيئاً إلاّ من خلال مناهج خاصة، هو نوع من خسارة لموهبة العقل..

إنّك تبصر بعينك الجبل الأشم، كما تبصر سمّ الخياط، وتضيء أشعة الشمس صحراء واسعة، كما تضيء كوخاً صغيراً! وتفقه بعقلك قبح الظلم، وحسن الإحسان، كما تفقه كيفية فتح باب مغلق.

العقل موهبة عظيمة، وغفلة الإنسان عنها هي المسؤولة عن ضلاله وجهله، كما لو سدّ الإنسان نافذته عن الشمس، أو سد عينه، أفيرى شيئاً؟!

وهكذا تكون الثقة بالعقل مفتاح المعارف، لأنّ مَنْ يشكّ في عقله يغفل عنه، ويهمل الانتفاع به.

والثقة بالعقل، تعني اكتشاف الإنسان لذاته، لأنّ عقل الإنسان أعظم ما فيه، وهو يرفد كل كمال وجمال!.

والمنهج السليم لاعادة الثقة بالعقل بعد التذكرة به، التعرُّف على الحقائق التي لا تحصى التي تعرَّفنا عليها بالعقل، وقياس أنفسنا بمن لا عقل له، وقياس ذوي العقول بغيرهم أليس من يعيش في صحراء مضاءة بنور الشمس لا ظل فيها ولا ظلام، قد يغفل عن مصدر النور، ويظن أن النور حالة طبيعية في ذرات التراب، فإذا غابت الشمس هنالك يعرف قيمة الشمس..

وحين نتدبَّر في القرآن والسنَّة نجد أنّ هذا هو المنهج الذي اتّبع فيهما، سواءً في التذكرة بالعقل أو بتنمية ثقة الإنسان به.

والعقل هو ذلك النور الذي نُميَّز به الخير عن الشر، والحسن عن القبيح، وحينما ينحسر عنا عند الغضب والشهوة العارمَيْن، نرتكب القبائح ثم نلوم أنفسنا عندما يعود، هو الذي نفقده عند الصغار والمجانين والحمقى فنرى فيهم نقصاً كبيراً، وهو الذي يحاسب الناس بعضهم بعضاً على أساسه ويحمّلونهم به مسؤولية أفعالهم، وهكذا يصف الإسلام العقل بصفاته التي تتجلّى في العقلاء.

والوحي إثارة للعقل وتذكرة به، وقد خلقه الله من نورٍ مخزونٍ مكنونٍ عنده فأكرمه وحّمله المسؤولية حين قال له: بك أُثيب وبك أُعاقب.

وقد فصّل قادة الإسلام القول في العقل، كما فعل الإمام الكاظم في وصيته الحكيمة، حيث بيّن فيها دوره في تلقّي الحقائق من الوحي، وبيّن كيف أنّه يكتمل بالعلم والخُلُق الفاضل، وأنّه حجة الله ورسوله في الباطن، وأنّه لا يختلف عن الوحي شيئاً.

---

[1]– قد أوضحنا في كتاب: (المنطق الإسلامي: أصوله ومناهجه) العديد من المناهج القديمة والحديثة في المنطق.

وقد أخطأ بعض الفلاسفة حين زعموا أنّ العقل مجموعة تصورات أو أحكام قاطعة وبديهية عند الانسان، ذلك لأنّ تلك الأحكام ما هي إلاّ مكشوفات لنور العقل، وإنّ نور العقل، كما يكشفها، يكشف غيرها.

ويختلف العقل والعلم عن القطع، حيث إنّ الثاني ليس سوى دفع الاحتمالات حتى لا يبقى إلاّ واحد منها؛ بينما العلم كشف الحقيقة للنفس حتى تطمئن إليها!. وحجية العلم ذاتية، بينما حجية القطع ليست ذاتية، فإذا كان عن طريق عقلائي لم يردع عنه الشرع، أخذنا به، وإلاّ فلا.

والعقل قد يغطُّ في سبات، وعلاجه إيقاظه بإثارته. وقد ينكسف شعاعه بسُحب الهوى، فلا بدّ من ردع النفس عن اتباع الهوى وشحذ عزيمتها لمواجهة الأهواء..

وقد تختلط وساوس الشيطان، وهواجس النفس وتسوّلاتها، بالعقل وأحكامه، فلا بدّ من تجلية العقل بالتذكرة بها، وببيان شواهده، وجنوده، وصفات الذين يتحلَّون به، وكذلك ببيان الجهل، وشواهده، وجنوده، وصفات المبتلين به.

وسوف نناقش طويلاً الآراء التي ذكرت في موضوع علاقة الوحي بالشرع، وهل أنّ العقل يستقلّ بفَهْم الأحكام الشرعية؟.

وصفوة القول، تتلخّص في امور:

١- إنّ القطع الذي اعتبره البعض حجّة ذاتية ليس كذلك، إنّما هو قد يكون طريقاً عقلائياً، وأنه ردعت عن بعض مفرداته الشريعة الغراء، كقطع القطاع، والقطع الذي مصدره القياسات الباطلة أو الجفر والرمل وسائر المصادر غير المعترف بها عند العقلاء. وهذا رأي كبار فقهائنا (قدّس الله أرواحهم).

٢- وإنّ العقل يستقلُّ بمعرفة الحسن والقبح، ولكنه بحاجة إلى الوحي، لتزكية النفس، وتنمية الإرادة فيها، وتجلية العقل وإثارة دفائنه.

٣- إنَّ الوحي قد بيَّن لنا كلّ ما نحتاجه من الأحكام في صيغة أصول، وهي الأحكام العقلية التي يجمع العقلاء على قواعدها العامة.

٤- وظيفة العقل التعرُّف على الوحي، وفهمه، ومعرفة حَمَلَته، ومعرفة كيفية تطبيقه على الحقائق الفرعية. وبكلمة: العقل والوحي شعاعان لمصباحٍ واحد، وبدون تكاملهما، لا يتكامل البشر، لذلك لا يجوز القياس في الدين، ولا الاستغناء عن النصوص.

العقل في بصائر الوحي

إذا عرضنا هذا السؤال على اللغة لبادرنا القاموس بالقول: نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية.

وإذا عرضناه على العرف لكانت إجابته أكثر بساطة حيث يصفونه بشواهده، يقولون مثلاً: هو الذي يعلّمنا كيف نعيش، وما ينبغي لنا أنْ نفعله، وما لا ينبغي.

وإذا سألتهم عن العقلاء لسردوا لك مجموعةً من صفات الكمال.

ولكن ذلك لا يجدينا نفعاً إذا لم يكتشف كل واحد منا بنفسه نور العقل وهنا اذاً نتساءل: بالتأكيد لم نكن نعرف الخير من الشر والحسن من القبيح عند الطفولة، ولكنّا اليوم نعرف ذلك جيداً، فما هو هذا النور الذي عرفنا ذلك به؟

عند الغضب والشهوة الجامحين نرتكب أفعالاً ثم نلوم أنفسنا عليها، فما الذي كنا نفقده عندئذٍ ثم وجدناه فقيّمنا به؟.

وعندما نحاسب الآخرين نستطيع أنْ نميّز بسهولةِ بالغةِ بين الحسن والقبيح من أفعالهم، وبين المحسن والمسيء منهم، وأنىّ ذهبنا في هذا العالم الرحيب نجد أصول الصفات الحميدة واحدة، فالكل يتغنَّى بالعدل والإحسان، والإنفاق والإيثار، والكل يستنكر الظلم والعدوان والبغي والاستئثار.

فمن خلال التنبهُ الذاتي ومراجعة أنفسنا كيف عرفنا الحقائق الأولية، وكيف نوقن بها ونستريح إليها بلا أيّ ريبٍ أو تردد، من خلال ذلك يتجلّى لنا نور العقل من داخل أنفسنا.

وكلمات القرآن والنبي والأئمة في العقل جرت حسب هذا السياق.. فعرّفوا العقل بآياته وبصفات الذين يتحلّون به، فقد روي عن النبي–صلّى الله عليه وآله–:

(العقل عقالُ من الجهل، والنفس مثل أخبث الدوابّ)[١].

وعنه صلَّى الله عليه وآله:

(قسّم العقل على ثلاثة أجزاء، فمَنْ كانت فيه كمل عقله، ومَنْ لم تكن فيه فلا عقل له: حسن المعرفة بالله عز وجل، وحسن الطاعة له، وحسن الصبر على أمره)[٢].

وروي عنه أيضاً أنه قال– صلّى الله عليه وآله–:

(صفة العاقل أنْ يحلم عمّن جهل عليه، ويتجاوز عمن ظلمه، ويتواضع لمن هو دونه، ويسابق مَنْ فوقه في طلب البرّ، وإذا أراد أنْ يتكلم تدبّر، فإن كان خيراً تكلّم فغنم، واذا كان شرّاً سكت فسلم، وإذا عرضت له فتنة استعصم بالله، وأمسك يده ولسانه، وإذا رأى فضيلةً انتهز بها، لا يفارقه الحياء، ولا يبدو منه الحرص فتلك عشر خصال يعرف به العاقل).

وأضاف –صلّى الله عليه وآله– في بيان صفة الجاهل ممّا يعاكس العاقل، وقال:

(وصفة الجاهل أنْ يظلم مَنْ خالطه، ويتعدْى على مَنْ هو دونه، و. و.)[٣].

وروي عن الإمام علي– عليه السلام– أنّه قال عن العقل:

(التجرُّع للغصة، ومداهنة الأعداء، ومداراة الأصدقاء)[٤].

وعن النبي – صلّى الله عليه وآله–وقد سُئل: ما العقل؟ فقال: (العمل بطاعة الله، وإن العمّال بطاعة الله هم العقلاء)[٥].

---

[١] – تحف العقول/ ص١٩.

[٢] – بحار الأنوار/ ج١–١٠٦.

[٣] – المصدر/ ص ١٢٩.

[٤]– المصدر/ ص ١٣٠

[٥] – المصدر/ ص١٣١.

وروي عن الإمام الصادق– عليه السلام–:

(كمالُ العقل في ثلاث: التواضع لله، وحسن اليقين، والصمت إلاّ من خير)[١].

وروي عنه قوله:

(إذا أردتَ أنْ تختبر عقل الرجل في مجلسِ واحدِ فحدّثه في خلال حديثك بما لا يكون فإنْ أنكر فهو عاقل، وإنْ صدّقه فهو أحمق)[٢].

وجاء عنه– عليه السلام– أيضاً أنّه قال:

(يستدلّ بكتاب الرجل على عقله، وموضع بصيرته، وبرسوله على فهمه وفطنته)[٣].

وعنه عليه السلام:

(دعامة الإنسان العقل، ومن العقل الفطنة والفهم والحفظ والعلم، فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً حافظاً زكيّا فطنّا فهماً، وبالعقل يكمل، وهو دليله، ومبصره، ومفتاح أمره)[٤].

ولأنّ الهدف الأسمى لكتاب الله هداية الإنسان، ولأنّ سبب الهداية ووسيلتها القريبة إثارة العقل من داخل أنفسنا، فإن الكتاب كان تذكرة، وقد استفاضت آيات الكتاب بهذه الكلمة الجامعة وبصيغِ شتّى لأنها تعبّر بدقةِ عن تلك الحاجة الأساسية للإنسان، ألا وهي استثارة العقل، وإيقاظه.

قال ربناُ: (ولقد يسرّنا القرآن للذكر فهل من مدّكر، فإنما يسرَّناه بلسانك لعلهم يتذكَّرون، نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبارّ فذكِّر بالقرآن مَنْ يخاف وعيد، إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السُّمْعَ وهو شهيد).

وبما أنّ القرآن إيقاظ للعقل من سباته وإثارة وذكر فإنّه يفيض على القلب يقيناً لا ريب فيه، وهدىً وسكينة، لانه يوقظ العقل، ويستثير كوامنه، ويحفّز قدراته، فإذا استيقظ العقل لامس الحقائق بلا حجاب، وإذا استثيرت كوامنه أحاطت بالمعارف بلا ريب أو تردّد، وإذا انبعثت قدراته الكبيرة جابت آفاق العلم بلا قيود.

قال الله: (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتَّقين).

(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) وقد تواترت كلمات الذكر لتنفض غبار السهو والغفلة عن الأفئدة مثل قوله: (أفلا تعقلون، أفلا تذكرون، أفلا تبصرون، أفلا يتدبرون، أفلا يعلمون).

ونجد في السنة الشريفة تذكرة بالعقل وبدوره، حيث يقول النبي–صلّى الله عليه وآله–:

---

[١] – المصدر/ ص١٣١.

[٢] – المصدر/ ص ١٣١.

[٣] – المصدر/ ص١٣٠.

[٤] – المصدر/ ص ٩٠.

(قوام المرء عقله، ولا دين لمن لاعقل له)[٥].

(استرشدوا العقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا)[١].

(يا علي لا فقر أشدّ من الجهل ولا مال أعود من العقل)[٢].

وقال الإمام أمير المؤمنين–عليه السلام– وهو يصف الأنبياء ومناهجهم:

ويثيروا لهم دفائن العقول)[٣].

وقال: (أغنى الغنى العقل)[٤].

وقال: (العقول أئمة الأفكار)[٥].

وقال الإمام الباقر–عليه السلام_:

(إنّما يُداقُّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا)[٦].

وعن صفة العقل، وكيف خلقه الله من نور بهيّ يقول النَّبّي–صلى الله عليه وآله–:

(خلق الله العقل من نورٍ مخزونٍ مكنونٍ في سابق علمه، الذي لم يطلع عليه نبّي مرسل، ولا ملك مقَرَّب، فجعل العلم نفسه، والفهم روحه، والزهد رأسه، والحياء عينه، والحكمة لسانه، والرأفة همه، والرحمة قلبه، ثم حشاه وقوّاه بعشرة: باليقين والإيمان والصدق والسكينة والاخلاص والرفق والعطية والقنوع والتسليم والشكر، ثم قال عز وجل: أدبر، فأدبر، ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال: تكلمْ فقال: الحمد لله الذي ليس له ضدّ ولا ندّ ولا شبيه ولا كفو ولا عديل ولا مثل، الذي كل شيء لعظمته، خاضع ذليل، فقال الرب تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً أحسن منك ولا أطوع لي منك ولا أشرف منك ولا أعزّ منكَ، بك أُحَّد وبك أُعبد وبك أُدعى وبك أُرتجى وبك أُبتغى وبك أُخاف وبك أُحذر وبك الثواب وبك العقاب، فخرّ العقل عند ذلك ساجداً وكان في سجوده ألف عام، فقال الرب تبارك وتعالى: أرفع رأسك، وسلْ تُعط، واشفَعْ تشفع، فرفع العقل رأسه فقال: إلهي أسألك أنْ تشفّعني فيمن خلقتني فيه، فقال الله جل جلاله: أُشهدكم أنّي قد شفَّعته فيمن خلقته فيه)[٧].

الإمام الكاظم يصف العقل

في وصيته الرشيدة يفصَّل الإمام موسى بن جعفر–عليه السلام–لهشام بن الحكم الذي هو من أعظم أصحابه، وأعرفهم بالحكمة الإلهية وأوسعهم اطّلاعاً على المذاهب المختلفة؛ يفصَّل القول في العقل، ويستشهد بآيات الكتاب في بيان دوره في معرفة الدين بالمنهج التالي:

---

[١] – المصدر/ ص٩٦.

[٢] – تحف العقول/ ص ١٣.

[٣] – نهج البلاغة/ خطبة ١ص ٤٣.

[٤] – بحار الانوار / ج١ ص ٩٥.

[٥] – المصدر/ ص ٩٦.

[٦] – المصدر/ ص١٠٦.

[٧] – المصدر/ ص ١٠٧.

بيان دور العقل الأساسي في تلقّي الحقائق، وأنّ الوحي جاء مكملاً له عبر وسائل شتّى، كالترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا ومن عذاب الله فيها، وأنّ العقل يكتمل بالعلم، وأنّ اله ذمّ الذين لا يعقلون، وذمّ إتباع الناس بلا هدىً.

ومضى الإمام في وصيته الهادفة إلى تكميل العقل ببيان دور التواضع للحق والتفكُّر في تنمية العقل.

ثم بيّن أنّ العقل حجة باطنة، وذكَّر به–من خلال التذكرة–بصفات العاقل، من مخالفة الهوى، وتزكية النفس من الرياء والفخر ومن الثقة بأحكامه (دون النظر إلى ما يقوله الناس).

وبيّن دور العقل في طاعة أحكام الدين، ومضى الإمام . عليه السلام . في بيان كيفية تنمية موهبة العقل.

الله تعالى يبشر العقلاء

لكي يستثير الإمام العقل، يتلو على هشام في أول وصيته الآية القرآنية التي تبشر أهل العقل، وتصفهم بأنهم عباد الله الذين هداهم ربهم.

وإذا عرفنا أنّ العقل يُعْرَف بنفسه، لأنه النور الإلهي الذي يكشف للإنسان حقائق العلم فكيف يعرّفه غيره؟ أوَ يكون شيء أظهر من النور؟!

إذا عرفنا ذلك فإننا نعرف أهمية التذكرة، حيث إنّها تقوم بدور تنوير دفائن العقل، كما تحرّك فارة المسك حتى تتضوعّ.

وحديث الإمام–عليه السلام–يقوم بهذا الدور.. خصوصاً إذا قرأنا السياق القرآني قبل الاية حيث ينهى ربنّا عن اتباع الطاغوت، ويأمر بإجتنابه، والابتعاد عن إطار تأثيره الثقافي. يقول الإمام–عليه السلام–: إن الله تبارك وتعالى بشَّر أهل العقل والفهم في كتابه، فقال: (فبشّر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أُولوا الألبابِ)[1].

ويتساءل البعض: من أين عرفنا أنّ الآية تبشر أهل العقل والفهم؟ يبدو ذلك من أمرين:

أولا: أنّ هؤلاء لا يأخذون الكلام على علاته، ولا يرفضونه تماماً، وإنّما يختارون الأحسن منه. وهل يختار الإنسان الأحسن إلاَّ بمعيارٍ عقلي؟

ثانياً: أن هؤلاء هم أُولو الألباب، ولبّ الإنسان عقله، وأصله فهمه. وكلمة أخيرة: إذا كانت من أعظم صفات المؤمنين التي يبشرهم الله بها صفة العقل واختيار الكلام الأفضل، فإنّ معنى ذلك أنّ ربَّنا سبحانه لا يطالب عباده بالاتباع المطلق للنص الذي يستمع اليه، بل الاتباع الواعي، وانتخاب ما يناسب كل فرد في زمانه وحسب ظروفه ومستواه.

الوحي يكمل العقل

ويمضي الإمام–عليه السلام– في بيان علاقة الوحي بالعقل، وكيف أنّ دور الأول تكميل الثاني، والاعتماد عليه في أصل الدين وهو توحيد الله. وإنّ ذلك ليدلّ على دور العقل في سائر نواحي الشريعة الفطرية.

---

[1] - الزمر/ ١٧–١٨.

يقول الإمام:

(يا هشام بن الحكم! إن الله جلّ وعزّ أكمل للناس الحجج بالعقول، وأفضى إليهم بالبيان، ودلهم على ربوبيته بالأدلة فقال: (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابّة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[١].

يا هشام، قد جعل الله جلّ وعزَّ دليلاً على معرفته بأنّ لهم مدبراً فقال: (وسخَّر لكم الليل والنهار. والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقومٍ يعقلون)[٢] وقال: (حَم، والكتاب المبين، إنَّا جَعَلْناه قرآنا عربياً لعلّكم تعقلون)[٣] وقال: (ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزّل من السماء ماءً فَيُحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)[٤].

كيف كمل الوحي عقل الإنسان؟

حسبما أفهمه من سياق وصية الإمام فإن الله سبحانه أكمل–بوحيه– عقل الإنسان بعدة سبل:

أولاً: لأن عدو العقل الهوى، ولأن جماح الهوى لا يكبح بشيء مثل الترغيب في الحياة الآخرة، فانّ أفضل معين للعقل التذكير بأنّ الدنيا حياة زائلة، وما هي إلاّ لعب ولهو، وأنّ الآخرة هي الحيوان.

وهذا دأب القرآن الكريم؛ الوعظ والترغيب في الحياة الأبدية، لعل عواصف الشهوات، والعصبيات تتراجع، فيشرع العقل بتقييم كل شيء بموضوعية وبلا تحّيز أو تطرُّف.

وما تلاه الإمام الكاظم–عليه السلام–على مسامع هشام من آيات في هذا الحقل أمثلة يفيض القرآن بأمثالها حيث يقول الإمام:

(يا هشام! ثم وعظ (ربّنا سبحانه) أهل العقل ورغبهم في الآخرة، فقال: (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدَّار الآخرةُ خيرُ للذين يتَّقون أفلا تعقلون)[٥].

وقال (وما أُتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون)[٦].

ثانياً: ولذات السبب السابق، أي لكي تصفو النفس من غبار الهوى وقتار الغضب يخوّف القرآن الذين لا يعقلون بعذاب الدنيا، ويذكّرهم بمصير الغابرين الذين دمَّر الله عليهم حضاراتهم القائمة على البغي والطغيان.

---

[١] – البقرة/ ١٦٣–١٦٤.

[٢] – النحل/ ١٢.

[٣] – الزخرف/ ١–٢.

[٤] – الروم/ ٢٤.

[٥] – الانعام/ ٣٢.

[٦] – القصص/ ٦٠.

والقرآن الكريم يفيض بعبر الغابرين، وبأنّ دمارهم كان بسبب تركهم فطرة عقولهم التي ذكروا بها. وكان في ذلك دعوة لهم بالعودة إلى عقولهم من جهة، وبالخروج من أسر الهوى (عدو العقل) من جهة ثانية.

قال الإمام–عليه السلام–: (ثم دمّرنا الآخرين، وإنكم لتّمرون عليهم مصبحين، وبالليل أفلا تعقلون)[١].

ثالثاً: والعقل كُتلة نور إذا انبسطت على أرجاء الخليقة وكشفت الحقائق فيها سُمّيت علماً ومعرفةً وتفاعل الإنسان معها أكثر فأكثر.وكذلك كان العلم وزير العقل، بل كان نفسه وروحه.

والقرآن الحكيم ذكّرنا بدور العلم في تنمية العقل وتكميله في أكثر من آية، ولكنّ الإمام الكاظم–عليه السلام–يتلو علينا آية واحدة للمثل. (وكفى بها مثلاً) فيقول: (يا هشام ثّم بيّن أنّ العقل مع العلم، فقال: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالِمون)[٢].

رابعاً: لكي يستخدم الإنسان عقله، ويستنير بنوره في حياته العملية، فهو بحاجة إلى ارادة، والقرآن ينّمي هذه الإرادة عند الإنسان بسبل مختلفة، منها: ذمّ الذين لا يعقلون، وبيان أنّهم لا قيمة لهم حتى لو كانوا من آبائنا الأولين، بل إنهم شرّ الدوابّ عند الله، لأنّ أيّة دابّةٍ خلقها الله تستخدم كل مواهب الله لها، بينما الإنسان لا يستخدم عقله وهو أعظم موهبة.

وفي كتاب ربّنا آيات كثيرة في هذا الاتّجاه، منها ما يسوقه الإمام الكاظم لصاحبه هشام مثلاً فيقول:

يا هشام! ثم ذمّ الذين لا يعقلون، فقال: (وإذا قيل لهم اتَّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أَوَلَوْ كان آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)[٣].

وقال: (إن شّر الدواب عند الله الصُّم البكم الذين لا يعقلون)[٤].

وقال: (ولئن سألتهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعملون)[٥].

خامساً: ولأنّ من أعظم المؤثرات على العقل البشري اتباع الناس، والخشية من مخالفتهم مما يسمى في العلوم الحديثة بحس (التوافق الاجتماعي) فإن الإسلام يحصّن الإنسان من هذا المؤثر السلبي بذمّ الكثرة لكي لا تصبح–أبداً– مقياس الحق عند الإنسان.

يتلو الإمام الكاظم آيات مباركات في هذا السياق ويقول:

ثم ذم (ربّنا سبحانه) الكثرة فقال:

(وإنْ تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله)[٦]

---

[١] - الصافات/ ١٣٦–١٣٨

[٢] - العنكبوت/٤٢.

[٣] - البقرة/ ١٧٠.

[٤] - الانفال/ ٢٢.

[٥] - لقمان/ ٢٥.

[٦] - الانعام/ ١١٦.

وقال: (ولكنّ أكثرهم لا يعلمون)[١].

ثم مدح القلّة، فقال:

(وقليل من عبادي الشكور)[٢].

وقال: (وقليل ما هم)[٣].

وقال: (وما آمن معه إلا قليل)[٤].

سادساً: من أجل تشجيع الإنسان على التفكر والانتفاع بعقله، ذكر رب العزة العاقل بأحسن الذكر، وحلاّه بأحسن الحلية، وبّين أنّ جماع صفات الخير وجملة حسنات البشر تتمثل في التعقل. والى ذلك أشار الإمام الكاظم–عليه السلام–بقوله: (ثم ذكّر أوُلي الألباب بأحسن الذكر، وحلاّهم بأحسن الحلية، فقال: (يؤتي الحكمة مَنْ يشاء ومَنْ يُؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً وما يذكّر إلاّ أوُلو الألباب)[٥].

(يا هشام! إنّ الله يقول: (إنّ في ذلك لَذكرى لمَنْ كان له قلب)[٦].

يعني العقل. وقال: (ولقد آتينا لقمان الحكمة)[٧] الفهم والعقل).

سابعاً: ويمضي الإمام قدماً في بيان المنهجية المناسبة لتنمية العقل، لكي يشعّ نوره على أرجاء الخليقة فيضيء حقائقها، ومن ذلك التواضع للحقّ، لأنّ التكبرّ عليه لا يدع الإنسان يبحث عنه ليجده، ولأن هوى الإنسان يمنعه عن فَهْم الحقيقة التي تخالفه، هكذا يقول الإمام:

(يا هشام! إنّ لقمان قال لإبنه: تواضع للحق تكن أعقل الناس يا بني! إنّ الدنيا بحر عميق، قد غرق فيه عالم كثير، فلتكُنْ سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكّل، وقّيمها العقل، ودليلها العلم، وسكانها الصبر).

ثامناً: لأن العقل نور مركّز فلا بد من بَسْطه بالتفكر، لأن التفكّر هو إثارة كوامن العقل، واستخدام ضيائه في إنارة الظلام، وهكذا كان التفكر دليل العاقل، قال الإمام–عليه السلام–.

(يا هشام! لكل شيء دليل، ودليل العاقل التفكر، ودليل التفكر الصمت، ولكل شيء مطية، ومطية العاقل التواضع. وكفى بك جهلا أنْ تركب ما نُهيتَ عنه).

---

[١] – الانعام/ ٣٧ (وهناك آية تقول: (بل أكثرهم لا يعقلون–العنكبوت/ ٦٣) وآية أخرى تقول: (واكثرهم لا يعقلون– المائدة/ ١٠٢).

[٢] – سبأ/ ١٢.

[٣] – ص/ ٢٣.

[٤] – هود/ ٤٠.

[٥] – البقرة/ ٢٦٩

[٦] – ق/٣٦

[٧] – لقمان/١٢

تاسعاً: التفكّر صعب على البشر مستصعب، وإذا رأيت المتفكّرين في الناس هم الأقلية فلأن الجهل هو الطبيعة الاولى عند البشر، ومقاومته ليست سهله.

ومن أسباب صعوبة التفكر: خشية الإنسان من الآخرين، ونزوعه للتوافق معهم، مما يزلزل ثقته بنفسه. من هنا حذر الإمام من هذه الحالة، وقال: (يا هشام لو كان في يدك جوزة وقال الناس: لؤلؤة، ما كان ينفعك، وأنت تعلم أنها جوزة. ولو كان في يدك لؤلؤة وقال الناس: إنها جوزة، ما كان ضرّك وأنت تعلم أنها لؤلؤة).

حجة ظاهرة وحجة باطنة

وعاد الإمام إلى بيان العلاقة الوثيقة بين العقل والوحي ببيان أنَّ الهدف الأساس لإنبعاث الرسل تكميل عقول الناس، وكلما عقل الإنسان عن ربّه أكثر كلما علم أمر الله بصورة أحسن. وارفع الناس درجةً عند الله أكملهم عقلاً.

(يا هشام ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده الا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة لله، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأعقلهم أرفعهم درجةً في الدنيا والآخرة).

وكما يبدو فإنّ أعدى أعداء العقل الجهل المركّب، وهو حالة طبيعية في كل أبناء آدم حيث يزعمون أنهم يعرفون كل شيء لجهلهم بحدود أنفسهم الضيقة وبآفاق الحقائق الواسعة. وإن جذر هذه الصفة الاستكبار وعلاجها التواضع. وهكذا عاد الإمام الكاظم يذكِّر بأهمية التواضع ويقول:

(يا هشام! ما من عبدٍ إلا وملكٌ أخذ بناصيته فلا يتواضع، إلا رفعه الله، ولا يتعاظم إلا وضعه الله).

وهنا يبين الإمام الحقيقة التي طالما أكدت عليها نصوص أهل البيت عليهم السلام من اتّصال نور العقل ونور الوحي. وأنهما شعاعان من نور واحد، وكلاهما حجة الله على الإنسان.

ولعل حكمة بيان هذه الحقيقة في هذا الموقع من السياق وليس في بداية الوصية إنما هي لكي يتوضح أولاً معنى العقل، ولا يتوهم أحد أنّ كلّ ما يفرزه قلب البشر يُعتبر عقلاً. كلا، إنما العقل ما يقابل الجهل والهوى.. يقول الإمام-عليه السلام-:

(يا هشام! إن لله على الناس حجّتَينْ: حجةً ظاهرةً وحجةً باطنةً، فأما الظاهرة فالرسول والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول).

صفات العقل

كيف نعرف العقل ونميزّه عن الهوى، وعن تلك الوساوس الشيطانية التي تتلبس بالعقل وتسمّى في منطق الإسلام بالنكراء؟

أولاً: قد نعرف العقل من خلال صفات صاحبه، فَمن انجرف في تيّار شهواته، ولم يضبط تصرّفاته حسب الحكمة، ولم يمتلك منهجية علمية رشيدة في مواقفه، فإنه لا يعتبر عاقلاً.

ومن تلك الصفات صفة الشكر، النابعة من معرفة الإنسان بنفسه، وأنّه لم يكن ثم كان، فكل إضافة إليه نعمة لا بّد أن يشكر ربّه عليها، ويسعى جاهداً لإبقائها بحفظ العوامل المقتضية لها.

أما الذي إذا حظي بنعمةً اغترّ بها، وزعم أنّما أُوتيها بعلم، أو إنّها جزء من كيانه، فهو جاهل، وسوف يفقد النعمة سريعاً أو يتصرّف فيها بما يضرّه.

والصبر صفة أخرى يتّسم بها العاقل، لأنّه لا ينظر إلى لحظته الراهنة فيجزع، بل ينظر إلى المستقبل فيأمل الخير، وينظر إلى الماضي فيستصحب الشكر، وينظر إلى مَنْ دونه فيحمد الله على بقيّة النعم التي تحيط به.

وبين صفتي الشكر والصبر تجد المؤمن يقتصد على الحلال شكراً، ويكف نفسه عن الحرام صبراً.

(يا هشام إن العاقل الذي لا يشغل الحلالُ شكره، ولا يغلب الحرامُ صبره).

ثانياً: بين العقل والهوى يتقلّب فؤاد البشر حتى يغلب أحدهما صاحبه، ولكل منهما جذور عميقة في فطرة الإنسان وطبيعته.

وطول الأمل جذر بعيد الغور في قلب البشر، لأنه يحب البقاء، فيتجاهل ويتناسى النهاية الحتمية التي تنتظره، حتى قيل: بأن الموت أشبه حق بالباطل، يعترف به الجميع ولا يصدقون أنّهم ميّتون تصديقاً نفسيّاً وعمليّاً، وإذا استبد طول الأمل بقلب الإنسان فإنه لا يحسّ بحركة الزمن، ولا يجهد نفسه في استغلال لحظات عمره فيما ينفعه غداً عند ربّه،ولا يتحسّس بمسؤولياته، وهكذا تتشوّش رؤيته في كل شيء، من هنا يقول الإمام–عليه السلام–:

يا هشام! مَنْ سلّط ثلاثً على ثلاثٍ فكأنّما أعان هواه على هدم عقله: من أظلم نور فكره بطول أمله).

إنّ منِ اعترف بالنهاية القريبة يستثير فكره حتى يعرف كيف ينجو بنفسه من دواهي الموت والقبر والحساب.و.و، وهكذا لا يني يفكّر في حياته وتطويرها نحو الأحسن، بينما الساهي اللاهي الذي يعيش تمنّيات الخلود لا يجد دافعاً نحو التفكّر.

ومثله الذي لا يضبط حديثه وفق مقياس فكره، فيقول ما لا يعلم أو ما لا ينفع أو ما يضرّه السكوت عليه، فإذا بالصواب يضيع في زحمة الثرثرة، والحكمة تخفى بين ركام الكلمات التافهة.. وهكذا يعين هواه على هدم عقله. يقول عنه الإمام–عليه السلام–:

(ومحى طرائف حكمته بفضول كلامه).

أما الصفة الثالثة التي تهدم العقل فهي النظرة المنبعثة عن الشهوة، وليس عن العبرة، وبين الشهوة والعبرة تناقض. واليك بيان ذلك:

إذا استهوتك فتاة بفتنتها وجمالها، فإنك لا تستطيع أنُ تفكّر في عواقب الزواج معها، ولا تنظر إلى المسألة الا من بُعْدٍ واحد، وإذا دعتك العصبيَّة إلى عداوة تجمُّع لا تنظر إلى أيّة صفة إيجابية فيهم،ولا يمكنك أن تقيّم موقفك منهم تقييماً إيجابياً.

إنّ نظرة الإنسان نافذة عقله، ولكن شريطة أنْ ندعها حرة طليقة، أمّا النظرة الموجّهة بالرضا والغضب، بالشهوات والأهواء، فإنّها لا تعود إليك إلاّ بما أرسلتها اليه، لا بالحقائق الموضوعية، من هنا يقول الإمام–عليه السلام– عمن يهدم عقله:

(وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هَدْم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه).

ثالثاً: إنما يتقبّل الله العمل النّقي من شوائب الفخر والرياء وطهارة العمل ونقاؤه رهين أدائه بقلبٍ سليم، ونَّيةٍ خالصة، وبرعاية حدوده، وعدم إلحاق ما يبطله به، كالّمن والأذى والاستطالة على الآخرين، وكل ذلك لا يكون إلا بتحقيق هدف الأعمال الصالحة المتمثِّل في إخلاص العبودية لله..

وتزكية النفس عن أدران الكبر والجهل لا تكون إلاّ بالانتفاع من العقل لمعرفة شروط صحة العمل الظاهرة منها والباطنة.

هكذا يقول الإمام موسى بن جعفر–عليه السلام–:

(كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت عقلك عن أمر ربك، وأطعت هواك على غلبة عقلك؟).

من هنا يتبينَّ لنا أن تزكية العمل أهم من العمل ذاته، وهي لا تتحقق إلا بالتفكّر والتعقّل والابتعاد عن جوانب الهوى.

ويعود الإمام إلى بيان جانب آخر من هذه الحقيقة قريباً، حيث يوضح كيف أن طاعة الله لا تكون بغير العقل.

رابعاً: تطمئن نفس العاقل بموهبة العقل، وتثق بأحكامه وترضى بما لديه، ولا يحسّ بمركّب النقص، ولا يفتش عما يملأ فراغ نفسه من صخب الأصحاب والمردة، ومن ثروات الدنيا الزائلة.

بينما ترى الجاهل بالعكس تماماً، يعيش التردّد، فيبحث عمَّنْ يقلّد، ويستجيب لكل ناعقٍ، ويخشى من الانفراد بشيء، ويتوحش من الوحدة، ويجمع من أموال الدنيا أكثر من حاجته لعلّه يجبر بها نقص نفسه، وإحساسه بالضعف والخلاء.

لذلك كانت علامة قوة العقل الصبر على الوحدة، لأنّ العقل القوي يغُني صاحبه عن الأنصار والأصحاب.

(يا هشام! الصبر على الوحدة علامة قوّة العقل، فمَنْ عقل عن الله تبارك وتعالى اعتزل أهل الدنيا، والراغبين فيها، ورغب فيما عند ربه(وكان الله) آنسه في الوحشة، وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومعزَّه في غير عشيرة).

العقل وسيلة الطاعة

بالعقل نعرف الله، بالعقل نعرف الرسول والحجة، وكذلك بالعقل نطيع ربّنا ومَنْ لا ينتفع بعقله في اختيار الوسيلة المناسبة للطاعة لا يبلغ هدفه في ارضاء ربّه.. لماذا؟

أَولَيْست طاعة الله فرعَ معرفة أحكامه؟ أَولَيْس العلمُ هو وسيلة معرفة الأحكام؟

أَولَيْس التعلّم سبيلَ العلم؟ ولَكِنْ كيف يتعلّم مَنْ ضعف عقله، ولم تكتمل قوة عقله؟

والقلب المشحون بعواصف الشهوة والغضب، كيف تثبت فيه أحكام الربّ..؟

والقلب المعتقل في سجن الكبر والأحقاد والحسد والحرص.. كيف ينفتح على رحاب الحقائق؟.

ثم العلم الإلهي لا يأتيك إلا عبر عالم ربّاني، وأنّى لك التعرّف عليه لو لم تكن عاقلاً؟.

(ياهشام! نُصِب الخلق لطاعة الله، ولا نجاة إلا بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلّم، والتعلّم بالعقل يعتقد، ولا علم الا من عالم ربّاني ومعرفة العالم بالعقل).

من هنا يجب على المؤمن السعي نحو تكميل عقله حتى يتسنى له العلم بما يجب عليه، وليس من المناسب ان يبقى جاهلاً بحقائق دينه ويعتذر لذلك بأنه لم يُؤْتَ عقلاً يستوعبها. لأن كمال العقل بيد الإنسان نفسه عبر تلك الوصايا العديدة التي نجدها في آيات الذكر وتفسيرها من كلمات أهله ثم يقول الإمام–عليه السلام–وهو يبين فائدة العقل في مجال طاعة الله.

(ياهشام! قليل العمل من العاقل مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود)!.

ويبيّن الإمام أهمية العقل، ومدى اهتمام العاقل بتنمية الحكمة التي هي شعاع من نور العقل يضيء الجوانب العملية من الحياة، فيقول:

(ياهشام! إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة، ولم يرضَ بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك ربحت تجارتهم).

كيف ننمي موهبة العقل؟

ولأن وصية الإمام لهشام برنامج متكامل في حقل العقل، فإنه–عليه السلام– يذكره بالعقل ووسائل تنميته، وأبرزها الأمور التالية:

أولاً: الزهد في الدنيا، التي هي الحجاب الأكبر أمام عقل الإنسان أوَ تدري لماذا؟ لأن القلب المنهوم بالدنيا لا يني يبحث عنها ويدخل الصراع تلو الصراع من أجلها، فيغلب على قبله حبّها ويغلب على فكره كيفيّة الحصول عليها، وإذا فَقَدَ شيئاً منها ذابت نفسه حسرةً عليها، وفي مثل هذه الحالة أنَّى له الاهتمام بالحكمة ودرجات الكمال المعنوي.. لنستمع إلى مواعظ الإمام في ذلك علّنا نهتدي بها ونتكامل عقليّاً ببركتها:

(ياهشام! كان يغنيك ما يكفيك فأدنى ما في الدنيا يكفيك، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس شيء من الدنيا يغنيك..

ياهشام! ان العقلاء تركوا فضول الدنيا، فكيف بالذنوب؟ وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض).

لعّل الإمام يقصد بيان هذه الحقيقة أن الذنوب هي التي يجب اجتنابها ولكن العقلاء تركوا أيضاً الزيادة في الدنيا احتياطاً لأنفسهم وحمايةً لها من الوقوع في أشراك الذنوب.. ولأن اهتمامهم بفضل الدنيا كان يمنعهم من التقدّم في مدارج الكمال المعنوي.

وأضاف الإمام–عليه السلام–:

(إنّ العقلاء زهدوا في الدنيا، ورغبوا في الآخرة، لأنهم علموا أنّ الدّنيا طالبة ومطلوبة، والآخرة طالبة ومطلوبة، فمنْ طلب الآخرة طلبته الدّنيا حتى يستوفي منها رزقه، ومِنْ طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته).

والتضرّع إلى الله وسيلة هامة نحو تكميل العقل، ليس فقط لأنه يروّض النفس على العبودية لله التي تورث–بدورها– كمال العقل، بل لأن الله سبحانه يؤيد عقل المؤمن بنور هداه، فإذا به ينظر بنور الله..

هكذا ينصح الإمام عليه السلام هشاماً بالتضرّع إلى الله ليكمل عقله فيكون غنًّى في النفس وراحة في القلب من الحسد، وسلامة في الدين، وقال:

(ياهشام! من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فَلْيَتَضَرَّعْ إلى الله في مسألته، بأنْ يكمل عقله، فمَنْ عقل قنع بما يكفيه، ومَنْ قنع بما يكفيه استغنى، ومَنْ لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى ابداً).

ويبينٌ الإمام حقيقةً هامةً إذ يصف العاقل بمَن يجد حقيقة المعرفة في قلبه، فتفيض آثارها على جوارحه، فإذا بأفعاله جميعاً رسل قلبه المطمئن وعقله النّير.

(ياهشام! أنّ الله عزّ وجلّ حكى عن قوم صالحين أنّهم قالوا: (ربَّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هَدَيْتنا وَهَبْ لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهّاب)[١]. حين علموا أنّ القلوب تزيغ وتعود إلى عماها ورداها. إنه لم يَخَفِ الله مَنْ لم يعقل عن الله، ومَنْ لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قبله، ولا يكون أحد كذلك إلاّ مَنْ كان قوله لفعله مصدّقاً، وسره لعلانيته موافقاً، لأنّ الله لا يبدِّل على الباطن الخفي من العقل إلاّ بظاهرٍ منه وناطقٍ عنه).

هكذا يؤكِّد الإمام الحقيقة التي سبق أن بيَّنها من أنّ الهدف الأساسّي للدين: أنْ يعقل الإنسانُ عزّة الله، فيكون أثر الوحي في قلبه، وأثر الطاعات، تكامُل عقله ومعرفته وتزكية نفسه، وسكينة الإيمان فيها، وتوافق ظاهره مع واقعه وباطنه.

ولتوضيح هذا الأمر أكثر فأكثر يحكي لنا حديثاً عن جدّه الإمام علي–عليه السلام–يبين فيه طريقة تكامل العقل:

(ياهشام! كان أمير المؤمنين–عليه السلام–يقول: ما من شيء عُبد الله به أفضل من العقل وما تمّ عقل امرئ حتى يكون فيه خصال شتى: الكفر والشر منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، وفضل ماله مبذول، وفضل قوله مكفوف، نصيبه من الدنيا: القوت، ولا يشبع من العلم دهره، الذلّ أحبُّ إليه مع الله من العزّ مع غيره، والتواضع أحبُّ إليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقلّ كثير المعروف من نفسه، ويرى الناس كلهم خيراً منه وأنه شرّهم في نفسه، وهو تمام الأمر).

هكذا لو أخضع الإنسان نفسه الأمّارة بالسوء، حتى أتّصف بتلك الصفات الحميدة واستطاع أن يقتلع جذر الفساد من نفسه– الذي يتمثّل في الكبر– فإذا به يرى أنّ الآخرين هم أفضل منه، وهناك يكتمل عقله، وهو تمام الأمر..

ويسوق الإمام الكاظم طائفة من الخصال الحميدة قبل أن يبينّ العلاقة بين العقل والمروءة، وبين المروءة والدين فيقول:

(ياهشام! مَنْ صدق لسانه زكى عمله ومَنْ حسنت نّيته زيد في رزقه، ومَنْ حَسُنَ بُرّه بإخوانه وأهله مُدَّ في عمره.

ياهشام! لا تمنحوا الجهال الحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

ياهشام! كما تركوا لكم الحكمة فاتركوا لهم الدنيا.

ياهشام! لا دين لمَنْ لا مروءة له، ولا مروءة لمَنْ لا عقل له).

ويتبادر سؤال: ما هي المروءة، وما هي العلاقة بينها وبين العقل، والدين؟

---

[١] – آل عمران/ ٨

الجواب: إنّ المروءة هي جماع صفات الخير التي يراها الناس تكوّن شخصية الرجل المتكامل. وقد يختلف بعض أبعادها عبر العصور والأمصار، إلا أن إطاراتها العامة واحدة. وبما أن الذين يستحسنونها هم ذوو العقول فإنها تعتبر علامة مميزّة للعقل، فمن لا مروءة له لا عقل له.

ومن جهة أخرى، فلأن العقل والدين متطابقان، فإن المروءة والدين متطابقان أيضاً.

وبعد بيان هذه الحقيقة يعود لبيان علامة أخرى للعقل هي سمّو التطلّع، وعلّو الهمّة فمَنْ لم يرض لنفسه إلا الآخرة كان عظيماً: (وإن أعظم الناس قدراً الذي لا يرى الدنيا لنفسه خطراً [١] أما إن أبدانكم ليس لها ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها).

ثم يسوق الإمام جملةً أخرى من الصفات الحميدة التي تعتبر علامات لكمال العقل، كما أن، السعي وراء التحلّي بها وسيلة قريبة لزيادة العقل.. ونحن إذ نتلوها معاً بلا شرح فلأنها واضحة، وعلاقتها بزيادة العقل شبيهة بعلاقة نظائرها مما تحدثنا عنه آنفاً.

(ياهشام! إنّ أمير المؤمنين_عليه السلام–كان يقول[٢]: (لا يجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه ثلاث خصال: يجيب إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الذي فيه صلاح أهله، فَمْن لم يكُنْ فيه شيءٍ منهنّ فجلس فهو أحمق).

وقال الحسن بن علي– عليه السلام–: (إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها) قيل: يابن رسول الله ومَنْ أهلها؟ قال: (الذين قَصَّ الله في كتابه وذكرهم فقال: (أنما يتذكّر أُولو الألباب)[٣] قال: هم أُولو العقول).

وقال علي بن الحسين–عليه السلام–: (مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح، وأدب العلماء (٤) زيادة في العقل، وطاعة ولاة العدل تمام العزّ، واستثمار المال (٥) تمام المروءة، وإرشاد المستشير قضاء لحق النعمة، وكف الأذى من كمال العقل وفيه راحة البدن عاجلاً وآجلاً).

ياهشام! إنّ العاقل لا يحدّث مَنْ يخاف تكذيبه، ولا يسأل مَنْ مَنْعه، ولا يعد ما لا يقدر عليه، ولا يرجو ما يعنّف برجائه(١) ولا يتقدم على ما يخاف العجز عنه(٢)

وكان أمير المؤمنين–عليه السلام–يوصي أصحابه فيقول: (أوصيكم بالخشية من الله في السّر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والاكتساب في الفقر والغنى، وأن تصلوا مَنْ قَطَعَكُمْ، وتعفُوا عَمَّنْ ظلمكم، وتعطوا (٣) على مَنْ حرمكم، وليكن نظركم عبراً، وصمتكم فكراً، وقولكم ذكراً، وطبيعتكم السخاء (٤) فإنه لا يدخل الجنة بخيل، ولا يدخل النار سخي).

ياهشام! رَحَمَ الله مَنِ استحيا منَ الله حقَّ الحياءِ، فحفظ الرأس وما حَوَى (٥) والبطن وما وَعى، وذكر الموت والبلى، وعلم أن الجنّة محفوفة بالمكاره (٦)، والنار محفوفة الشهوات.

---

[١] – لا يختارها لنفسه ولا يعتبرها مساوية في أهميتها لأهمية نفسه والجملة التالية تبين هذا المعنى.

[٢] – في الكافي (ان من علامة العاقل ان يكون فيه ثلاث خصال: يجيب إذا سئل وينطق إذا عجز القوم عن كلام، ويشير بالرأي الذي يكون في صلاح أهله، فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء فهو احمق، إن امير المؤمنين–عليه السلام– قال: لا يجلس في صدر المجلس الا رجل فيه هذه الخصال الثلاث أو واحدة منهن–الخ).

[٣] – الزمر/ ١٢.

ياهشام! مَنْ كفّ نفسه عن أعراض الناس أقاله الله عثرته يوم القيامة، ومَنْ كفّ غضبه عن الناس كفّ الله عنه غضبه يوم القيامة.

ياهشام! إنّ العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه.

ياهشام! وجد في ذوابة[٧] سيف رسول الله -صلّى الله عليه وآله- أن اعتى الناس على الله منْ ضرب غير ضاربه، وقتل غير قاتله. العقل في المصطلح البشري

لأن الفلاسفة تكلّفوا علم الكيف وتساءلوا: كيف يعقل الإنسان الحقائق؟ وتكلّفوا علم الذات وتساءلوا: ما هو ذات العقل؟ فإنهم تصوّروا العقل سلسلة معقولات وحُجبوا عن معرفة ذلك النور الذي يكشفها، لأنه أساساً لم يكن ليعرف بغيره، ولأنه أعلى وأسمى من أن يعرف ذاته أو يحاط علماً بكيفياته..

وقد تحدّثنا في موضع آخر عن مشكلة الفلاسفة اليونان التي ورثها أتباعها في غرورهم العلمي وزعمهم بأنهم قادرون على التعرّف على كل شيء بأدواتهم المحدودة..

وقد قال ربّنا سبحانه: (وما أُتيتم من العلم إلا قليلاً) ولعل هذه الكلمة جاءت بالذات عند سؤالهم عن العقل، لأنَّ ربَّنا سبحانه قال: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)[٨].

والروح- هو الذي يتنزَّل من كل أمر في ليلة القدر وهو الوسيط بين الله ورسله ويسمَّى بروح القدس. والله العالم.

وكان مثل البشر المتكلفين علم الغيب مثل أعمى يزعم أنه قادرٌ على معرفة الألوان باللمس فيزعم أن الشيء الناعم أبيض، وأن الشيء الخشن أسود، وأن ما بينهما هو ألوان مختلفة حسب درجة ملامستها أو خشونتها. ومشكلة هذا الأعمى حقيقة تكلّف علمٍ لا يملك أدواته. وكذلك مشكلة البشر في الحقائق ما فوق المادية أنه يريد أن يتعرف عليها بوسائله المحدودة مع أن هذه الوسائل قد هيّئت له لمعرفة الحقائق المشهودة.. ويكفيه في الأمور الغيبية أن يعرف منها ما أوتي علمه عبر آياتها المنعكسة على عالم الشهود. مثلاً يكفينا في معرفة الله آياته المنتشرة في حقائق الوجود ولا يجوز لنا ان نتساءل: كيف، ولم، وبِمَ وسائر الاسئلة التي تتصل بذاته سبحانه فأنى لنا معرفة ذلك ونحن لم نبلغ واحداً من مليار جزء من معرفة حقائق الوجود المشهودة.

وهكذا وقع الفلاسفة في ضلالٍ عظيم حيث زعموا أن العقل هو تلك الأحكام المسبقة الضرورية والبديهية كقانون العلية وقانون امتناع التناقض،وما أشبه. وهذه البديهيات ليست سوى حقائق يكشفها العقل كما يكشف غيرها من الحقائق الكثيرة، بل لو لم يكُن العقل مع الإنسان في كل خطوة من خطواته، وكل مرحلة من مراحل حياته، لكانت الدنيا عليه مظلمة ولما عرف شيئاً.

ولأنّ سبيلهم كان خاطئاً منذ البداية فإنهم ضلّوا في النتائج ضلالاً بعيداً.. فتراهم في موضوع معرفة الله حاولوا التعرّف على ذاته بالتوهُّمات، فانتهى بعضهم إلى وحدة الوجود، وأثبت تطوُّراً ذاتيّاً له سبحانه، وتاه بعضهم في هذا المجال حتى زعم أن كل شيء هو الله، وقال: ليس في جُبَّتي سوى الله. وزعم أن الله يتجلَّى في الصنم كما يتجلَّى في الصمد...

وفي معرفة أسمائه سبحانه: زعموا قِدَمَ الإرادة وأزليتها، مما أَلْزَمَهُمُ الجبر في الافعال، ولم يستطيعوا عنه فكاكاً.

وفي معرفة سائر أسمائه قاسوا ربهم بخلقه، فشبهوه، وتوهّموه، ولم يعبدوا ربهم الحق، وإنّما عبدوا ما تصوّروه..

وربما جرَّدوه عن أسمائه لأنّهم لم يعرفوا كيف هي، وما هي علاقتها به سبحانه، حتى أن بعضهم نفى علمه بالجزئيات وفي الوحي والمعاجز ويوم البعث كانت لهم تكلُّفات بعيدة عن ضروريات العقل والدين. كل ذلك لانهم زعموا أنهم قادرون على الإحاطة علماً بكل شيء من خلال معارفهم المحدودة.

وكثرة أخطائهم وتناقضاتهم وإختلافاتهم أفقدتنا الثقة بمناهجهم، ولَّما فتَّشنا عن جذر الخطأ رأيناه متمثّلاً في نظرياتهم في العقل والعلم، وفي خلطهم العقل بالمعقول، والعلم بالمعلوم.

بين العلم والقطع

وللفرق الواسع بين العلم كنورٍ إلهي وبين القطع كحالةٍ نفسية، فإن أساس المنهج الإسلامي يختلف عن المنهج الفلسفي في استنباط الأحكام فالعلم والعقل حيث ذاتهما طرد الريب، وبعث السكينة في الفؤاد، ولا يمكن التشكيك فيهما لَمنْ أوتي منهما شيئاً، بينما القطع حيث ذاته الجهل بالخلاف، فلأنه لا نعرف غير هذا الحل فلا جرم من القبول به، فحيث ذاته ليس الكشف، وهو يحتمل الردع عنه بطريقةٍ أو بأخرى.

وبتعبير آخر: القطع حالة نفسية، والعلم يورث الحالة النفسية (السكينة والطمأنينة والثقة). ولكن ليس كل حالة نفسية هي نتيجة العلم، فقد تأتي هذه الحالة بسبب شذوذ في النفس كالعجلة في الحكم، أو اتباع الهوى، وطبع الله على القلب، والجهل بالاحتمالات الممكنة الأخرى وما أشبه. فلأن هذه الحالة النفسية لا تعكس دائماً العلم بالحقائق فلا يجوز جعلها مقياساً للحقيقة. بل لا بدّ أن نبحث عن مقياسٍ آخر. والمقياس الآخر هو معرفة العقل وخصائصه، والعلم وميزاته، وكشفهما كشفاً ذاتيّاً، وتمييزهما عما يتشابه معهما من الحالات النفسية، أو وساوس الشيطان، وإلقاءاته. فآنئذٍ فقط نحظى بمقياسٍ دقيق لمعرفة الحقائق. وليس هذا سهلاً، بل إنه أصعب شيء منالاً. ولا يكون ذلك بصورة كاملة إلا بتأييد الله سبحانه، ومَنْ لم يجعل الله له نوراً فما له من نورٍ[١].

يقول في هذا الأمر العلامة الميرزا الأصفهاني: اليقين الحاصل من منشأ عقلاني حجة بالفطرة العقلانية، وطريقته العقلائية عبارة عن رؤية المتيقن واقعاً والجزم به. وحيث أنه حجة عقلائية ليس للإنسان الاكتفاء به، بل يجب عليه طلب العلم، ولا يعذر – بعد الالتفات إليه–.

ثم إن اليقين–كما أشرنا–إنما يكون حجةً عقلاً إذا حصل عن منشأ عقلائي تقتضي اليقين، ولا كقطع القطاع (وقطع الشخص) الوسواس، فإن هذا ليست بحجة الفطرة.

[١] – نتحدث ان شاء الله بتفصيل عن كيفية تمييز العقل عن الجهل.

وحيث أن حجية اليقين العقلائي ليست ذاتيةً- كما عرفت- فلا بد من كَشف حجتيه شرعاً وتعبدّاً- فنقول: الظاهر عدم حجيته في الأصول والفروع إذا لم يكن عن الكتاب والسنة.. ثمّ استدل على عدم حجيته بالنهي عن القياس في الدين وأضاف (الظاهر من هذه الأدلّة) هو الردع عن حجية اليقين الحاصل منها[١].

الفصل الثاني:

العقل يهدي إلى الشرع

دور العقل في حقائق الوحي

حديثنا السابق بيّن دور الوحي في بلورة العقل البشري-فهل ياترى- للعقل دور في حقائق الوحي وقضاياه؟ بلى، وهو دور اساسي ايضاً، فبدونه تبقى فائدة الوحي محدودة.. وصفوة القول في ذلك.. أن للعقل ثلاثَ مهام فيما يتّصل بالوحي:

١- تصديق الوحي.

٢- فقه شرائعه

٣- معرفة مصاديقه.

وها نحن نفصّل القول في المهمتين الأوليتين اما المهمة الثالثة فسوف نتحدث عنها في مناسبة أخرى.

١/تصديق الوحي

يتسّلل الإنسان ليلاً من وثير فراشه، فيلقي نظرة على النجوم التي تحدثه بآيات الجمال والجلال كم ألف ألف مجرة في هذه السماء، وفي كلّ مجرة كم الف ألف نجمة هي أكبر من شمسنا وأبهر نوراً.. ويسأل نفسه: كم هي ياترى المسافة التي قطعها الشعاع الذي يلامس بصري منذ انبعث من هذه النجمة؟ كم ألف ألف عام قضته هذه الومضة من النور حتى بلغت ناظري. يقال إن بعض الومضات قد قطعت اربعين مليون عام قبل أن يصل بصيصٌ منها إلينا.

ألا ترى بعض النجوم خافتة الضوء باهتة اللون؟ أيّ قدرة تدبّر ملكوت هذا الوجود العظيم الذي خلقها ونظمها وأودع فيها ما يصلحها؟.

مَنْ أنا؟ ما هو دوري؟ ولماذا خُلقت؟ وهل الرب الذي تتجلى حكمته في تنظيم خلايا بناني بذات الدقة التي تتجلى في تنظيم تجمعات المجرات العملاقة.. هل الحكيم خلقني عبثاً..؟ كلا..

هنالك يهتزّ القلب لحقيقة المسؤولية، ويبصر-بنور العقل- أبعادها وآفاقها.. ويقول بلا ريب تردّد:

سبحانك اللّم أَعِنَّي على نفسي.. إهدني سبيلي وعرّفني الهدف الذي خلقتني له، ووفقني لأداء أمانتك عندي، وَقِني عذاب النار.

[١] - كتاب المعاريض-تقريرات درس الميرزا الاصفهاني مخطوط (توجد نسخة منه في المكتبة الرضوية بمشهد الرضا-عليه السلام-) /ص١٩ وقد تحدثنا مطولا حول هذا الموضوع في فصل آخر.

كانت تلك رحلة العاقل من عمق صحراء الشك إلى ذروة حقيقة الإيمان وعنها يقول ربّنا سبحانه: (إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتُ لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكَّرن في خلق السموات والأرض ربنّا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار، ربنَّا إنك من تُدخلِ النّار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصارٍ)[١].

وتتموَّج المعارف في ذلك القلب المغمور بنور العقل كما تتموّج المحيطات عند أعتى الأعاصير.

هنالك يعرف العقل حقيقة الرسالة التي هي تجلِّيات الحكة الإلهية في ضمير الإنسان.. يعرف أن تلك القيم التي يدركها عقله، ويدرك أنها تتصل بضمير الكائنات، وبغيب الحياة، وروح الخلائق، إنها تفيض من غيب الربوبية، ومن وراء حجب ملكوته الأعلى..

إنَّ التطابق والتكامل اللذين يجدهما القلب الواعي بين القيم العقلية التي يجدها في داخله ويشهد صدقها، ويرى حقائقها بلا حجاب ولا ارتياب، أقول: إن التطابق والتكامل بينهما وبين الحقائق التي تَشّر بها الرسالات، لأهمُّ دليلٍ وجدانّي على صدقها وصدق المبشّرين بها، والحاملين لها والمخلصين في الدعوة اليها.

إنَّ الحقائق الكبرى واحدةُ، يتّصل بعض أبعادها ببعضٍ كما تتّصل أشعة الشمس ببعضها، فالإيمان بالله يتجلَّى للقلب الذي ينفذُ إلى روح الكائنات، وضميرها المتمثّل في الحكمة البالغة والتدبير المهيمن على كل شيء. ومن الإيمان بالله الحكيم، ينبعث الإيمان بالجزاء وباليوم الآخر، ومنهما يفيض الإيمان بالرسالة وبالرسول.

وهذا الدور المعترف به لدى كل كل المؤمنين بالرسالة هو الأساس، وقد استشهدت به الآيات القرآنية، حيث أمرت بالتفكّر والتذكّر.

فبالتفكّر في الايات نعرف ربّنا العزيز، فقال سبحانه: (إنّ في خلق السماوات وأرض واختلافِ الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب)[٢].

وبالتفكّر نعرف الرسالة والرسول:

(أم لم يعرفوا رسوَلُهم فهم له منكرون)[٣].

وقال سبحانه: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[٤]. ومن التفكُّر في الآيات الإلهية في الخليقة وفي آيات اله المنزلة في كتابه، يهتدي العاقل إلى أصول الشرائع الإلهية، لأن عدلُ الله يتجلّى في قيمة العدل في شرائعه، ولأن حكمته في ابتلاء الخلق تتجلى في قيمة الحرية، ولأن رحمته الواسعة تتجلَّى في قيمة الأمن والرفاه في أحكامه. وهكذا يتحقَّق دور العقل في فقه الشرائع.

---

[١] - آل عمران/ ١٩٠-١٩٢.

[٢] - آل عمران/ ١٩٠.

[٣] - المؤمنون/ ٦٩.

[٤] - النساء/ ٨٢.

٢/ فقه الاحكام

بالتفقُّه في الدين والتدبُّر في آيات الكتاب، يعرف العقل البشري الأصول العامة للشرائع الإلهية ومن خلالها يتدرَّج نحو معرفة سائر الأحكام.

إنك حين تتدبَّر في آيات الكتاب لا تجد حكماً شرعيّاً إلا وقد بيّنت حكمته إلى يسوقها القرآن الكريم عبر مثلٍ أو قصّةٍ أو أمثولة. وتتكرّر معها عادةً كلمات: من أجل ذلك، أو كذلك. أو لكي لا، أو لا يريد الله، أو ما أشبه.

القرآن الحكيم، كتاب حكمة كما هو كتاب شريعة، بل قبل أن يكون كتاب شريعة. وقد قال سبحانه: (ذلك مّأ أوحى إليك ربّك من الحكمة)[١].

وقد سمّى ربُّنا كتابه الكريم بأنه تذكرة وتبصرة ونور وهدى وضياء وشفاء وما إلى ذلك مما يتناسب وحكمة الشرائع وتفقه روحها وبلوغ مرامها وقيمها وحين نتلو سورة الأنعام التي تفيض على أفئدة المؤمنين نور التوحيد، وتطّهرها من دنس الشرك بكل ألوانه وأبعاده[٢] نجد كيف يبينّ ربّنا لنا أحكام الدين التي هي–في الأصل– ثمارُ شجرة التوحيد المباركة، وهي–في الخاتمة–معارج للعقل والتقوى واليقين.. فالحكم الذي لا ينبعث من التوحيد نبتةً مجتثة لا تلبث أن تهيج وتصفّر، والحكم الذي لا يتّخذ معراجاً نحو العقل والتقوى واليقين، قشرةٌ خاوية لا لبَّ فيها ولا فائدة.

فانظر كيف تشرح سورة الأنعام أولاً: قُبح التكذيب بآيات الله لأنه أصل فساد القلب، وسبب ضلال النفس، ويمدح المؤمنين الذين يعرفون الكتاب كما يعرفون أبناءهم ويقول:

(الذين آتيناهُمُ الكتابَ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون)[٣].

وكأن الكتابَ ابنُ عقلِ الإنسان، والتكذيب به خساةٌ للنفس، فما قيمة نفس لا عقل فيها؟.

وبعد بيان الصلة بين الشرك والكذب، يبينّ ربّنا ما به شفاء صدر الإنسان الواعي من درن الشرك والكذب.

ثم حين يبينَّ قيمة الأمن المنبعثة من قيمة التوحيد، يستعرض في البدء قصة إبراهم–عليه السلام–حين سلك بقومه سبيل الإيمان بالله عبر النظر في ملكوت ربه والإعجاب بالكوكب والقمر وبالشمس ثم الكفر بها جميعاً، والتوجّه إلى الذي فطر السموات والأرض ثم قال ربّنا سبحانه:

(وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأيّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون)[٤] (الذين آمنوا ولم يلبسُوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهُمُ الأمن وهم مهتدون)[٥].

---

[١] – الانعام/ ٣٩.

[٢] – في بحث مفصل نستعرض بإذن الله القيم الأساسية للوحي، وشرائعه ولا يسعنا هنا ألا الالمام بذلك تبعاً للسياق.

[٣] – النعام/ ٢٠.

[٤] – الانعام/ ٨١–٨٢.

[٥] – الانعام/ ٨١–٨٢.

وعندما يكرس قيمة التوحيد في النظام السياسي ينوَّه بعباده الصالحين الذي فضّلهم على العالمين ثم يقول: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده، قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلاَّ ذكرى للعالمين)[١].

وعندما يذكرنا بأصل الإباحة،ويبعث العباد إلى الانتفاع بما في الأرض إلا ما تلُي عليهم من المحرمات، يبيِّن ذلك بالمنهج التالي:

(فكُلُوا ممَّا ذُكر إسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين)[٢].

هكذا يأمر الأكل ويجعل ذلك من ثمرات الإيمان ويقول: (وما لكم ألا تأكلوا مما ذُكر اسمُ الله عليه وقد فصَّل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه، وإنّ كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علمٍ إنَّ ربّك هـ أعلمُ بالمعتدين)[٣].

أرأيت كيف يفصِّل القول في جوانب القضية حتى يصل لنا نورً وهدىً ننفذ بهما في عمق الموضوع، فنعرف–مثلاً–أن حالة غير إلهية وهي ضلالة جاهلية يسببها اتباع الهوى بل هي حالة عدوانية معنفة.

ويبنَّ ربّنا دور المجرمين الذين يمكرون في الأرض، ولا سبب في تسلُّطهم على الناس، ونَشرهم للفساد والجريمة،ضرورة مقاومتهم حتى ينعم الناس بدار السلام فيقول سبحانه: وكذلك جَعَلنا في كلّ قرية أكابَر مجرميها ليَمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون)[٤].

ثم يقول: (وهذا صراط ربِّك مستقيماً قد فصَّلت الآيات لقومٍ يذكرون لهم دار السلام عند ربّهم وهو وليَّهم بما كانوا يعملون)[٥].

ويختم حديثه ببيان الحكمة البالغة في تولَّي الظالمين السلطة ويقول: وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون)[٦].

هكذا يفصّل القول في أطراف القضية حتى نعرف كل ما يتصل بها من حقائق ومن ثم نستوحي منها ما يمكن من أحكام فرعية..

وفي القضية الاقتصادية (المعاشية) وبيان خط الاعتدال بين الإسراف والتقتير يصرف السياق القرآني الانظرال إلى نِعَمِ الله ليعرفوا بأنفسهم الحكمة منها فيقول سبحانه: وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشاتٍ والنخلَ والزرعَ مختلفاً أُكله والزيتونَ والرمانَ متشابهاً وغيرَ متشابهٍ كُلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّه يوم حَصادِهِ ولا تُسرفوا إنّه لا يحبُّ المُسرفين)[٧].

فمن دون معرفة الله الذي أسبغ علينا هذه النعم والإيمان بحكمته كيف نستطيع أن نعرف الحكمة منها؟ ومن دون معرفة الحكمة منها أنّى لنا التعرف على أحكامها؟ فإذا كانت الحكمة من النعم الانتفاع بها فإنَّ الإسراف فيها–كما تحريمها– على النفس ظلم فاحش.

---

[١] – الانعام/ ٩٠.

[٢] – الانعام/ ١١٨.

[٣] – الانعام/١١٩.

[٤] – الانعام/ ١٢٣.

[٥] – الانعام/ ١٢٦–١٢٧.

[٦] – الانعام/ ١٢٩.

[٧] – الانعام/ ١٤١.

كما أن الاستفادة منها في التسلُّط على الناس أو الاعتداء عليهم أو حرمانهم عنها إنّ كل ذلك مخالفة فاحشة لحكمة وجودها. يقول ربنا سبحانه: (ومن الأنعام حمولةً وفرشاً كُلُوا مما رزقُكُم الله ولا تَتَّبوعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين)[١].

وبعد بيان ظلم الذين يحرمون على أنفسهم نعم الله التي أخرجها لعباده، يقول سبحانه: (قل لا أجدُ في ما أُوحي إليَّ محرَّماً على طاعمٍ يطعّمُه إلاَّ أنْ يكونَ مَيْتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزيرٍ فإنهّض رجسٌ أو فسقاً أُهِلَّ لغيرِ الله به فمن اضطرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فإنَّ ربَّك غفورٌ رحيمٌ)[٢].

ويعود ويذّم أولئك الذين يحرِّمون ما أحلَّ الله ويقول: (قُلْ هلمَّ شهداءكم الَّذين يشهدون أن الله حرَّم هذا فإنْ شَهِدُوا فلا تشهَدْ معهم ولا تَتَّبع أهواء الذَّين كذَّبوا بآياتنا والَّذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهِّم يعدِلُون)[٣].

وبعد ذلك يبينَّ بوضوحٍ قائمةَ المحرَّمات الأساسية التي تحدِّد حرّية الإنسان، لكي يقطع السبيل على كل جبّار يصادر حريات البشر باسم الدين، وعلى كلّ شيطان جاهلي معقّد يوزّع على الناس فتاوى التحريم والتفكير، فيقول سبحانه: (قل تعالْوا أَتلُ ما حرَّم ربّكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ولا تقرَبُوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا تقتلوا النفس التي حَّرم الله إلا بالحقّ ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تعقِلُون، ولا تقرَبوا مالُ اليتيم إلاَّ بالتي هي أحسنُ حتى يبلغ أشدَّه وأوفُوا الكيلَ والميزان بالقسط لا نكلِّف نفساً غلا وُسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهِد الله أوْفوا ذلكم وصَّاكم به لعلَّكُم تذكرَّون)[٤].

فالتعقُّل والتذكُر هما هدف وصايا الله، إذ بهذه الوصايا ينمو عقل الإنسان، وتتموج معارفه الفطرية.. أليس هذه الوصايا تطابق ما في ضمير كل واحدٍ من البشر من الركائز الوجدانية؟

هكذا نجد آيات سورة الانعام تغني العقل بالحكم التي تذكر بها، فإذا كان الإنسان في مستوى تلقِّي هذه الحكم، وتنمية مواهبه الفطرية بها، حتى تصبح تلك الحكم واضحةً عنده يعرفها كما يعرف المرء ابنه، عندئذ يستطيع أن يستفيد أمرين:

استنباط الفروع من الأصول

أولاً: الرجوع ال القيم لمعرفة الحكم الأولى والأهم والتزاحم وهو ما نتحدث عنه في مناسبة أخرى انشاء الله.

ثانيا: فمن عرف حِكمَ الأمن والحرية والعدالة، فإذا أضرّ عملٌ بأمن الناس، أو سَلَبَهُمْ حريتهم أو كان فيه ظلمٌ ظاهرٌ أو خفيّ فإنه يصبح حراماً كما أنه لو توقف تحقيق هذه الحِكم على عمل معين أضحى واجباً.

وبالرغم من أن الشريعة قد أوضحت الأحكام الفرعية التي تحقَّق هذه الحكم بصورةٍ كافيةٍ إلا أن تلك الأحكام الفرعية تتّصل بالثوابت، بينما الحوادث المتغّيرة والتي هي من حيث المجموع–أكثر من الثوابت لا تزال بحاجة ماسة إلى الاستنباط لمعرفة احكام تلك المتغيرات من لكم.

---

[١] – الانعام/ ١٤٢.

[٢] – الانعام/ ١٤٥.

[٣] – الأنعام/ ١٥٠.

[٤] – الانعام/ ١٥١–١٥٢.

وفيما يلي نضرب طائفة من الامثلة لتوضيح ذلك:

الف: حينما أمرنا الله سبحانه بالطهارة بين حكمتها وقال سبحانه:

(يا أيها الذي آمنوا إذا قُمتم إلى الصلاة فاغْسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعَبْين، وإنْ كنتم جنبا فاطهروا وإنْ كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاءَ أحدٌ منكم من الغائطِ أو لامَسْتُمُ النساء فلم تجدوا ماءً فتيمَّمُوا صعيداً طيباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرجٍ ولكنْ يريد ليطهّركم وليتَّم نعمتَه عليكم لعلّكم تشكرون)[١].

فالحكمة من هذه الواجبات طهارة الإنسان التي هي وسيلة لإتمام العنمة. وبالتالي لشكر المؤمن. وبما أن إتمام النعمة الإلهية تتمثّل في قرُبه من الله تعالى وبما أنَّ الإنسان الطاهر يكون أقرب إلى الله وجبت الطهارة قبل العبادة.

من هذه الحكمة نعرف أنّ كل قذرٍ ووسخٍ مكروهٌ عند ربنا، ويبعد الإنسان من ربه، فلا بدّ من تجنبه. وأنَّ كلَّ طهارةٍ محبوبةٌ، كطهارةِ البدن والثوب والبيت والشارع والهواء. وكما ان الجسد القذر لا يناسب العبادة، كذلك الثوب القذر والمحل القذر والهواء الملوّث بالدخان والغبار والغازات المضّرة لا يناسب الإنسان المسلم والمجتمع المسلم.

وهكذا جاء استنباط حكم تلوث البيئة من هذه الآية، ومن آياتٍ مشابهة وكلنه بحاجة إلى قلبٍ واعٍ ينفذ إلى حكمة الواجب الشرعي، ويستلهم منها الأحكام الفرعية.

باء: يأمرنا الله سبحانه بالصلاة ويبينَّ حكمتها فيقول سبحانه: (فإذا قضيتُمُ الصلاة فَاْذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنُوبكم فإذا اطمأنَنْتُمْ فأقيموا الصلاة إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)[٢].

وجاءت هذه الآية الكريمة في سياق أمر الله بصلاة الخوف.

وقال سبحانه: (وأَقِمِ الصَّلاة لِذِكْري)[٣].

فالصلاة إذاً شُرعِّت لذكر الله، وذكُر الله واجبٌ على كل حال قياماً وقعوداً وعلى الجنوب.. وفي الحرب والسلم، وهي–كذلك– كتاب موقوت، فهي على ذلك لا تترك بحال.

فإذا كان الإنسان في الطائرة أو في قطار مزدحم، أو على سرير المستشفى أو في أي حالٍ يجب ألا يترك الصلاة بأية طريقة يقدر عليها.

واذا كان مع الوضوء أو التيمم، أو بدونهما فلا ينبغي ان يترك صلاته. وهكذا نستنبط من هذه الحكمة المذكورة في الكتاب حكم فاقد الطهورين (الطهارة المائية والترابية) فانه لا يجوز له ترك الصلاة رأساً.

---

[١] – المائدة/ ٦

[٢] – النساء/ ١٠٣.

[٣] – طه/ ١٤.

جيم: في سورة الحشر عندما يبينَّ ربّنا سبحانه حكم الغنائم الحربية ذكرنا بأصلٍ مهم في الحياة الاقتصادية وقال سبحانه: (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخُذُوه وما نهاكُمْ عنه فانتهوا واتَّقُوا الله إن الله شديدُ العقاب)[١].

فإذا كانَ وَضْعٌ اقتصادي معين يسبب تداول الثروة بين الأغنياء فقط وحرمان الطبقات المستضعفة من خيرات الثروة، فإن ذلك أمر شاذ عن تعلم الدين ويجب تعديله..

وكذب حينما بيّن ربّنا سبحانه حكم السفهاء وقال: (ولا تؤتوا السَّفهَاء أموالكم التي جعل الله لكُم قياماً وَارزقوهم فها وأكسوُهم وهولوا لهم قولاً معروفاً)[٢].

هكذا بيّن حكمة المال وأنه قيامٌ للناس، فإذا أضرّ تصرُّف معّين بهذه الحكمة المالية فإنه يصبح لا غياً.

فمن كنز الذهب والفضة، أو كرس أمواله في البنوك الأجنبية، وترك شعبه بحاجة إلى الثروة لتدوير اقتصاده، فإن عمله محالف لحكمة المال.

دال: وعندما بيّن لنا الدين حكم العقود جعل ذلك بصفةٍ مطلقة وقال سبحانه: (ياأيها الذين آمنُوا أوفُوا بالعقودِ أحلَّت لكم بهيمة الأنعام إلاّ ما يتُلى عليكم غير محلّي الصيد وأنتم حرُمٌ إن الله يحكم ما يريد)[٣] ولان كلمة العقود هنا عامة تشمل كلّ تداول وتبادل، فإن كلّ عقدٍ عرقّي مشروعٌ شريطة ألاّ يتعارض والأحكام الشرعية كالمصالح المحَّرمة مثل بيع الخمر، وهكذا العقود الفردية والضررية وما أشبه.

وقد قال سبحانه: (إلا أنْ تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألاَّ تكتبوها)[٤].

وقال سبحانه: (ياأيّها الذين آمنُوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)[٥].

بمثل هذه الآيات نعرف الحكمة العامة في فقه الإقتصاد، ومنها نستنبط الحكم الفرعي المناسب لكل عقد مستحدث.

بين الاستنباط والقياس

وليس هذا الاستنباط من نوع القياس الذي يرفضه مذهب أهل البيت–عليهم السلام– والسبب هو:

أولا: أن القياس منجٌ جذرياً مع المنهج القرآني وقد ناقشنا ذلك في مناسبةٍ سبقت.

ثانياً: أن القياس–في المصطلح– التعُّرف على حكم النظير من خلال علّة مظنونة في نظيره، بينما هنا نحن نريد استنباط حكم الفرع من الأصل. وعلى هذا فإن أساس البصيرة القرآنية التي عرفناها بفضل أحاديث أهل البيت–عليهم السلام– هو السعي لفهم الحكم العامة في الشريعة عبر التدبُّر في آيات الذكر. والسلوك عبر المنهج الإلهي الذي بشّر به الدين وسبق

---

[١] – الحشر/ ٧.

[٢] – النساء/ ٥.

[٣] – المائدة/ ١.

[٤] – البقرة/ ٢٨٢.

[٥] – النساء/ ٢٩.

الحدث عنه. وإذا تبصرَّنا الحكم هذه جيداً، وعرفناها يقيناً فإننا نستنبط منها حكم المسألة الفرعية بلا تردّد، ويكن علمنا به علماً يقينياً أو لا أقل تطمئن نفوسنا إله مما يكفينا حجة شرعية، كما سوف نتحدث عنه في مناسبة أخرى إن شاء الله.

وهكذا يرى هذا المنهج أنه لا يجوز لا أخذ بالحكمة المظنونة، ولكن يوصينا بضرورة البحث الجدي لمعرفة حكمة كل حكم شرعي من خلال التدبّر في النصوص (الآيات والروايات) فنحن ندعو إلى الحصول على العلم بالحكمة الآلهية الموجودة في كل حكم شرعي. ولا ندعو إلى العمل بالحكم الستنبطة بالقياس الظني. والفرق بينهما هو الفرق بين العمل وبالاستنباط العلمي وبين العمل بالقياس الظني والله الموفق..

الفصل الثالث:

الشرع يكمل العقل

تمهيد أليس أصل الإنسان عقله، أَوَلَسْناَ نهتدي إلى آيات ربنا بنور العقل، ونعرف رسله ورسالاته به، فلماذا الوحي؟ وما هي ضرورته؟.

لقد أودع الله في البشر نور العقل ولكنَّ الإنسان غفل عنه وخاض في غمرات الشهوة والغضب، وضلّ عن ربِّه ضلالاً بعيداً. لذلك لم يؤدِّ إلى ربّه ميثاقه÷ ولم ينتفع بفطرته التي فطره الله عليها، ولم يهتد بضياء عقله في دروب الحياة الحالكة.. ألست ترى في العالم هذا الظلم الفاحش والجهل والمطبق والضلال المبين؟ مَنْ منّا لا يعترف أنّ نسبة الجهل والجهالة والضلالة والغواية في البشرية تفوق بل تجتاح نسبة العلم والحكمة.

أن جذر ضلالة الإنسان وغوايته، يكون بثلاثة عوامل:

١- غفلته عن عقله، أو سبات عقله وعلاجُه إيقاظُ العقل.

٢- غلبة الهوى وإتباعه، وعلاجُه تنمية الإرادة.

٣- الضلال عن سُبُل الانتفاع بالعقل، وعلاجُهُ التذكرةُ بالمناهج القويمة للتفكر. وفيما يلي نتحدث إجمالٍ عن كل واحدٍ من العاملين الأوَّلَين، ونؤخر الحديث ن العالم الثالث إلى فصل شروط الاستنباط إن شاء الله.

إيقاظ العقل

العقل نور الإنسان يغفل عنه، ويضل بعيداً في ظلمات جهله، ويغطّ في سبات عميق!

ويبعث الله أنبياءه الكرام ليثيروا للناس دفائن العقول، ويوقظوهم من سباتهم.

إنهم في ظلمات الجهل، ويخرجهم الأنبياء إلى نور العقل.

(الله وليُّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور)[١].

(كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور)[٢].

---

[١] - البقرة/ ٢٥٧.

[٢] - ابراهيم/ ١.

أن أخَرج قومك من الظلمات إلى النور)[١].

وهذا هو دور التذكرة الأساسي الذي يقول عنه الإمام أمير لمؤمنين–عليه السلام– في سياق حديثه عن هدف إنبعاث الرسل عليهم السلام ليستأدوهم ميثاق فطرته وليذكروهم منسي نعمته ويثيروا له دفائن العقول وقد أشارت آيات القرآن زهاء (٢٥٠) مرة إلى هذا الدور العظيم، دور التذكرة حتى سُميِّ القرآن ذكراً كما سُمِّي الرسلو الأكرم بالذكر وقال ربنا سبحانه:

(وما تسألهم عليه من أجرٍ إنْ هو إلا ذكر للعالمين)[٢].

(وإنه لذكرٌ ولقومك وسوف تسألون)[٣].

والآياتُ التي تبعث الإنسان نحو النظر والتفكر والتعقل والتدبر وما أشبه إضاءاتٌ في هذا السيل وإذا استيقظ العقل من سباته، واستثيرت دفائنه، فإنّ صاحبه يتجنب نسبةً كبيرة من الأخطاء الجذرية، والضلالات البعيدة، ومن أجل أن نعرف ذلك دَعنا نبيِّن فكرةً أساسية:

الصور التي تنعكس على نفوسنا من الحقائق الخارجية ربما كانت مطابقة لها، وربما كانت مخالفة، فلا يمكن الاعتماد عليها، والثقة بها.

والمشكلة الرئيسية التي ظلت تقلق البشرية دوماً هي البحث عن ضمانةٍ لمعرفة مدى تطابق ما نعتقد انه حقٌ فعلاً، وبتعبيرٍ أخر عن طريقةٍ لتجنُّب الخطأ.

ولا شك شكّ أن محاولات البشر لإصلاح (المنطق) قد نجحت جزئياً منذ انتشار الفكر السوفسطائي الجدلي. والمنطق الأرسطي الذي جاء ردّاً مناسباً له، ثم المتطورات المحددة التي طرأت عله وحتى المناهج الحديثة كالمنطق الرياضي والتجريبي.

إلا أنّ الريب لا يزال يحكم عقل البشر، وذلك لأنه لم يفتش عن ذات العقل الذي يعتبر بمثبتة المصباح، إنما إكتفى بشعاعه وجعله بديلاً عنه. ولو عرف المصباح وجعل شعاعه دليلاً عليه لكفاه ذلك.

وهذا بالضبط هو النهج الإسلامي في المعرفة: اكتشاف المصباح بالمصباح، وبما يشّع من ضياء وعدم الالحاد فيه بما يضاء من أشياء. أرأيت العلم بسائر الحقائق انما يكون بفضل النور فإذا عقل البشر هذه الحقيقة ان علمه بالبديهيات والتي هي أصل العلم بسائل الحقائق، انما يكون بفضل النور الإلهي الذي نسميه عقلاً أو علماً؛ عرف ان الغفلة عن هذا النور ضلال مبين..

بلى، إن معرفة النور الذي يضيء ما حوله ليست كمعرفة الاشياء التي تضاء بالنور، أو تدري لماذا؟ لأنّ النور يعرف بذاته، وبما يكشفه من الحقائق، فإذا أردت معرفته بغيره ضللت عنه، وعرفت مجموعة أشياء مضاءة هي بدورها بذات النور

---

[١] – ابراهيم/ ٥.

[٢] – يوسف/ ١٠٤.

[٣] – الزخرف/ ٤٤.

ولم نعرف النور ذاته كما تورط الفلاسفة حين زعموا أن العقل هو البديهيات أو ما يسمى اليوم بالأحكام المسبقة) أو هي الصور المنعكسة من الأشياء في صقع الذهن البشري. ولم يسألوا أنفسهم كيف يتم علمنا بهذه البديهيات أو بتلك الصور.

ولأن الصور فد تكون حقائق وقد تكون افرازات لحالات نفسية أو عصبية أو ما أشبه والتي نسميها (الاوهام) فقد وقعوا في إشكالية كبيرة لم تنفعهم محاولاتهم العديدة للخروج منها، تلك الاشكالية هي ما الفرق بين الصور المنبعثة من الحقائق الخارجية وتلك الصور المختلقة من الحالات النفسية ودون ان يكون لها أي رصيد من الخارج؟

واعظم ما في بحوثنا هذه اكتشاف وسيلة للتفريق بين الحقائق التي تنعكس علينا وبين ((الأوهام التي تتزاحم عادة على أفئدتنا. وإذا كنا قد وعينا البصائر التي سبقت فإننا نبلغ هذا الهدف بسهولة ونحل تلك الاشكالية كيف ذلك؟

بالطرق التي ذكرّنا بها الإسلام سوف نكتشف العقل .. ونزداد وعياً به.. وبأمتداداته.. وصفاته وصفات من يتحلى به. وهنالك يكون من السهل معرفة أضداده من الجهل والهوى..

وكما ذكرّنا حديث شريف عن الإمام الصادق –عليه السلام – أنه قال : (اعرفوا العقل وجنده، والجهل وجنده، تهتدوا) [١]يكون هدفنا الأسمى التعرّف على عقولنا بصورة أفضل حتى لا يتشابه علينا شعاع العقل بظلام الجهل الذي يحيط به. وحسب تعبير أئمة الدين تميّز بين العقل والنكراء التي هي شبيهة بالعقل، فقد جاء في حديث شريف عن الإمام الصادق – عليه السلام– يسأله الراوي ويقول له: ما العقل ؟ قال: ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان. قال ((الراوي)) قلت: فالذي كان في معاوية؟ قال : تلك النكراء وتلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بعقل [٢] أقول: إذا ميّزنا العقل عن النكراء، فهنالك نكون كمن وجد المصباح فاستضاء بنوره في دياجير الظلام! وهكذا كانت آيات الوحي وبصائر المفسرين لها لا تني تذكرّنا بالعقل.. وتحفز فينا الرغبة فيه وتحذرنا الجهل وتنذرنا من مغبة اتباعه.

وهذه النصوص لا تنفع كل الناس، إنما تنفع الذين يلقون السمع للشهادة فيسعون جاهدين لمعرفة العقل ولا يحجبون أنفسهم بتصوّرات مسبقة عنه فيضلون عنه السبيل!.

ويبدو ان نهج الوحي في معرفة العقل يتدرج عبر المراحل التالية:

أولا: التذكرة بالعقل.. وبأن الإنسان عاقل، وعليه أن ينتفع بعقله.. واستفاضت الآيات بهذه الكلمات: (أفلا تعقلون)، (أفلا تذكرون)، (ولكنهم لا يشعرون)، (أفلا يتفكرون). وقال ربّنا سبحانه: (وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير)[٣] وقال سبحانه: (أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قُل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكّر أولو الألباب)[٤].

---

[١] – بحار الأنوار/ ج ١ ص ١٠٩.

[٢] – المصدر/ ص ١١٦.

[٣] – الملك/ ١٠.

[٤] – الزمر/ ٩.

وقال: (قُل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور)[١].

وروي عن النبي –صلّى الله عليه وآله–:

(لكل شيء آلة وعدة، وآلةُ المؤمن وعدته العقل، ولكلّ شيء مطيّة ومطيّةُ المرء العقل، ولكلّ شيء غاية وغايةُ العبادة العقل، ولكلّ قومٍ راعٍ، وراعي العابدين العقل، ولكلّ تاجرٍ بضاعة، وبضاعةُ المجتهدين العقل، ولكل خرابٍ عمارة، وعمارةُ الآخرة العقل، ولكلّ سفرٍ فسطاط يلجأون اليه، وفسطاطُ المسلمين العقل)[٢].

وعن الإمام علي–عليه السلام–.

(فقدُ العقل فقد الحياة، ولا يقاس إلا بالأموات)[٣].

ثانياً: بيان صفات العقل وآياته. أو بيان جنوده التي هي–في الواقع– إشعاعاته المختلفة، كالعلم والحلم والصبر والشكر و... وبيان العقل.

فقد جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق–عليه السلام– (اعرفوا العقل وجنده، والجهل وجنده تهتدوا، وانما يدرك الحق بمعرفة العقل وجنده)[٤].

وأضاف الإمام في حديث آخر: (وأنما يدرك بمعرفة العقل وجنوده، ومجانبة الجهل وجنوده).

وفي حديث ثالث عنه–عليه السلام– قال: (كان مما أعطي العقل من الخمسة والسبعين جنداً الخير وهو وزير العقل، وجعل ضدّه الشر وهو وزير الجهل، والإيمان وضدّه الكفر، والتصديق وضدّه الكفر، والتصديق وضدّه الجحود إلى أخر الحديث)[٥].

ثالثاً: تعريف الجهل وجنوده. لأنّ الضدّ يعرف بضدّه [٦] كما أن الظل يكون دليلاً على الشمس.

جاء في الحدث المأثور عن الإمام الصادق–عليه السلام–:

(الجهل صورة ركّبت في بني آدم، إقبالها ظلمة، وإدبارها نور، والعبد متقلّب معها كتقلُّب الظلّ مع الشمس ثم قال: وأدنى صفة الجاهل دعواه العلم بلا إستحقاقٍ وأوسطُه جهلُه بالجهل، وأقصاه جحودُه العلمَ، وليس شيء إثباته حقيقة نفيه الا الجهل والدنيا والحرص فالكل منهم كواحد والواحد منهم كالكل)[٧].

رابعاً: بيان صفات العاقل ممّا يجعل الإنسان الواعي يتذكر أنها فعلاً صفات حميدة. ويهتدي–بالتالي– إلى ذلك النور المودع عنده والذي يكشف له حسن تلك الصفات. وكذلك بيان صفات الجاهل لكي يتذكّر الإنسان قبحها ويتذكّر ويتعرّف على ذلك النور الذي به يبصر قبح تلك الصفات، وهو العقل!.

---

[١] – الرعد/ ٥٠.

[٢] – الحياة/ ج ض ص ٣٤.

[٣] – المصدر/ ص ٤٤.

[٤] – المنطق الإسلامي اصوله ومناهجه/ ص ١٥١.

[٥] – المصدر وتجد فيه فصلان مفصلان عن النبي–صلى الله عليه وآله– حول جنود العقل وكذلك في كتاب بحار الأنوار/ ج ١ كتاب العقل.

[٦] – النصوص التي تفصل القول في العقل تبين أيضا جنود الجهل بالتفصيل فراجع.

[٧] – الحياة/ ج ١ ص ٥٣.

فقد سئل الإمام أمير المؤمنين–عليه السلام– فقيل له: صف لنا العاقل فقال: هو الذي يضع الشيء مواضعه. قيل له: فصف لنا الجاهل؟ قال: قد فعلت[١] (يعني أنه الذي لا يضع الشيء مواضعه).

وعن النبي–صلّى الله عليه وآله_ : (إنّ العاقل مَنْ أطاع الله وإنْ كان دميم المنظر، حقير الخطر، وإنّ الجاهل مَنْ عصى الله وإنْ كان جميل المنظر عظيم الخطر. أفضلُ الناسِ اعقلُ الناسِ)[٢].

وقال الإمام علّي–عليه السلام– : (غَضَبُ الجاهل في قوله، وغَضَبُ العاقل في فعله)[٣].

(إعجاب المرء بنفسه دليلٌ على ضعف عقله)[٤].

(مَنْ جانب هواه صَحّ عقله).

وفي حديث مفصل يبيّن الرسول الأعظم–صلّى الله عليه وآله_صفات العقل، وجنود الجهل، وعلامات العاقل وعلامات الجاهل، وقد شرحنا جانباً من الحديث في كتاب المنطق الإسلامي: أصوله ومناهجه.[٥].

خامساً: التذكَّر بخطورة إفرازات الهوى.. من شهوةٍ، أو صفة نفسية كالكبر، والحقد، والعصبية، والحسد، وما أشبه.

إنّ هذه الإفرازات هي–في الواقع– ظلال جنود الجهل، وهي أعداء العقل قال الله سبحانه: (فإنْ لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومَنْ أَضلُّ ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين)[٦].

وعن الإمام علّي–عليه السلام– : (ينبغي للعاقل أن يحترس من سُكرِ المال، وسكر القدرة، وسكر العلم، وسكر المدح، وسكر الشباب، فإنّ لكل ذلك رياحاً خبيثة تسلب العقل وتستخف الوقار)[٧].

جاء في حديثٍ عن الإمام علّي –عليه السلام– : (عدوّ العقل الهوى)[٨] وقال: (كم من عقل أسير عند هوى أمير) وقال: (الهوى شريك العمى).

روي عنه– عليه السلام– : (الجهل في ثلاث: الكبر، وشدة المراء، والجهل بالله، فأولئك هم الخاسرون)[٩].

وروي أن رسول الله مرّ بمجنونٍ فقال: ما له؟ فقيل له: إنه مجنون، فقال: بل هو مصاب، إنما المجنون من آثر الدنيا على الآخرة)[١٠].

وعن الإمام علّي–عليه السلام– (مَنْ إستغنى زلّ، ومَنْ تكّبر على الناس ذلّ) (٥).

وقال: (كفى بالمرء جهلاً أن يرضى عن نفسه)[١].

---

[١] – بحار الانوار/ ج١ ص ١٦٠.

[٢] – المصدر.

[٣] – المصدر.

[٤] – المصدر.

[٥] – المصدر/ ص ١٢٣.

[٦] – بحار الانوار ج ١ ص/ ١٦٦ وص/ ١٢٣– المصدر/ ص١٥٠– ١٦٠.

[٧] – القصص/٥٠.

[٨] – الحياة/ ج١ ص ٥٥.

[٩] – بحار الانوار/ ج ١ ص ١٣١.

[١٠] – المصدر.

سادساً: التذكرة بدور إبليس وسبله في تضليل البشر من وساوسه وهمزاته وغروره وفتنته وكيف يلبس الحق بالباطل ويزّين للإنسان أهواءه.. وواضح أن الإنسان حينما يتقن معرفة الثغرات لا يقع فيها، وكثير من آيات الذر تحذَّر من خطوات الشيطان ومكره وكيده وغروره ووساوسه و... كذلك حينما يقص علينا ربّنا كيف هلك السابقون بضلالهم وكيف سولّت لهم أنفسه خطاياهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون.. فإنه يعلمنا كيف نتجنب مزالق الهاوية، ومداخل الضلال والإنحراف..

قال الله سبحانه: (ينادونهم ألم نكن معكم قالوا: بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم، وغرَّتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور)[٢].

وقال سبحانه: (وإمّا ينزغنَّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم)[٣].

وعن النبي الأعظم- صلّى الله عليه وآله- أنه قال لرجلٍ يحذّره من أعدائه: (وأما أعداؤك من الجن، فإبليس وجنوده، فإذا أتاك فقال: مات ابنك فقل: انما خلق الأحياء ليموتوا، وتدخل بضعة مني الجنة إنه ليسرني، فإذا أتاك وقال: قد ذهب مالك، فقل: الحمد لله الذي أعطى وأخذ، وأذهب عنى الزكاة فلا زكاة علي. وإذا أتاك وقال لك: الناس وما على المحسنين من سبيل، واذا أتاك وقال لك: ما أكثر إحسانك يريد أن يدخلك العجب فقل: إساءتي أكثر من إحساني، وإذا أتاك فقال لك: ما أكثر صلاتك فقل: غفلتي أكثر مما أعطي، وإذا قال لك: ما أكثر من يظلمك، فقل: من ظلمته أكثر، وإذا أتاك فقال: لك: كم تعمل، فقل: طالما عصيت)[٤].

وكلمة أخيرة:

لو لم يخطئ الإنسان في منهج معرفة العقل، ولم يتبع سبل الضلال التي اتبعها الفلاسفة في تعريفه بالتصورات التي هي موهومات تحجبنا عنه، وإنما اتبع منهج الوحي في معرفته بآياته، بحثيث تجعل الحقائق التي تضاء بنور العقل والعلم دليله إليه ولا يجعلها هي العقل. وهكذا يجعل الصفات التي يتحلى بها العاقل دليلاً على العقل، نولا يزعم أنها بذاتها العقل.

أقول: لو لم يخطئ الإنسان في المنهج فإنه المنهج فإنه يكتشف عقله بعقله، ويزداد ثقةً به وبأحكامه، ويؤتى فرقاناً يميّز بين الوهم والوسوسة والظنّ والهوى والجهل و... وبين العلم والعقل والحكمة والرشد.[٥].

تزكية النفس

كما أن حبّ الدنيا رأس كل خطيئة، فإنّ اتباع الهوى رأس كل خطأ وجذر كلّ ضلالة، ولكي يتخلّص الإنسان من مختلف الضلالات التي يقع فيها، من حيث يشعر أو لا يشعر.. فلا بدّ من اجتناب الهوى.

---

[١] – الحياة/ ج ١– ص ١٦٣.

[٢] – الحديد/ ١٤.

[٣] – فصلت/ ٣٦.

[٤] – موسوعة بحار الانوار/ ج ١ ص ١٢٢–١٢٣.

[٥] – هذه هي البصيرة التي بسطناها في كتابنا (المنطق الإسلامي اصوله ومناهجه)

إنّ الإنسان قد يقع في الضلالة بسبب سبات عقه، وقد عالجنا أمره آنفاً، وقد يقع في الضلالة لاتباعه الهوى، وخورِ في عزمه وإرادته، وإذا كان في الحالة الأولى قاصراً في الأغلب فانّه في الحالة الثانية مقصّر ومحاسب ومسؤول.

والحالة الأولى تعتري الإنسان في الموضوعات الجانبية، بينما تعتريه الحالة الثانية في القضايا الحياتية أو الدينية الأساسية.

ونحن إذ نبحث هذه الحالة نفصّل القول أولاً في التذكرة بخطورة اتباع الهوى ودوره في غواية البشر، وثانياً في بيان علاجه المتمثّل في تنمية الإرادة.

بين العلم الهوى

وقد جاء في كتابنا (المنطق الإسلامي) بعض التفصيل في هذا الموضوع ننقله بتصرّف:

(أنّ الهوى) يمنع العلم، ومخالفة الهوى وسيلة لمعرفة الحق، وإنّ البشر لا يترك الحق عادة إلا لأتباع الهوى، ولكي تتوضحّ هذه الفكرة لا بد أن نتحدث عن معنى الهوى. والنصوص التي تحدثت عنه، وعن الحالات التي يتبع الهوى فيها.

الهوى يعني: الحبّ، وهوى النفس يعني: حب الذات، وأهواء النفس هي: شهواتها، وطبائعها، وغرائزها وميولها الفطرية أو التربوية.

والعلم هو معرفة الحقّ، والحقّ والشهوات قد يلتقيان كما إذا كانت المصلحة في اتباع الحق، ولكنهما يفترقان كثيراً.

فليس كلّ إنسان يهوى الحق، ويشتهي العمل به في كل وقت. إنّما كثيرٌ منا يهوى الباطل، فإننا نشتهي الخلود في الدنيا وليس حقّاً، إنّما الموت– الذي لا نحبّه ولا نشتهيه– هو الحق.

والإسلام اعتبر الحق منطلقاً والهوى منطلقاً، وأراد للإنسان أن يتبع الحق، وينبذ الهوى، إذا كان الهوى يخالف الحق. كما اعبر الإسلام الهوى سبباً لتكذيب الأنبياء (أفكلّما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم)[١].

واتباع الظن–الذي لا يعدوا أن يكون أهواء النفس– هو الذي أردى البشر فجعلهم كفاراً ومشركين.

(إنْ يتّبعون إلاّ الظنّ وما تهوى الأنفس)[٢].

والعدل مثل الحق لا يمكن تطبيقه إلا بمخالفه الهوى (ولا تتبعوا الهوى ان تعدلوا). وحين بعث الله نبيّه داود وجعله خليفةً على الناس، أمره بمخالفة الهوى، لأنّها طريق العمل بالحق (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)[٣].

ورسالة الرسول–صلى الله عليه وآله –بُنيت على الوحي لا الهوى (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)[٤].

وهى الله عن الطاعة لمن يتبع هواه، ولأنه يتبع الباطل، ولأنّه قد غفل وابتعد عن عقله (ولا تطع مَنْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فُرُطاً)[٥].

---

[١] – البقرة/ ٨٧.

[٢] – النجم/٣٢.

[٣] – النساء/ ١٣٥.

[٤] – ص/ ٢٦.

[٥] – النجم/ ٣–٤.

والذي يتبع هوه فإنما هو مشرك، إذ أنّه يعبد هواه.

(أرأيتَ مَنِ اتّخذ إلهه هواه أفانت تكون عليه وكيلاً)[١].

وأهواء الناس ضلالات يجب مجانبتها.

(قل لا أتَّبع أهواءكم قد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدمين)[٢].

والهوى يخالف العلم، ولا يمكن أنْ يجمع الإنسان بين أتّباع الهوى واتّباع العلم (وَلئِنْ اتَّبعتَ أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من وليٍّ ولا نصير)[٣].

(ولا تتَّ أهواءهم عمَّا جاءك من الحق)[٤].

واتباع الحقّ يُصلح الأرض، أمّا اتّباع الهوى فإنه يفسد الأرض والسماء (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السمواتُ والأرض ومن فيهن)[٥].

والذين لم يستجيبوا للرسول، فإنمّا كان السبب اتّباع أهوائهم.

(فأن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتَّبعون أهواءهم)[٦].

أما ضلالة أكثر الناس، فإنّما هي بسبب اتّباع الهوى، وعدم العلم (وإنّ كثيراً ليضلّون بأهوائهم بغير علمٍ)[٧].وجاء في الحديث: أوحى الله لداود: (احذر وأنذر أصحابك من كل الشهوات، فإنّ القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عنها)[٨].

وجاء في رواية مأثورة: (إذا حيرّك أمَرانِ أن لا تدري أيهما خير وأصوب، فانظر أنّهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإنّ كثير الصواب في مخالفة هواك)[٩].

وجاء في حديث آخر: (أكثر الصواب في خلاف الهوى.. وإنّ الطمع مفتاح الذل واختلاف العقل، والذهاب بالعلم)[١٠].

شهوات الهوى

اتّباع الهوى إذاً يعني: اتّباع ما يحبّه الإنسان ويشتهيه. وحيث تختلف شهوات الإنسان، فإنّ موارد اتّباع الهوى تختلف هي الأخرى. والسؤال: ما هي شهوات الإنسان: وبالتالي ما هو أهواؤه؟[١١] شهوة الخلود، شهوة الراحة، شهوة الأمن والسلامة، وأخيراً

---

[١] – الفرقان/ ٤٣.

[٢] – الأنعام/ ٥٦.

[٣] – البقرة/ ١٢٠.

[٤] – المائدة/ ٤٨.

[٥] – المؤمنون/ ٧١.

[٦] – القصص/ ٥٠.

[٧] – الانعام/ ١١٩.

[٨] – كلمة الله ص ١١٩.

[٩] – بحار/ ج ٧٨ ص ٣١٤.

[١٠] – المصدر/ ص ٣١٥.

[١١] – هنا يجب أن نضع ملحوظة ضرورية، هي أن الهوى والحب هما حالتان للنفس البشرية تختلفان كثيراً. فالهوى هو حب الذات وحب أي شيء يخدم الذات مباشرة أو غير مباشرة فمثلاً حب الحياة وحب الراحة وحب الأكلات الشهية وحب النساء وحب المال والسلطات إنما هي مرجعها جميعاً حب الذات، إذ كلها تخدم الذات مباشرة أو غير مباشرة.

شهوة الملك والسيطرة.. هي جميعاً شهوة واحدة هي (شهوة الحياة) وهي أعمق شهوة في النفس البشرية، لأنّها صورة لهوى النفس في أوضح وأصدق حالاتها. وشهوة الطعام والمسكن وللباس، شهوة الأولاد، حسّ التكيف مع البيئة، حسّ التكّيف مع المجتمع، والاستسلام لضغوط السلطة، كلُّ اولئك صور أخرى وإنْ كانت باهتة–أحياناً– عن شهوة الحياة، إذ لا يخضع الفرد لتوجيه المجتمع، إلاّ لأنه يخشى من عقوبته المتمثلة في منعه عن ضرورات حياته، ولأنّه يحبُّ حياته، فهو أيضاً يحبّ ما يحافظ عليها من ضرورات، وما ترتبط به هذه الضرورات من التكيّف مع البيئة أو مع المجتمع.

وحين يخضع الإنسان للمجتمع، أو للبيئة، أو للسلطة، تخضع كل مناحي حياته معه وفي طليعتها فكرة، ولذلك فإنّه يدفع بفكره باتّجاه التوافق مع المجتمع والاستسلام لتوجيهاته، وكذلك باتّجاه الخضوع للسلطة.

إذاً: حبُّ الذات أو بتعبير أفضل: (هوى النفس) هو وراء أكثر أسباب الخطأ في الإنسان، ابتداءً من الأسباب النفسية، والتقاليد، وانتهاءً بالأسباب الطبيعية ومروراً بالأسباب الاجتماعية، والاقتصادية.

تنمية الارادة

لأنّ الإنسان يتعرض لأمواج الضغوط، وتعتصره شهواته وعصبياته من داخل نفسه، وقوة الشر من الخارج، فهو بحاجة إلى أرادة قوّية ومشيئة مقتدرة حتى يستقيم على هدى عقله، ولا يضيع في تيّار الأهواء.

وهذه الإرادة تنمو بالرسالات، التي تضع لصاحبها عشرات البرامج التي تساعده على الاستقامة. وفيما يلي نستعرض بعضها:

الف:_ فالرسول بذاته أسوة حسنة، تُفيض سيرته قوة إرادة فيمن حوله، يتبعونه في منهاج حياته بعد علمهم بأنه، كان بشراً مثلهم.

باء:_ والرسالة تعرف الإنسان بنفسه ومبدى كرامته على ربّه، وأنه الذي سخّر له الله ما في الأرض جميعاً. نوّه باسمه، واستضافه لجنته، ورفعه لمقام مخاطبته وبهذه الوسيلة تجعله يثق بنفسه أكثر فأكثر، وتزداد قوة ارادته.

جيم:_ وذكر اله الذي فرضته الرسالة على الإنسان، عبر الصلاة والصيام والحج وتلاوة القرآن والدعاء، وكذلك عبر عشرات المناهج الأخرى، إنّ هذا الذكر يصل قلب العبد بنور الرب، فيجعله فوق تحدّيات الظروف، وقد قال ربّنا سبحانه: (اذكروا الله ذكراً كثيراً)[١]، (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليُخرجكُّم من الظلمات إلى النور)[٢].

دال:_ وسلسلة المحّرمات التي يتّقيها المؤمن تصونه من الانصياع مع الشهوات التي تحجب عقله، وتهدم ثقته بنفسه كالخمرة والمسير، واللهو والفواحش ما ظهر منها ومنا بطن.

وقد قال ربنا سبحانه: (إنما يريد الشيطان أن يرقع بينكُمُ العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذِكر الله)[٣].

بينما الحب هو: الرغبة في الغير دون أن يرتبط بالذات، فحب الخير وأهله وحب المبدأ وحب الوطن و. و. إنما هو الرغبة في كل أولئك دون أن يعتبر فيها حب الذات، وهكذا يكون الحب عطاء والهوى أخذاً.

[١] – الأحزاب/ ٤١.

[٢] – الأحزاب/ ٤٣.

[٣] – المائدة/ ٩١.

هاء:_ وكذلك ما نجده في الرسالات الإلهية من برامج لتزكية النفس وتطهيرها من الرذائل كالأنانية والعنصرية والإستئثار، والغرور والحسد والحقد وسوء الظن، إنّها جميعاً تزيد الإنسان عزماً وتصلباً.

وقد قال ربّنا سبحانه (ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها)[١].(ومَنْ يوقِ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون)[٢].

(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)[٣].(هو الذي بعث في الأُميين وسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين[٤].

إنَّ العقل والجهل قوَّتان تتجاذبان الإنسان الذي يختار أحدهما بمشيئته الحرة، فإذا تحدَّى رياح الهوى وإختار السير صعداً إلى قمة العقل.. فإنَّه يبصر الحقائق بوضوح، وإذا استسلم لجهله، وإنهار في وديان الشهوات، فإنّه ليس يجهل الحقائق آنئذٍ فقط، بل وينسى نفسه أيضاً (نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هُمُ الفاسقون)[٥].

وهكذا تقف الشهوة في الطرف النقيض من العقل.. ولا يكتمل عقل الإنسان إلا بكبح جماحها ولجم زمامها.

يأتي عبد الله بن سنان إلى الإمام الصادق–عليه السلام–ويسأله: الملائكة أفضل أم بنو أدم؟ فقال: قال أمير المؤمنين–صلوات الله عليه_: إنّ الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة وفي البهائم شهوةً بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما فمَن غلب عقله شهوته، فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته على عقله فهو شرّ من البهائم). يقول الحديث الشريف المأثور عن أمير المؤمنين–عليه السلام–: (من لم يملك شهوته لم يملك عقله)[٦].

(ذهاب العقل بين الهوى والشهوة)[٧].

العاقل من هجر شهوته)[٨].

وقال الإمام الصادق–عليه السلام _ :

(أفضل طبائع العقل العبادة، وأوثق الحديث له العلم، وأجزل حظوظه الحكمة، وأفل ذخائره الحسنات)[٩].

معارف القرآن تزيد العقل

لكلِّ شيء وزير، العقل العلم.. إنه يزيده انبساطاً وجلاءً. أرأيت الذي ينُمي عضلاته بالتدريب ومهاراته بالتمرين فلماذا لا ينُمي عقله بالمعارف التي تفتح آفاق العقل، وتفضُّ مكنوناته وسرائره.

---

[١] – الشمس/ ٧.

[٢] – التغابن/ ١٦.

[٣] – النازعات/ ١٤–٤١.

[٤] – الجمعة/ ٢.

[٥] – الحشر/ ١٩.

[٦] – غرر الحكم ودرر الكلم.

[٧] – غرر الحكم ودرر الكلم.

[٨] – المصدر.

[٩] – بحار الأنوار/ ج ١ ص ١٣١.

والقرآن الكريم: جمل المعارف، وجوامع العلم، وضياء الهدى، فحينما يتّصل عقل الإنسان بنور الوحي يزداد انشراحاً وبهاءً، لأنه يجلوه ويسهّل عليه السير في آفاق المعرفة. قال ربّنا سبحانه: (وسخرَّ لكُمُ الليل والنهارَ والشمس والقمر والنجومُ مسخَّراتٌ بأمره إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون)[١]. (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)[٢]. (هذا بصائرُ للناس)[٣].

(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)[٤].

وجاء في الحديث الشريف المروي عن الإمام الصادق–عليه السلام_: كثرة النظر في العلم تفتح العقل)[٥].

قال الإمام أمير المؤمنين–عليه السلام_:

العقل حفظ التجارب، وخير ما جربت ما وعظك)[٦].

(فساد الأخلاق معاشرة السفهاء، وصلاح الأخلاق معاشرة العقلاء)[٧].

(العاقل من وعظته التجارب)[٨].

(من ترك الاستماع عن ذوي العقول مات عقله)[٩].

وهكذا يتنامى عقل الإنسان بالوحي حينما يوقظه الوحي من سباته. وينمّي فيه إرادة الانتفاع به، ويزيده ضياءً بالمعارف التي تفتح آفاقه.

يقول العلامة الاصفهاني وهو يشرح العلاقة بين العقل والوحي، في سياق حديث مفصل:

(فتكون الشريعة مؤسسةً على الاحكام العقلية التي تكون العقول حيث ذاتها الكشف عن وجوبها ورمتها الذاتية أو المعللة بالحسن والقبح اللذين حيث ذاتها الكشف نهما في بعض الافعال، فيكون القرآن المجيد والرسول الأكرم والأئمة المعصومون – عليهم السلام– مذكرّين بهذه الأحكام العقلية.

فكل فعلٍ كان العقل بذاته كاشفاً عن وجوبه أو حرمته، ذاتاً أو معللاً بحسنه وقبحه عن العاقل القادر المالك للرأي بفعله وتركه، يكون هذا العقل حجةً إلهية على هذه الأحكام، لحجيته وحاكميته بذاته على عصمته. وإن المكشوف به عين الواقع. فهو الحجة على ان الفعل الواجب، والحرام بالذات أو للحسن والقبح، واجب وحرام عند الله وعند أنبيائه ورسله. كيف والحق (جلت عظمته) أرشده إلى هذه العقول، واحتجّ بها عل البشر وهو عين إمضاء تلك الأحكام، وعين كون أحكامها أحكامه لأنّه كاشفٌ عن رسوله الذي هو لسانه ونفسه تعالى شأنه.

---

[١] – النحل/ ١٢.

[٢] – العنكبوت/ ٣٤.

[٣] – الجاثية/ ٢٠.

[٤] –الحشر/ ٢١.

[٥] – المصدر/ ص ١٥٩.

[٦] – المصدر/ ص ١٦٠.

[٧] – المصدر.

[٨] – المصدر.

[٩] – المصدر.

وعلى هذا الأساس (قامت) علوم الدين، والشرائع على أحكام تلك العقول، التي هي حجج إلهية لكلّ عاقل. فهي الحجة بذاتها على كل ما تكشفه، كما أن العلم الإلهي حجة إلهية على كل ما يكشفه).

الفصل الرابع:

الاحكام العقلية

تمهيد:

يستخدم علماء الأصول كلمة (القطع) في موضع الحديث عن العلم والمعرفة واليقين، وهذه الكلمة ذات إيحاء فلسفيّ باعتبار تواصل علم الاصول والحكمة في العصور المتأخرة.

وهذه الكلمة غريبة عن الأدب القرآني، ولكنها مناسبة للمنهج الفلسفي القائم على أساس الجدال وإسكات الخصم وقطع الحديث وحسمه معه.

وفي موضعٍ آخر من هذا البحث نتحدث بإذن الله عن بعض الملاحظات على المنهج الفلسفي ولكنّا هنا نجري على المصطلح الاصولي ونقول: يرى الفقهاء–قدّس الله أرواحهم– أن حجية القطع ذاتية، ولا مجال للمنافسة فيها. وهي أصل كل حجةٍ أخُرى. يقول في ذلك العلامة الأنصاري– قدّس الله سره_:

(وبالجملة فالقطع قد يكون طريقاً لا يفرق فيه بين خصوصياته من حيث القاطع والمقطوع به وأسباب القطع وأزمانه. إذ المفروض كونه طريقاً إلى متعلقه فيترتب عليه احكام متعلقه ولا يجوز للشارع ان ينهى عن العمل به لأنّه مستلزمٌ للتناقض فإذا قطع كون مائعٍ بولاً من أي سببٍ كان فلا يجوز للشارع أن يحكم بعدم نجاسته أو عدم وجوب الاجتناب عنه. لأن المفروض أنه بمجرد القطع يحصل له صغرى وكبرى. أعني قوله هذا بول. وكل بول يجب الاجتناب عنه فهذا يجب الاجتناب عنه.

فحكم الشارع (لو حكم جدلاً) بأنّه لا يجب الاجتناب عنه، مناقضٌ له [١] أي للحكم الأول الذي ثبت به وجوب الاجتناب عنه قطعاً.

وبالرغم من قوة البيان وبلاغة النافذة إلا أنّنا نجد في تضاعيف كلمات الشيخ ما يوحي بوجود طريقة لنهي الشارع عن العمل بالقطع حيث يقول في معرض ردّه على بعض المحدثين:

(وإنْ أرادوا عدم جواز الخوض في المطالب العقلية لتحصيل المطالب الشرعية لكثرة وقوع الغلط والاشتباه فيها– فلو سلم ذلك وأغمض عن المعارضة بكثرة ما يحصل من الخطأ في فهم المطالب بالأدلّة الشرعية–فله (أي لهذا القول) وجه. فلو خاض فيها (أي في المطالب العقلية الفقهية، وحصل القطع بما لا يوافق الحكم الواقعي لم يعذر في ذلك لتقصيره في مقدمات التحصيل. إلاَّ أنّ الشأن في ثبوت كثرة الخطأ أَزيَدُ مما يقع في فهم المطالب من الأدلة الشرعية)[٢]

---

[١] – فرائد الأصول/ ص ٣.

[٢] – الفرائد/ ص ٨.

ومجرّد إمكانية رَدْع الشارع عن العمل بالقطع تجعل الاطمئنان به مخدوشاً، ويُثبت بطريقة، أو بأخرى، آراء المحدثين.

وسوف نذكر إن شاء الله أن الميرزا النائيني–قدّس الله سرّه– وحسب تقريرات السيد الخوئي ينتهي إلى مثل هذا الرأي أيضاً.

أما العلاّمة الأخوند –قدّس الله سرّه– فيقول:

لا شبهة في وجوب العمل على وفق القطع عقلاً ولزوم الحركة على طبقه جزماً، وكونه موجباً لتنجز التكليف الفعلي فيما أصاب بإستحقاق الذمّ والعقاب على مخالفته، وعذراً فيما أخطأ قصوراً) وأضاف مبيِّناً الحجة على ذلك وقال:

(وتأثيره في ذلك لأن، وصريح الوجدان به شاهد وحاكم فلا حاجة إلى مزيدِ بيان وإقامة برهانٍ)[١].

ويبدو أن هذه الكلمات تشير إلى المباحث الفلسفية في المعرفة، حيث أن التشكيك في العقل وقيمته يجعلنا نشك في قيمة كل شيء حتى في قيمة التشكيك ذاته. إذ أنّ أصحاب النظرية الحسية أو اتباع نظريات التشكيك تراهم يستندون في كلماتهم إلى مجموعة حججٍ وبراهين وهي بذاتها قائمةٌ على أسس عقلية وعلمية.

ويعلّق على هذا النص المرجع الحكيم –قدّس الله سرّه_: (لا إشكال في كون القطع طريقاً إلى الواقع الذي تعلّق به وكاشفاً عنه في نظر القاطع بحيث يرى الواقع كما لا ينبغي الريب في أنَّ عقله حينئذ يحكم بقبح عقابه، على تقدير موافقته لو كان القطع بحرمه شيء فتركه، أو بوجوب شيء ففعله، وهذا الأثر منتزعٌ من الأمر السابق، أعني طريقته ومنه ينتزع عنوان التنجز والعذر)[٢].

أما الأستاذ الكبير الميرزا النائيني– قدس الله سرّه– فإنّه حسب كلمات مقرّره الكبير السيد المرجع الخوئي– قدس الله سره– فإنّه يقول:

(لا إشكال في أن القطع إذا تعلق بكل شيء يكون طريقاً إليه لا محالة كما انه لا إشكال في وجوب متابعته فيما إذا تعلق بتكليفٍ أو موضوع تعلّق به التكليف)[٣].

وبعد أنْ القطع حيث ذاته الطريقة والكاشفية لا أمراً زائداً عليها قال: (إلاّ أنَّها (حجية القطع) غير قابلة للجعل التشريعي، بداهة إنَّ العل التشريعي إنَّما يتعلّق بشيء يكون تكوينه بعين تشريعه بعد قابلة المحل له)[٤].

وبالرغم من هذا الكلام نجد الأستاذ النائيني يعود ويشكّ في القطع الذي يحصل من بعض المقدمات فيقول بعد حديث طويل حول القطع الذي يتّخذ موضوعاً وأنَّ للشارع التصرف فيه يقول:

(وإذا أمكن أخذ القطع بالحكم في موضوعه بدليلٍ آخر فيمكن أخذ القطع بالحكم من سبب خاصّ مانعاً عنه أيضاً، وهذا كما في القطع القياسي فإنَّ المستفاد من رواية أبان عدم اعتبار القطع الحاصل من القياس، وهذا إنّما يكون باعتبار تقيّد الأحكام

---

[١] –كفاية الأصول/ ج ٢ –مباحث القطع.

[٢] – حقائق الاصول/ ج ٢– ص٦.

[٣] – اجود التقريرات/ ج ٢– ص٤.

[٤] – المصدر.

الواقعية بأن لا تكون معلومة عن طريق القيام من باب نتيجة التقييد ففي الحقيقة موضوع تلك الأحكام من لا يكون عالماً بها من طريق القياس[١].

وأنت ترى أنّ نتيجة هذا الكلام تحديد القطع بما لم يردع عنه الشارع ويجوز أن نشكّ –حينئذ– في كل قطع، هل أمضاه الشارع أم ردع عنه؟ فيكون الأمر –بالتالي–كما ذكره المحدثون..

وقد تنّبه الشيخ الأستاذ إلى ذلك فأراد التخلص منه فقال:

(وهذا ليس تصرّفاً في ناحية القطع حتى يقال بأن طريقته ذاتية غير قابلة لان تنالها يد الجعل نفياً وإثباتاً، بل تصرف في ناحية المقطوع، وتخصيصه بموضوع خاص دون آخر).

وأضاف: (بل لا يبعد أن يكون القطع الحاصل من الجفر والرمل، ونحوهما أيضاً كذلك، بأنْ تكون الأحكام الواقعية مختصّه من باب نتيجة التقييد بغير العالمين بها من تلك الطرق الغير المتعارفة فإن دعوى الإجماع على ذلك ليست بكل البعيد) [٢]

وسوف نعود قريباً إن شاء الله إلى ناقشة هذا الاستثناء الذي وجدنا مثله ولو بتعبير آخر في كلمات شيخنا الأعظم (الانصاري) والذي يؤدي نهايةً إلى حذف القطع من استقلاله في بلوغ الحكم الشرعي.

أسئلة حائرة:

لكي نثير ركام الأفكار التي تجمعت في هذا الحقل الشائك، لنبلغ الحقائق الدفينة، لا بدّ أن نطرح التساؤلات المتدرجة التي تشابكت مع بعضها، وربما طرحت بصورة غير مرتبة.

والتساؤلات هي:

أولاً: هل العقل يجب اتّباعه بعيداً عن حكم الشريعة حتى إذا حكم بشيء وجب الانصياع له دون أنْ نسأل عن حكم الشرع فيه؟

ثانياً: وإذا حكم العقل بشيء فهل الشريعة تحكم حتى تصدق المقولة المعروفة ما حكم به العقل حكم به الشرع؟

ثالثاً: والمناهج العقلية المتبعة في القضايا الفلسفية مثل أقيسة المنطق الأرسطي هل هي مناهج مناسبة ومأمونة للتعرّف على الأحكام الالهية؟

رابعاً: وإذا توصلّنا إلى حكمٍ شرعي عبر هذه الأقيسة أو عبر الجفر والرمل والسبل غير المتعارفة فهل يجب شرعاً التعبّد به فيما إذا وصلت قناعتنا به إلى درجة القطع واليقين؟

يبدو لي أن خلط هذه الأسئلة ببعضها جعل الحديث مشوشاً حتى وكأن البحث في مواضيع مختلفة. مثلاً يقول المحدث [٣]: لا يمكن حصول القطع عبر المناهج العقلية المعروفة، فيجيبه الأصولي: فإذا افترضنا وحصل القطع ماذا نفعل؟ انك ترى ان

---

[١] – المصدر/ ص ٨.

[٢] – المصدر.

[٣] – نقصد به المتبع للطريقة الاخبارية.

الحديث لا يجري في موضوع واحد بل في موضوعين مختلفين وقد أشار إلى إلى ذلك الشيخ الأخوند في الكفاية حيث قال: (وأما في مقام عدم جواز الاعتماد على المقدمات العقلية لأنها لا تفيد إلاّ الظن كما هو صريح الشيخ المحدث الأمني الاستر آبادي–رحمة رحمه الله–)[١].

وأنّى كان فإنّ علاقة العقل بالشرع قضية في غاية الخطورة، وقد تشعَّبت الأحاديث حولها إلى علوم كثيرة ابتداءً من الفلسفة وانتهاءً بعلم الأخلاق ومروراً بالكلام والأصول والفقه.

وكانت هذه العلاقة محور الخلاف الرئيسي بين مختلف المذاهب الإسلامية. فبين من يلغي أساساً دور العقل كالظاهرية والصوفية، وبين من يعطيه دوراً محدوداً مثل الأشاعرة، وبين من يفسح المجال له كاملاً كما فعل المعتزلة.

بينما نعتقد أن أئمة أهل البيت–عليهم السلام–عرَّفوا العقل بأنه النور الإلهي الذي أودعه الله القلب، وميّزوه تماماً عن الأهواء والوساوس والظنون، ثم أعطوه دوراً كبيراً في معرفة الحقائق الشرعية وغيرها.

فعن الظاهرية يقول ماجد فخري: وهو يؤرخ ابن حزم ويعتبره أهم شخصية ابتعث الرؤية الظاهرية يوقول عنه: (يرفض جميع ضروب القياس أو الاسدلال ويشبث بالدلالة الحرفية الضيّقة للنصّ معتبراً المذاهب الكلامية على اختلافها السمحة منها أو المحافظة المعتزلية أو الأشعرية سواء في الضلال)[٢].

أما عن نظرية المعتزلة والأشاعرة في قضية العقل فيقول المؤلفان حنا الفاخوري وخليل الجر: (وأننا لا نستطيع أن نسمِّي المعتزلة متكلمين لأننا نخصّ بهذا الاسم الذين اعتبروا الكلام وسيلةً للدفاع عن الحديث والفّوا كتبهم وفقاً لهذه الطريقة ونحن نعلم أنّ المعتزلة كانوا أخصاماً لأهل الحديث.

ولئن اتّفق المعتزلة والمتكلمون على أن اللجوء إلى العقل والنظر لمعرفة الله والبرهان على وجوده فرضٌ على كل مؤمن ومؤمنة، فقد اختلفوا حول مصدر هذا الفرض وقال المعتزلة: إنه عقلي محض ناجم على طبيعة العقل.

أما المتكلمون (ويرى المؤلفان أن الأشاعرة في طليعتهم) فقد أثبتوا تقدم الشريعة على العقل وقالوا: إن اللجوء إلى العقل والنظر في الامور العقائدية فرضٌ شرعيّ، وإنه لولا الشريعة لما تمكن العقل من معرفة الله وإثبات وجوده.

فالعقل في نظر المعتزلة دليلٌ داخلي يمكِّن الإنسان من معرفة الخير والشر، ولا قيمة للشريعة المنزلة إلا إذا اتّفقت مع أحكامه.

أما المتكلمون، ولا سيما في أول عهدهم، فإنهم يضعون النص في الدرجة الأولى والعقل في الدرجة الثانية.

وهناك نوعان من البراهين: البرهان العقلي الذي لا يستند الا إلى العقل ومبادئه، والبرهان السمعي الذي يستند إلى القرآن والحديث والإجماع. وفيما نرى المعتزلة لا يعترفون الا بقيمة الأول ويعتبرون أن كلّ برهان سمعي لا يدعمه العقل مردود، يظل المتكلمون، وعلى رأسهم الأشاعرة، يؤكدون أن البراهين العقلية لا قيمة لها إلاّ لأنّ الشرع يأمر بها. وإنّ العقل لا قيمة له

---

[١] – راجع كفاية الاصول/ مباحث حجية مطلق القطع.

[٢] – ماجد فخري: تاريخ الفلسفة الإسلامية/ ص ٤٣١.

في ذاته، بل فيما يستمده من الشرع. وفي حال تعذّر الوصول إلى الرهان العقلي يمكن اللجوء إلى البرهان السمعي أو النقلي، كما يسمونه، فيما بعد)[١].وأما فيما يتصل ببصائر الوحي في العقل، وكيف أنه النور المؤيِّد بالله، وأنه يختلف عن التعقّلات والأقيسة الأرسطية وما اشبه، فيقول العلامة الميرزا الأصفهاني في ذلك: (أما أساس علومهم (أي علوم البشر) فهو (قائم) على تعريف العلم وتنوصيفه وتقسيمه بالحضوري والحصولي، والحصولي إلى التّصور والتصديق، وأما أحكام العقول فعند الفحول من البشر عبارة عن الأمور الثابتة بالبرهان، فأنّ الأساس عندهم على تعريف العقل وتوصيفه لتقسيمهم إيّاه بالعقل النظري والعملي، والنظري عندهم، عبارة عن فعلية النفس باستخراج النظريات عن الضروريات فما كان نتيجة البرهان فهو من أحكام العقل يجب الجري على طبقه)[٢].

(وأما أساس معارف القرآن–كما عليه أساس معارف الرسول والأئمة–يناقض ذلك كله، فإنّ أساس معارفهم على العقول التي هي حجج إلهية مبعوث على جميع العقلاء وإنّ العقل لا يوصف ولا يعرف الا بنفسه يعرفه كلّ عاقل يجده وهو النور الذي يجده الإنسان حال كبره بعد عدم وجدانه حال صغره مما يعرف به قبح أفعاله وحسنها. فبعد صدور الأفعال عنه في حال فقدان العقل يدرك بنور العقل –بعد وجدانه– أنها كانت حسنة أو قبيحة. ومع أنّه كان فاعلاً لها في حال فقدان العقل ولم يكن أفعاله خفياً (خفية) عنده لم يكن يدرك حسنها وقبحها فما يظهر له حسنها وقبحها حتى يتحسّر ويغتّم بفعلها. وهذا هو العقل).

(وظاهر أن هذا النور لا يعرف إلا بنفسه، وأن توصيفه وتعريفه للعاقل الواجد لهن إلحادٌ وإضلال، لأن ه يتصوّر حينئذ ويتوهّم، ومتصوّره وموهومه خلاف ما يجده وما به إدراكه الحسن والقبح بالضرورة.

بل لا يحتاج إلاّ إلى التذكر بأنّ النور الذي يده وبه يعرف حسن أفعاله السابقة وقبحها أجلُّ من أن يُفهم ويُعلم وُيعقل.

فوجدانه وعرفانه به لعلوّه عن المفهومية والمعلومية والمعقولة، يوجب الحيرة، وهذا كماله فيتذكر العاقل بأنه أقرب كل شيء له، كيف وبه يدرك ويعرف حسن الأفعال وقبحها، ويؤاخذ غيره عليها، وهذا العقل الذي لا يوصف إلا بنفسه، ويعرفه الإنسان ويجده ويربه به غير العقل الذي عقل وله أحكام في العلوم المعارف البشرية كما هو ظاهر. وهذا العقل الذي هو حجة لك عاقل واجد له، إنما هو من حجج الله على خلقه في المعارف الإلهية كما ستعرف[٣].

---

[١] – تاريخ الفلسفة العربية/ ج ١ ص ١٧٩.

[٢] – يوجد فراغ في المتن المخطوط الموجود عندي عند بيان العقل العملي وهو كما يقول ابن سينا: القوة التي تدبر بها النفس البدن على ضوء الاراء الجزئية التي يتوصل اليها الإنسان اما عن مقدمات اولية أو عن تجربة واختيار (راجع تاريخ الفلسفة العربية/ ج٢– ص١٩١.

[٣] – ابواب الهدى– للعلامة الحجة الميرزا مهدي الاصفهاني (مخطوط) ٦.

ولقد نقلت هذا نص من كلام العلامة الاصفهاني لأنّه يشكل خلاصة مفيدة لما اعتقد أنه بصيرة الوحي في العقل، ودوره الأساسي في المعارف والعلوم الإلهية. وهكذا اختلفت الآراء في دور العقل في الشرع، ولا يسعنا التفصيل في تاريخ هذا الجدل الذي أكثر المؤرخون من الحديث حوله[١].

والآن تعالوا نَعُدْ إلى المسائل الاربعة التي طرحناها آنفا، وأولها:

١- هل يجب اتباع الاحكام العقلية؟.

بعيداً ع العلاقة بين العقل والشرع، هل العقل يحكم بأمر فيوجبه أو يحرّمه، وإذا فعل يجب إتباعه أم لا؟

يرى البعض بما أن الحاكم هو الله وحده سبحانه وتعالى فليس للعقل سوى دور الإدراك لحكم الله. يقول السيد محمدم تقي الحكيم في ذلك:

(والتعبير بالحكم العقلي–في المجالات التشريعية– وإنْ أوْهم ذلك إلا أنّنا لا نعرف، مَنْ يذهب إلى القول به من المسلمين على الإطلاق. وقد نسب ذلك على ألسنة بعض المشايخ إلى المعتزلة ففي مسلم الثبوت:

(لا حكم إلاّ من الله تعالى بإجماع الأمة، لا كما في كتب بعض المشايخ أنّ المعتزلة يرون أنّ الحاكم هو العقل فإنّ هذا مما لا يجترئ عليه أحد مِمَّنْ يدّعي الإسلام)[٢].

ولكنْ يبدو من منهجيّة المعتزلة في مختلف المعارف الإلهية أنّهم يبالغون في دور العقل ويجعلون مقامه فوق الشرع. بالرغم من عدم تصريحهم ذلك إذ أنهم يوجبون به أحكاماً على خالقهم سبحانه.

وقد سبق قولهم–حسب حكاية بعضهم–أن العقل دليل داخلي يمكّن الإنسان من معرفة الخير والشر، ولا قيمة للشريعة المنزلة إلاّ إذا اتّفقت مع أحكامه[٣].

وأنّى كان فأنّ للعقل أوامره وزواجره التي لا شكّ فيها، فإنّه يأمرنا بالدفاع عن النفس أمام غائلة الجوع والمرض، ويزجرنا عن إلقائها في التهلكة. وانبعاث الإنسان بعقله وتسليمه لأحكامه أشدُّ من انبعاثه بالشرع وتسليمه لأحكامه، بل أنّ أحكام العقل الأوليّة هي التي توجب على الإنسان قبول الشرع والعمل وفق أحكامه. وتريد العقل عن هذا الدور يهدم بناء الشرع، ولا يدع لنا أساساً نعتمد عليه في الإحتجاج على أحدٍ بشيء. إنّك تجد كل التعاليم القرآنية ترتكز على أحكامٍ عقلية، مثل دفع الضرر، وجلب المنفعة، وشكر المنعم، وردّ إحسانه بإحسانٍ مثله، فكيف يجوز نفيُ استقلاله بحكمهُ؟.

---

[١] – يمكن الرجوع إلى الكتب المفصلة مثل الملل والنحل والفرق بين الفرق والكامل في التاريخ ومرج الذهب في اخبار من ذهب والفهرست لابن النديم وحلية الاولياء وطبقات الاصفياء ومن الكتب الحديثة: تاريخ الفلسفة العربية. وتاريخ الفلسفة الإسلامية، وتحقيق در مسائل كلامي از متكلمان اشعري ومعتزلي (بالفارسية). وقد بحث المؤلف جوانب من هذا الموضوع في كتبه التالية: (العرفان الاسلامي، والفكر الإسلامي، والمنطق الإسلامي).

[٢] – الاصول العامة/ ص ٢٨١.

[٣] – تاريخ الفلسفة العربية/ ص ١٧٤.

وما الشرع إلاّ عقل ظاهر، وما العقل إلاّ شرع باطن. بلى، العقل والشرع رسولان من عند الله، وتأييد العقل إنّما هو بنور الله، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وبكلمة: العقل قد يحكم بشيء، وحينما يحكم به يحكم بضرورة تنفيذه، حكماً جازماً. بلى، هذا يختلف عن الوجوب الشرعي الذي يعني استحقاق الثواب على فعله والعقاب على تركه..

٢-التطابق بين العقل واحكام الشرع:

تعالوا قبل أن نخوض في الأدلة القياسية التي ساقها البعض على مدى التطابق بين العقل والشرع، وأنّه ما حكم العقل بشيء كشف عن حكم الشرع أيضاً، تعالوا قبل ذلك نبحث في أحكام العقل والشرع ما هي؟ أليس العقل يهدينا إلى أنّ في خلق السموات والأرض آياتٍ تدلنا على خالقٍ عزيز حكيم، وأنّ من حكمته البالغة هدايته للإنسان عبر الرسل، وأنّ الإنسان رهين ما اكتسب، إنْ خيراً فخير وغن شرّاً فشرّ، وأنّ الصدق والوفاء والإحسان والعدل والنشاط والتعاون، والإيثار هي الخصال الحميدة، وأنّ أضدادها هي الصفات السيئة، وأنّ الكبر والحسد والحقد والنفاق وسوء الأخلاق هي الرذائل الذميم وأضدادها المثل العليا؟.

وإذا كانت هذه هي أحكام العقول، ووصية الحكماء من الناس، فما هي أحكام الشريعة! أَوَلَيست مثل ذلك، أيُّ حكمٍ في كتاب الله لا يصدقه العقل، ولا يتواصى به العرف؟ بلى، قد يكون الإنسان غافلاً أو ناسياً فإذا ذكّره الوحي تذكّر واستبصر ،ووجد أنّ النور الذي يشعّ من مشكاة الوحي هو ذاته النور الذي يضيء في فؤاده.

وإنّ هذا التطابق هو أكبر شهادةٍ على صمدنق الرسول، وأعظم حجة لله على الناس، والى هذه الحجة تعود سائر الأدلة التي اعتمدها الحكماء والمتكلمون في صدق الرسالات. وهذا التطابق هو الذي جعل الرسول والعقل حجةً واحدة، فذاك عقل ظاهر، وهذا رسول باطن.. وهذه الأحكام العامة التي يتطابق الوحي والعقل فيها هي مصدر سائر الأحكام الجزئية التي تخص الظواهر المحددة والمتغيرات.

ولا يعجز العقل المستنير بالوحي معرفة حكم واقعة جزئية استنباطاً من تلك الأحكام العامة. ولذلك كان الشرع كاملاً حيث قال ربّنا سبحانه: (اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورضيتُ ركُمُ الإسلامَ ديناً)[١].

وقال عن كتابه الكريم: (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل) [٢] (تبياناً لكل شيء) [٣] (ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناكَ بالحقَّ وأحسنَ تأويلاً)[٤].

---

[١] – المائدة/ ٣.

[٢] – الكهف/ ٥٤.

[٣] – النحل/ ٨٩.

[٤] – الفرقان/ ٣٣.

وري عن النبي الأكرم- صلّى الله عليه وآله_:

(أيها الناس ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلاّ وقد نهيتُكم عنه وأمرتكم به)[١].

ومعروف ان الرسول لم يحدد حك المتغيّرات اليوميّة بصورةٍ تفصيلية، إنّما بيّن النبي الأحكام العامة التي يستنبط منها ذلك بالعقل.

وهكذا لا يبقى لنا مجال للتساؤل عن مورد يحكم به العقل ولا يحكم به الشرع، إذ كل شيء موجود في الشرع إنْ كان بصورة خاصة أو بالعموم. نعم العقل يقوم بتحديد الحكم الشرعي المناسب للواقعة.

كما أنّ، الشرع يذكر بالعقل ويفضّه ويستثير دفائنه. ولعل هذا هو المراد من قوله سبحانه: (فبشِّرْ عباد الذي يستمعون القول فيتَّبعون أحسنَهُ أولئك الذي هداهُم الله وأولئك هو أُولُو الألبابِ)[٢]. حيث أن اتّباع الأحسن لا يكون إلاّ بعد معرفته، ومعرفته لا تّتم إلاّ بهداية الله الظاهرة عبر الرسالة وبالعقل الذي هو لبّ الإنسان وأصله.

وكذلك أمَرَنا الله تعالى على لسان نبّيه موسى بن عمران-عليه السلام- باتّباع أحسن الكتاب.

(وَأمُرْ قومَك يأخذوا بأحسنها)[٣].

وهكذا يختلف الأحسن بالنسبة إلى الناس والظروف المحيطة بهم، ومعرفة الأحسن إنّما تّتم بالعقل.. وكذلك قوله سبحانه:

(أدعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة)[٤].

حيث أنّ الحكمة وضعُ الشيء موضعه المناسب، ومعرفة ذلك بالعقل، مما يدلّ على دور العقل في تحديد مواقع عطبيق الشريعة.

وقوله-عليه السلام-:

(إن على كلّ حقّ حقيقة، وعلى كل صوابٍ نوراً)[٥]يدل على أنّ معرفة الحقائق تتم بالعقل..

وقوله-صلّى الله عليه وآله-:

(العقل رسول باطن، والرسول عقل ظاهر).

يدلّ على تطابق العقل والرسالة، وعلى أنّ، أحدهما يكمّل الثاني[٦].

ويبدو أنّ هذا الكشف الوجداني، والشهود الفطري، والتجربة الذاتية في التعّرف على العقل ومدى تطابق الشريعة معه أبلغ حجةً ممّا ساقه البعض دليلاً على ذلك، لماذا؟.

أولاً: لأنّ ذلك الدليل يعود بالتالي إلى الوجدان فلماذا لا نقصر الدرب ونستدل بالوجدان منذ البداية.

---

[١] - بحار الأنوار/ ج٢ ص ١٧١.

[٢] - الزمر/ ١٧-١٨.

[٣] - الأعراف/ ١٤٥.

[٤] - النحل/ ١٢٥.

[٥] - اصول الكافي/ ج١ ص ٨٨.

[٦] - سبق في الابواب الماضية احاديث كثيرة في هذا السياق.

ثانياً: لأن حجتنا القائمة على أساس فضّ العقل ذاته بذاته، تهدينا إلى سُبُل كشف الحقائق التفصيلية أيضاً، لأنها،-أساساً- تعتمد على معرفة هذه الحقائق والاستدلال بتلك المعرفة على وجود نور العقل.

أدلة الاستاذ النائيني

وحسب تقريرات المرجع الخوئي-قدس الله سره- يستدل الاستاذ النائيني على حجية أدلة العقل بثلاثة وجوه:

أولاً: إن الأحكام الشرعية تابعة للمصالح والمفاسد، ورد قول بعض الأشاعرة الذين أنكروا وجود الحسن والقبح، ولم يستقبحوا ترجيح الشيء بلا مرجح، ردّه بأنه مخالف لضرورة العقل والوجدان.

كذلك ردّ القائلين منهم بأن ذات المصلحة وذات المفسدة ليستا مناطين للحكم، إنّما وجود مصلحة ومفسدة في الأفعال بصفة عامة جعل بعضها حراماً وبعضها حلالاً. ردّ هؤلاء بأنّه أية مصلحة تعود إلى المكلّف أو أية مفسدة تدرأ عنه لو لم تكن في ذات التكليف مصلحة أو مفسدة. قال: فإنّ الضرورة قاضية بعدم المصلحة في جعل المكلفين في الكلفة إلا ايصال المصالح إليه وتعبيد المفاسد عنهم، وإلا فأيّ مصلحة تقتضي جعلهم في الكلفة مع عدم رجوع المنفعة اليهم.

هذا وقد تواترت الأخبار معنىً بمضمون قوله- صلّى الله عليه وآله-: (ما من شيء يقربكم إلى الجنة ويبعدكم عن النار إلاّ وقد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم إلى النار ويبعدكم عن الجنة إلا وقد نهيتكم عنه) الصريح في انبعاث الأحكام عن المصالح والمفاسد في الأفعال[١].

ثانياً: استدلّ على أنّ العقل يدرك ولو بصورة جزئية الحسن والقبح في الأفعال بالضرورة وقال: ولو لا لك لما ثبت أصل الديانة، ولزم افحام الأنبياء إذ اثبات النبوة العامة فرع إدراك العقل لقاعدة وجود اللطف. كما ان اثبات النبوة الخاصة بظهور المعجزة على يد مدّعيها فرع إدراك العقل قبح اظهار المعجزة على يد الكاذب[٢].

ثالثاً: واستنتج-أخيراً- من تبعيّة الأحكام للمصالح والمفاسد والحسن والقبح، ومن قدرة العقل على إدراك بعض المصالح والمفاسد على أن العقل لو افترضنا وإدراك حسن شيء أو قبح شيء لزم من ذلك معرفة الحكم الشرعي، أليس كلّ حسن مأموراً به وكلّ قبيح منهيّاً عنه؟ .

وقد نقل عن صاحب الفصول كلاماً مفصلاً يشكك عبره في قدرة العقل على إدراك المصالح والمفاسد، وأجاب عنها جميعاً بأننا نفترض حالة إدراكه..

والواقع أنّ حديث صاحب الفصول يصبّ أكثره في المنهجية حيثص ينفي قدرة العقل -وحده- على كشف ملاكات الشريعة، وسوف نناقش ذلك لاحقاً إنشاء الله. ولا ريب أنّ ببعض الردود على كلامه ضعيف، ومنافٍ لصريح الأحاديث، وأيضاً لما عله فقهاؤنا من ردّ القياس في الدين ومنهم الاستاذ النائيني-رحمه الله- كما نقلنا عنه سابقاً..

---

[١] - اجود التقريرات/ ج٢- ص٣٧.

[٢] - المصدر.

ولذلك فإنّنا نفضل إحالة القضية منذ البداية إلى محكمة الوجدان ليرجع كلٌّ إلى عقله ويستثيره، ويستنطقه هل يستقلّ بمعرفة الأحكام بعد تذكرة الوحي؟ ويأتي الجواب بنعم من قبل مَنْ ألقى السَّمع وهو شهيد.

أمّا بدون ذلك فإنّ العقل يبقى في سباته ولا يقاوم جبت الهوى والثقافة الباطلة والتربية المنحرفة..

٣- مناهج القياس

حينما تلامس النفس البشرية أرجاء الحقيقة بنور العقل تستريح وتغمرها السكينة والاطمئنان.. ولكنها حين تفقد هذا النور، وتعيش ظمأ الحقيقة.. يجب عليها أن تبحث عنها بلا كلل. وإذا كانت بينهما وبين الحقيقة حجب باطنية كالكبر والحسد والغرور.. سعت في تزكية النفس وتطهيرها منها. وإذا منعتها عن معرفة الحقيقة حجبٌ واقعية مثل انعدام الوسائل الكفيلة بالمعرفة، كضعف البصر أو بُعد المسافة فعلى النفس أنْ تعترف أولاً بذلك لكي يسعى الإنسان جاهداً لتوفير الوسيلة المناسبة.. مثلاً منظاراً مقرباً أو مطيّة تعرب المسافة إلى حيث الحقيقة. ثم تبحث عنها فتجدها. أما إذا أصابه غرور العلم وملأ نفسه بظنون الهوى، وزعم أنّه قادر على معرفة الحقيقة كلها بما أوتي من وسائل محدودة فهنالك تقع المصيبة الكبرى تصوَّره من معاني كلماتها الغريبة، فإنك قد تخترع لغة جديدة ولكنك لن تتعرف على اللغة الصينية.. كذلك نشأت مشكلة القياس في الإنسان حيث كان من الصعب عليه أن يقاوم غروره ويعترف بأنه لم يؤت علم كل شيء فأخذ يملأ فراغ نفسه بالأوهام والظنون. ويّصور الإمام عليّ-عليه السلام- هذه الحالة عندما يصف طائفة من الناس ويقول: (وآخر قد تسمّى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جهّائل، وأضاليل من ضلاّل، ونصب للناس أشراكاً من حبائل غروره وقول زوره قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه)[١].

وتصبح المشكلة بالنسبة إليه مضاعفةً إذ أّ،ه لا يصل إلى الحقيقة ولن يبلغها لأنّه يعتقد أنّه قد عرفها، وهذا الاعتقاد يمنعه من السعي نحوها مستقبلاً أو قبول كلام من ينبئه عنها.

وأول غرور الإنسان زعمُه بأنّه أُوتي القدرة على العلم بذات الله سبحانه، فأخذ يقيس ربه بنفسه جهلاً بمقامه.. ثم جرى على ذلك فأخذ يقيس دينه بأهوائه.

يقول الإمام أمير المؤمنين-عليه السلام-:

قال رسول الله -صلّى الله عليه وآله-: قال الله جل جلاله: (ما آمن بي مَنْ فسّر برأيه كلامي، وما عرفني مَنْ شبَّهني بخلقي، وما على ديني مَنِ استعمل القياس في ديني)[٢].

إننا نجد كيف اتصلت ضلالة تشبيه الله بضلالة القياس في دينه، لأنّهما ينتهيان معاً إلى إشباع غرور الإنسان عبر القياس..

---

[١] - نهج البلاغة/ خطبة ٨٧ ص ١١٩.

[٢] - بحار الانوار/ ج ٩٢ ص ١٠٧.

وتاريخياً إنّما نشأت فكرة القياس التي استولت على الفكر اليوناني بسبب هذا الغرور الجامح بعد اكتشاف قوانين الهندسة، حيث زعموا أنّهم قادرون على كشف كل حقائق الكون عبرها، فاندفعوا يقيسون كل كل شيء بمعادلات هندسية، فضلّوا وأضلّوا أجيالاً متمادية من البشر.

يقول عن ذلك براتراند راسل [١] بعد أنْ يسمَّي المذهب التعقلي بـ(السنة المأثورة) أو (المذهب الكلاسيكي) يقول: الدافع الأول والبسيط الذي كان وراء هذا المذهب اعتقاد حكماء اليونان الساذج القدرة المطلقة للتعقل والاستدلال (القياسي). لقد أشبعهم اكتشاف الهندسة غروراً وسكراً حتى زعموا بأنّ منهج القياس الذي استخدم فيها يمكن أنْ يستعمل بصورة مطلقة وكلّية (وفي كل شيء). كانوا يزعمون: أنّ الحقيقة أمرٌ واحدٌ ولا تعدد فيها، وليس عالم الحس سوى غرور وأوهام محضة، ولم يرفَّ لهم جفنٌ بسبب غرابة هذه النتائج. بل كانوا من شدّة الإعتقاد (بمنهج القياس) قد بلغوا درجة زعموا انّ بإمكانهم إصدار أعظم وأغرب الأحكام فيما يتّصل بالحقائق الكلية دون أنْ يشكّوا في صحتها بسبب معارضتها للتجارب الحسية[٢]. ويرى أنّ السبب الرئيسي للأخطاء التي تورّطت فيها الفلسفة اليونانية أنّهم تكلَّفوا علماً لم يُؤت الإنسان –يومئذٍ– أدوات معرفته[٣].

وقد تنبّه المسلمون، مبكراً إلى هذه الثغرة الواسعة في المنهج اليوناني المنطقي والفلسفي ولذلك لم تتأثّر ثقافتهم به إلاّ عند شريحةٍ معينةٍ منهم.

فمعارف التفسير والحديث والرجال والعقائد ظلّت قائمة على أساس منهجهم القرآني المتميّز بالدلائل الفطرية والوجدانية، وإنْ لم تتبلور هذه المناهج بصورة كافية.. بلى، استحدث علم الكلام، واستفاد من المنهج الفلسفي للرّد على شبهات المتفلسفين من المسلين، واستفاد البعض من القياس الذي اعتمد على فهم ملاكات الأحكام، بينما اعتبر الآخرون منهج القياس غير مناسب لفهم احكام الدين، وملاكاتها.

واعتراضات العلماء المسلمين على المنطق الارسطي هي ذاتها التي أصبحت اليوم واضحة حتى لطلاب الثانوية. ولو لا التوقّف الحضاري الذي طرأ على المسلمين بعد الحروب الصليبية الطوفان التتري لكانت المناهج القرآنية قد فتحت آفاق المعارف أمام البشرية.

ولكن المعروف أنّ قبساً من نور القرآن شعّ على العقل الغربي فأناره، وأنار له العالم، وتقدم في حقول العلوم.

إنكّ تجد رحلة الغزالي من الشك إلى اليقين قد سبقت رحلة ديكارت بقرون، ولكنهّا لم تثمر تلك النتائج التي كانت لرحلة ديكارت.

وإنّ مناقشات علماء المسلمين لعقم المنهج الكلاسيكي سبقت مناقشات بيكون، ولكنها ذهبت أدراج حالة التخلّف التي أصابتهم.

---

[١] – فيلسوف انجليزي استفاد من الرياضيات في الفلسفة والمنطق.

[٢] – براترند رسال –علم داية عالم خارج/ ترجمة منوجهربزركمر/ فارسي/ ص ١٩.

[٣] – المصدر.

فمثلاً تجد ابن حزم يرى أنّ أقوال المتكلمين معتزلةً كانوا أم أشاعرة أم سواهم في باب ماهية الله وتركيب الجوهر، وطبيعة المسؤولية الخلقية.. الخ جميعها باطلة، وعليه فينبغي للإنسان أنْ يسلّم بامتناع تحرّي الحقيقة في مثل هذه الخفايا بالعقل وبصورة أخص سر ماهية الله وطرقه الحكيمة.[١]

وحسب ما ترى إنّ هذه الفكرة هي ذاتها التي نقلناها من الفيلسوف البريطاني براتراند راسل.. من أنّ اليونانيين ومن اتّبعهم تكلّفوا علماً لم يؤتوا ادواته.. وعن المنطق الأرسطي يقول فخر الدين الرازي: قد تأمّلتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتُها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيتُ أقرب الطرق طريقة القرآن.

ويدّعي انّ من جربته لن يشكَّ في عدم جدوى هذه المناهج[٢].

وخلاصة النقد الموجّه- حديثاً ضد هذا المنطق- هي التالية:

١- أنّ المنطق الأرسطي اهتّم بشكل التفكير، وغفل عن مادته.

٢- أنه لم يهتم بدور السلبيات البشرية (كالهوى والغضب) في إضلال البشر. ولا بدور الإرادة والعقل في مقاومة هذه السلبيات.

٣- أنّه كان يعيش في دور طفولة البشر حيث كان يزعم الإنسان أنّه قادر على إدراك كل شيء بترتيب بعض الأقيسة.

٤- أنّه كان يبحث عن المطلق، مَّما جعله يغفل عن الحقائق وعما بيّنها من فوارق عظيمة. مما هو وظيفة العلم.

٥- وقد تنّبه المفكرون المسلمون إلى هذه الثغرات، وأشاروا اليها بوضوح[٣].

والمحدثون من علمائنا أشاروا إلى بعض تلك الثغرات، وحذروا من مغبّة الاعتماد على المناهج القياسية التعقلية.

وقبل أن ننقل كلماتهم في ذلك نذكر بأنّ حديثهم هذا لا يتعلّق بمباحث القطع، بل بأساليب الوصول إلى الحكم الشرعي، إذ من الواضح أنّ÷ حينما يلتفت الإنسان إلى أنّ الطريق إلى العلم لا يمر عبر المناهج التعقلية يصبح أكثر حذراً ولا يغتربها. ومن ثمَّ لا يزعم أنه قد أوتي العلم، أو حصل عنده القطع بالحكم. ولذلك لا يجوز أنْ نعترض عليهم بالقول: كيف إذا حصل للفرد القطع من خلال هذه المناهج؟ لأنّهم يرون أنّ القطع لا يحصل من هذه المناهج لمن التفت إلى كلماتهم في الاعتراض عليها.

دعنا نستمع إلى كلام المحدث الاستر آبادي الذي يحكيه عنه شيخنا الأعظم الأنصاري، والذي يعكس نقله من دون تعليق ميله إليه، قال:

الدليل التاسع مبنّي على مقدمة دقيقة شريفة تفطّنتُ لها بتوفيق الله تعالى وهي: أن العلوم النظرية قسمان: قسم ينتهي إلى مادة هي قريبة من الإحساس، ومن هذا القسم علم الهندسة الحساب وأكثر أبواب المنطق. وهذا القسم لا يقع فيه الخلاف بين

---

[١] - تاريخ الفلسفة الإسلامية/ ص ٤٢٢.

[٢] - المصدر/ ص ٤٣٣.

[٣] - راجع: المنطق الإسلامي اصوله ومناهجه للمؤلف/ ص ٥٦. وتاريخ الفلسفة الإسلامية/ ص ٤٢٩- ٤٣٦.

العلماء، والخطأ في نتائج الأفكار ويضيف: وقسم ينتهي إلى مادة هي بعيدة عن الاحساس، ومن هذا القسم الحكم الإلهية والطبيعة وعلم الكلام وعلم اصول الفقه والمسائل النظرية الفقهية وبعض القواعد المذكورة في علم المنطق. ومن ثم وقعت الإختلافات والمشاجرات بين الفلاسفة في الحكمة الإلهية والطبيعة وبين علماء الإسلام في أصول الفقه ومسائل الفقه وعلم الكلام وغير ذلك. والسبب في ذلك أنّ القواعد المنطقية انما هي عاصمة من الخطأ من جهة الصورة لا من جهة المادة، إذ أقصى ما يستفاد من المنطق في باب الأقيسة تقسيم المواد على وجه كلي إلى أَقسام وليست في المنطق قاعدة بها يعلم أنّ كل مادة مخصوصة، داخله في أيّ قسم من الأقسام ومن المعلوم امتناع وضع قاعدة يكفل بذلك.[١]

وهذا الأمر الذي التفت الهي بتوفيق الله سبحانه المحدث الاستر آبادي التفت إليه من قبله علماء كثيرون.. كما أصبح اليوم جزءاً من معارفنا الحديثة التي لا يختلف فيها عالمان.

قال الشيخ: والمستفاد من كلامه عدم حجيّة إدراكات العقل في غير المحسوسات وما يكون مباديه قريبة من الإحساس إذا لم يتوافق عليه العقول. وقد استحسن ما ذكره غير واحد مما تأخّر عنه منهم السيد المحدث الجزائري–قدّس سره– ثم قال: (وممن وافقهما على ذلك في الجملة المحدث البحراني في مقدمات الحدائق حيث نقل كلاماً للسيد المتقدم في هذا المقام واستحسنه، إلاّ أنه صرح بحجّية (الدليل) العقلي الفطري الصحيح، وحكم بمطابقته للشرع له، ثم قال:

لا مدخل للعقل في شيء من الأحكام الفقهية من عبادات وغيرها ولا سبيل إليها إلاّ السماع عن المعصوم لقصور العقل المذكور عن الإطلاع عليها[٢]..

وقد استدل المحدثون على قولهم بما خلاصته تعود إلى الحجج التالية:

الأخطاء والإختلاف

إذا كانت المناهج العقلية (ويقصدون بها مناهج القياس المعروفة في الفلسفة والمنطق) عاصمة عن الخطأ.. فما هذه الأخطاء الفظيعة التي لا نشكّ نحن اليوم ولا أحد من الناس فيها.. والتي وقعت فيها البشرية خلال القرون الماضية.

إن الثقافة اليونانية في الإلهيّات والطبيعيات والأمور الإنسانية سلسلة لا تنتهي من الأخطاء والضلالات، فهل يبقى عندنا ثقة بتلك المناهج التي قادتهم إليها؟ وإذا كانت هذه المناهج وسيلة لحسم الخلاف، وبلوغ الحقائق والواضحة، فلماذا الإختلاف الواسع بينهم؟

فبعكس الرسالات الإلهيّة التي كانت أُولاها تصدق أُخراها، ترى المذاهب الفلسفية يكفر بعضها بعضاً، ويدّعي كلٌّ أن الوجدان والبديهة، وشهادة المقاييس كلها تقف إلى جانبه.

---

[١] – فرائد الأصول/ ص ٩.

[٢] – المصدر/ ص ١٠.

والى ذلك يشير المحدث الاستر آبادي بقوله: (إنّ ادّعوا البداهة في أنَّ تفرق ماء الكوز إلى كوزين إعدامٌ لشخصه وإحداثٌ لشخصين آخرين. وعلى هذه المقدمة بنوا إثبات الهيولي، وان الإشراقّيين ادّعوا البداهة في أنّه ليس إعداماً للشخص الأول وإنّما انعدمت صفة من صفاته وهو الاتصال)[١].

وقد أجاب الشيخ الانصاري عن هذه الإشكالية بأن الإختلاف ناشيء أيضاً في الاحكام الشرعية بين الفقهاء فقال: (فلو سلم وأغمض عن المعارضة بكثرة ما يحصل من الخطأ في فهم المطالب من الأدلة الشرعية[٢] وكلن المحدث الاستر آبادي كان قد أجاب عن مثل هذا الاشكال بما خلاصته ان الاختلاف الموجود في الاحكام الشرعية منشؤه المناهج القياسية التي تبعث فيها قال: (فإن قلت لا فرق في ذلك بين العقليات والشرعيات والشاهد على ذلك ما نشاهده من كثرة الاختلافات الواقعة بين أهل الشرع في أصول الدين وفي الفروع الفقهية قلت: إنما نشأ ذلك من ضمّ مقدّمة عقليّة باطلة بالمقدّمة النقلّية الظنيّة أو القطعيّة[٣].

والواقع: أن هذه الإشكالّية هي الثغرة الواسعة في جدار الفلسفة كما في جدار أيّ منهجٍ آخر يدّعي رَفع الاختلاف ثم يعجز عن ذلك أو يزعم بلوغ الحقائق ويوقع الإنسان في أخطاء كبيرة.

والنقض بما يوجد عند بعض المتشرعة من اختلافات مخدوش بما يلي:

أولاً: إن هؤلاء لم يلتزموا بالمنهج الشرعي بل أدخلوا فيه المناهج البشرية، وهذا الرد هو ما أشار إليه المحدث الأستر آبادي آنفاً.

ثانياً: إن الأحكام الرعية أكثرها ظاهرية ولا يدّعي الفقهاء أنّها حقائق نهائية. بينما يدّعي أصحاب المنهج الآخر أنّ÷ يؤديّ بهم إلى عين الحق، وبهذا الدّعاء يزعمون أنّه كلما حكم به العقل حكم به الشرع. فالاختلاف لا ينقض الأحكام الفقهية التي هي وظائف المكلفين بينما ينقض ادعاء أولئك.

ثالثاً: إذا قسنا اختلاف المؤمنين بالشريعة الإسلامية والتابعين لنهج الأئمة- عليهم السلام- بما لدى أتباع المنهج الفلسفي لرأيناه شيئاً ضئيلاً. ويعود عادة إلى أمور ثانوية. بينما الاختلاف عند الفلاسفة واتباعه يطال كل الامور تقريباً.

خفاء الملاكات الشرعية

بما أنّ الحكم العقلي يعتمد على فهم الملاك الذي هو علة الحكم وفلسفته، وحكمته، حتى يمكن تعميم الحكم وفق ذلك الملاك، فإن خفاء الملاك الشرعي يجعل العقل حائراً، ولا يدعه واثقاً من نفسه في الحكم بشيء.

وقد افاض صاحب الفصول في الحدث عن هذا الجانب –حسب أجود التقريرات- حيث جاء فيه:

---

[١] – المصدر/ ص ٩.

[٢] – المصدر/ ٨.

[٣] – المصدر/ ص ٩.

(ثم إنّ صاحب الفصول ذهب إلى إنكار الملازمة من الطرفين (بين العقل والشرع) واستدلّ عليه بوجوه: يرجع بعضها إلى دعوى وجود الحكم الشرعي مع عدم وجود الملاك في مورده وبعضها إلى دعوى وجود الملاك مع عدم وجود الحكم الشرعي في مورده[١] ثم أخذ يبيّن أمثلة شتّى على كلامه، منها:

الأوامر الامتحانيّة التي هدفها مجرد الأمر والإنقياد، لا الملاك في المأمور به. ومنها قوله–صلّى الله عليه وآله–: (اسكتوا عمّا سكت الله، فأنّ الله لم يسكت عنه نسياناً) إلخ..

ومنها النهيُ عن العمل بالقياس مع أنّه قد يصادف الواقع. ومنها: أنّ الملاك إنَّما يتحقق بقصد القربة، وقصد القربة لا يمكن الأمر به.

ومنها: التقية التي تكون في ذات الأمر. والتي نعمل أنّ المأمور به لا ملاك فيه. وقد ناقش في أجود التقريرات هذه الوجوه الواحد بعد الآخر ثم قال: فما ذهب إليه –قدّس سره– من إمكان انفكاك الحكم عن الملاك وبالعكس واستدلاله على ذلك بهذه الوجوه الضعيفة لم يكن مترقّباً منه[٢].

حقاً أنّ بعض الوجوه ضعيفُ إلاّ أنّ الإنصاف يقتضي القول بأنّ بعض المناقشات فيها أضعف منها.

وقد غاب عن المعترض أنّ مَدْعى صاحب الفصول هو التشكيك في قدرة العقل على كشف حقائق الشرع لأنّها غامضة ومتعدّدة الاهداف، فقد يكون الهدف مجرد تجربة الفرد في مدى استجابته للأمر –كما أمر الله إبراهيم بذبح ابنه– وقد يكون في مجرد إصدار الامر، كما في بعض الاوامر الظاهرية. والعقل يحذر الإنسان عند تذكّر هذا الواقع من التسّرع في الحكم، بل قد يصاب الإنسان بإحباط ولا يثق بنظرته ذات البعد الواحد إلى القضايا. ويبدو أنّ حكمة أمر الأئمة– عليهم السلام– بالسكوت عما سكت الله، وكذلك حكمة نهيهم عن القياس، هو بالضبط كَسرُ غرور الإنسان الذي يزعم أنه قادر على فهم حقائق الدين ببعض المعارف البسيطة التي يحصل عليها.

وأساساً إن المشتغلين بالأقيسة والمعتمدين على المناهج الفلسفية قد يصيبهم الغرور الجامح ويقطعون بما يوصلهم إليه منهاجهم الخاطئ. فهل نعذرهم في ذلك. أَوَلا تشملهم نصوص النهي عن القياس أو عن تكلُّف علم ما سكت الله عنه، أو النصوص التي تحذّر من التكلّم في الدين بالعقل؟ كلا.. بل هم المقصودون من هذه النصوص، وكان عليهم اختيار الصراط المستقيم الذي هداهم الهل إليه. وهو صراط الوحي.. وأهل بيته فلما اختاروا سبيلاً آخر وضلّوا فقد احتملوا إثم اختيارهم!

وبكلمة: إن حديث صاحب الفصول وغيره من علمائنا الكرام المحذرين من ارتياد هذا الطريق الشائك من محدثين وغيرهم، إنّما هو تابعٌ لنصوص أهل البيت. وهدفه هو هدفها، من التحّذر من السبيل الخاطيء الذي يختاره البعض في البحث عن الحكم الشرعي. وإتيان البيوت من ظهورها، وتجنّب الباب الذي أمر الله بإختياره.

خلاصة الأفكار

---

[١] – اجود التقريرات/ ج ٢–ص ٣٨.

[٢] – بحار الأنوار/ ج ٧٦ ص ١٢٦.

وكلمة الخلاصة التي نرجوا أن تكون كلمة الفصل أيضاً تحدَّد بالنقاط التالية:

أولاً: إنّ التأمّل في كلمات الفقهاء يهدينا إلى محاولة جادة عند بعضهم للتوفيق بين منهجين مختلفين بل ومتناقضين:

ألف- منهج الإسلام الذي ينهى عن القياس بشدّة بالغة. ويحدّد السبيل الوحيد لمعرفة الدين وهو الوحي واهل بيته، والفقهاء ملتزمون بهذا المنهج.

باء- منهج الفلسفة واعتماده على المناهج المنطقية التي تزعم أنها تعتمد على العقل كوسيلة لفهم الحقائق.

وهذه المناهج يرفضها الفقهاء عادة في الفقه. ولكنهم في علم الكلام وربما في الاصول يأخذون ببعضها لمجرد ردّ الشبهات الآتية من أصحابها على مناهج الدين ردّاً قائماً على اسسهم. وبتعبير آخر استخدام سلاحهم ضدهم!!

ويبدو لي أن الحلقة المفقودة في هذا الوسط تتمثل في معرفة العقل.. فاشتباه البعض في معناه جعله يخلط بين ما يسميه الحكماء والمتكلمون بالعقل والمناهج العقلية.

وبيّن ما جاء في القرآن الكريم – فوقع في تناقض عظيم- فذا كان العقل هو ما يقصده الفلاسفة فلماذا لا يجوز القياس في الدين؟ أَوَليس العقل رسولاً باطناً، وشرعاً إلهياً في داخل الإنسان؟ أوليس الشرع أساساً قائماً على أساس العقل؟ فلماذا النهي عن الالتزام به؟ كلا.. العقل في الكتاب والسنّة ليس هو الذي يزعمه الفلاسفة وقد سبق كلام العلامة الميرزا الاصفهاني في الفارق بينهما..

وإذا ثبت الفرق فإنّ الإسلام نهى عن مناهج الفلاسفة التي يسمونها بالعقل وهي ضلالة بينما أمر بالعقل الحق الذي هو نور الله وشرعه ورسوله الداخلي.

ثانياً: ان العقل كما الشرع.. يأمر بجوامع العلم، وأصول الأحكام، وهما في ذلك لا يختلفان. فالله سبحانه يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي..

وينهى ربنا عن الشرك ويأمر الإحسان إلى الوالدين والإنفاق على ذوي القربى والمساكين و...

وكل ذلك وصايا العقل أيضاً، وبين العقل والوحي ذلك التطابق العظيم الذي هو دليل صدق الوحي. أمّا في الفروع فإنّ العقل يملك مناهج بكيفية الاستفادة من الأصول العامة لمعرفة حكمها. وقد ذكّر الدين أيضاً ببعض تلك المناهج بالخصوص وذكّر بضرورة العودة إلى العقل في غيرها.

فإذاً لا يوجد لدينا موضوع يستقلّ فيه العقل- ومن دون الشرع- في إصدار حكم شرعي. لا يوجد أي موضوع نفقد فيه حكم الشرع عامّاً أو خاصّاً.. فلماذا هذا الاختلاف العريض[1].

[1] – سنذكر –انشاء الله- في الجزء الثالث قيم الشريعة ومقاصدها اعتماداً على الكتاب السنة وهي ذاتها ملاكات الاحكام وبذلك يكون علمنا بها علماً قائماً على النص كما هو قائم على العقل.

ثالثاً: وللدين مناهجه الخاصة[١] في البحث أشار اليها القرآن الكرمي وأوضحها السنّة الشريفة وأتّبعها علماء الإسلام بعفوية وبلا تكلّف.. وهي غريبة عن مناهج الفلسفة ومتناقضة احياناً معها. وعلماء الإسلام السابقون- كما سبق الحديث عن ذلك- قد اتبعوا عملاً بتلك المناهج.

رابعاً: ولاية أولياء الله وفي طليعتهم رسل الله والأئمة المعصومين عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه هي بذاتها محور الدين، وعمود الشريعة، وشرط التوحيد. ولا يقبل الله عملاً من دونها. ولذلك لا ريب في أنّ المطلوب هو اتّباعهم في أمر الدين، ومن دون اتّباعهم يكون العمل لاغياً. وحتى لو عرفنا مطابقته لأمر الله يقيناً.

والنصوص في ذلك متواترة معنىً ويبدو أنّ ذلك يعتبر من ضرورات المذهب الحق. من خلال هذه الأمور الأربعة نستطيع ان نرفع الاختلاف في كلمات الفقهاء رضوان الله تعالى عليهم. حيث أنهم إذا نهوا عن القياس والمناهج التعقلية- كما فعل المحدّثون- فليس لأنهم ينفون العقل الفطري المستنير بالوحي الإلهي بل لأنهم لا يؤمنون بما يسميه الفلاسفة عقلاً أو لأنها يعتبرون اتباع اولياء الله شرطاً لصحة العمل مثلاً المحدِّث البحراني يقول مرة:

(لا مدخل للعقل في شيء من الأحكام الفقهية من عبادات وغيرها، ولا سبيل اليها إلاّ السماع عن المعصوم لقصور العقل المذكور عن الاطلاع عليها)[٢].

ولكنه يعود ويؤكد أهمية العقل ويقول:

(وأما لو أُريد المعنى الأخر (للعقل) وهو الفطري الخالي من شوائب الأوهام الذي هو حجة من حجج الملك العلام، وإن شذّ وجوده في الأنام ففي ترجيح الدليل النقلي عليه إشكال)[٣].

من هنا يظهر: أنّ العقل الذي يراه- صاحب الحدائق- حجةً هو ما أشارت إليه الآيات وصرّحت به السنّة، من النور الإلهي الذي أودعه الله في القلب وبه يعرف الإنسان ربّه ويميّز الخير عن الشر، بينما العقل المصطلح عليه عند فلاسفة اليونان الذي هو مجموعة تصورات وتصديقات فإنّه ليس بحجة عنده في الدين، ولكن أي عقل، انما العقل الذي هو نور الله وحجة الله، لا العقل المصطلح تأمل في كلامه التالي حيث يقول:

اما الاصوليون مثلاً الشيخ الانصاري -قدس سره- حكّم العقل، (وما ورد من النقل المتواتر على حجية العقل وأنّه حجة باطنة، وأنّه ممّا يعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان ونحوهما ممّا يستفاد منه كون العقل السليم أيضاً حجةً من الحجج، فالحكيم المستكشف به حكم بلغه الرسول الباطني الذي هو شرع من داخل كما أنّ الشرع عقلٌ من خارج[٤] إذا قالوا ذلك فلا يعين مطلق العقل، بل العقل الذي هو شرع الله من الداخل حيث ينفي العقل المصطلح ويقول في تأويل بعض الأخبار

---

[١] – ذكر المؤلف هذه المناهج في كتابه (المنطق الإسلامي اصوله ومناهجه).

[٢] – الفوائد/ ص ١٠.

[٣] – المصدر.

[٤] – المصدر/ ص ١١.

الرادعة عن العمل بالعقل: (أنّ المقصود من أمثال الخبر المذكور عدم جواز الاستبداد بالأحكام الشرعية بالعقول الناقصة الظنية على ما كان متعارفاً في ذلك الزمان من العمل الأقيسة والاستحسانات[١].

ولذلك فإنّه – قدس الله سره– يقول في موضع آخر من كلامه: فلو خاض فيها (في المطالب العقلية) وحصل القطع بما لا يوافق الحكم الواقعي لم يعذر في ذلك لتقصيره في مقدمات التحصيل.[٢]

وهكذا تجد الاستاذ الكبير الميرزا النائيني حسب أجود التقريرات يقول وهو يثبت حكم العقل:

(إن القطع الطريقي لا يفرّق فيه بين افراده، ولا يمكن التصرّف فيه أصلاً لا من جهة الأشخاص، ولا من جهة الأزمنة والأسباب لما عرفت من أنّ طريقيته ذاتية غير قابلة لتعلّق الجعل بها إثباتاً ونفياً).[٣]

ولكنه يقول مستدركاً ومبيّناً أن هناك شروطاً لقبول حكم العقل:

(وإذا أمكن أخذ القطع بالحكم في موضوعه بدليلٍ آخر فيمكن أخذ القطع بالحكم من سببٍ خاص مانعاً عنه أيضاً. وهذا كما في القطع القياسي. فإنّ المستفاد من رواية أبان عدم اعتبار القطع من القياس. وهذا انما يكون باعتبار تقيّد الأحكام الواقعية تلك الأحكام مَنْ لا يكون عالماً بها من طريق القياس)[٤].

وبهذا نجد حلاً للمشكلة العتيدة التي قامت بين مدرستي الاصولية الاخبارية فالاخبارة نفوا العمل المصطلح عند الفلاسفة بينما المدرسة الاصولية امنوا بالعقل حسب المنهج الديني وهذا لم يؤمن فيه الاخباريون ايضاً.

٤/ هل يجوز التعبّد بالقطع؟.

وهذا هو السؤال الرابع والأخير الذي طرحناه في مستهل بحوثنا هذه، حيث قلنا إذا حصل القطع عبر وسائل غير متعارفة (الأقيسة، الجفر والرمل وما أشبه) فهل يجوز التعبّد به شرعاً..؟

قال بعضهم: بما أن القطع يجعل الإنسان على اعتقاد راسخ بأنّ ما قطع به حكم الله فإنّ اتّباعه يكون ضرورياً، بل لا يمكن ينهى عنه الشرع، لأنه–حينئذ– يوجد التناقض في الدين. دعنا نضرب مثلاً: اعتقد المكلف يقيناً بأن غسل الجمعة حكمُ مفروض عليه، ولكنّ اعتقاده هذا جاء بسبب إقامة البرهان العقلي، أو القياس أو الاستحسان أو الجفر أو علم النجوم أو ما أشبه. فإذا جاء نصٌّ ينفي هذه السبل المؤدية إلى الحكم الشرعي يحصل عنده التناقض. فمن جهة يرى انّ الله أوجب عليه الغسل يوم الجمعة ولكنه –من جهة أخرى– يرى أنه لم يوجبه.

---

[١] – المصدر.

[٢] – المصدر/ ص ٩.

[٣] – اجود التقريرات/ ج ٢– ص ٧

[٤] – المصدر/ ص ٨.

وقال البعض: كلا لا تناقض في هذا الأمر.. لأنّ الشارع إذا ألغى هذه السبل وحدد سبيلاً واحداً لمعرفة الشريعة وقال مثلاً : (واتّبعوا النور الذي أُنزل معه)، (وهذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فإن ذلك يعني: أنّه حدّد الأحكام بتلك التي تصل الكلّفين عبر هذه السبيل وحده، بينما تعتبر سائل الأحكام غير لازمة. ألا يمكن أن يقول الأب لولده الأصغر: إذا بلغك عني اخوك الاكبر بالتسوّق فافعل، ولا تفعل ذلك فيما إذا علمت ذلك من طريق آخر؟ بلى يمكن ذلك لأنه في هذه الحالة قد حدّد طلبه بالتسوّق بوضع معين أي بشرط أن يبلغ وجوبه عبر قناة معينة..

وهذا هو الذي سمّاه الاستاذ الميرزا النائيني– حسب أجود التقريرات– باتخاذ القطع موضوعاً في الحكم. واستظهر الاجماع على إنّ الشريعة قد حددت –فعلاً– أحكامه بما تصل إلى المكلفين عبر سبل معينة.. ليس بينها القياس والاستحسان وما اشبه[١].

أما الشيخ الأعظم الأنصاري فقد تخلص عن ذلك بطريقة أخرى حيث احتمل أن يكون من باب التقصير في مقدمات حصول القطع مثل سلوك طريق المطالب العقلية. وقد ذهب المحدثون إلى أن القطع الحاصل من غير سبيل أهل البيت، يعتبر لاغياً، يقول في أجود التقريرات:

(إنّ الذي يجتمع عليه كلماتهم هو دعوى لزوم توسّط الأوصياء– سلام الله عليهم– في التبليغ، فكل حكم لم يكن فيه وساطتهم فهو لا يكون واصلاً إلى المرتبة الفعلية والباعثية، وإنْ كان ذلك الحكم واصلاً إلى المكلف بطريق آخر)[٢].

ولم ينف الاستاذ النائيني–قدّس سره– إمكانية هذا التقييد ولكنّ÷ نفى وجود دليلٍ مقنع على ذلك. كذلك فعل الشيخ الأنصاري –قدّ سره– نفى مثل هذا الدليل.. وأضاف: نعم، الإنصاف أنّ الركون إلى العقل فيما يتعلق بإدراك مناطات الأحكام لينتقل منها إلى إدراك نفس الأحكام موجبٌ للوقوع في الخطأ كثيراً، في نفس الأمر وان لم يحتمل ذلك عند المدرك[٣]ثم نقل رواية أبان واستنبط منها ما يلي: (إلاّ أنّ مرجع الكلّ إلى التوبيخ في مراجعة العقل في استنباط الأحكام فهو توبيخ على المقدّمات المفضية إلى مخالفته الواقع. وقد أشرنا هنا –وفي أول المسألة– إلى عدم واز الخوض لإستكشاف الأحكام الدينية في المطالب العقلية والإستعانة به في تحصيل مناط الحكم، والإنتقال منه إليه)[٤].

أدلة المحدثين في التقييد

وهكذا ينبغي أن نرجع إلى الأدلة التي ساقها المحدّثون لإثبات العقل وهي التالية:

أولاً: دليل العقل.. أليس العقل يبحث عن ضمانٍ للإنسان في تطبيق الشريعة؟ فإذا احتمل ان يكون للشارع سبل خاصة لتبليغ الأحكام وأنه لا يريدها الا عبر تلك الرسل، كيف يطمئن العقل إلى إدراك الأحكام بالقياس والاستحسان؟

---

[١] – اجود التقريرات/ ج٢– ص ٨.

[٢] – اجود التقريرات/ ج٢– ص ٤٠.

[٣] – فوائد الاصول/ ص ١٢.

[٤] – المصدر/ ص ١٣.

ويبدو لي أن الأدلة الشرعية تشير إلى هذا الدليل الفطري كما سيأتي إنشاء الله. وناقشوا في هذا الدليل بأننا نفترض وجود القطع بالحكم عند المكلّف ومعه لا معنى للشكّ المزعوم.

وكلنّ هذا القطع يعتبر بدوياً سرعان ما يتبدّد إذا تذكّر الإنسان دقة الشريعة، وطبيعة أحكامها المتصلة بسائر العلوم والمعارف. ومثل ذلك مثل من يقطع بأنَّ هذا الألم من مرض معين، فإذا عرف أنّ تشخيص الأمراض ليس بتلك السهولة لأنه يقتضي الإلمام بعلم الطب المعقّد والمتشعّب زال اليقين منه.

وقد سبق منا القولم بأنّ القطع المنطقّي الذي يتحدث عنه البعض يختلف عن العلم واليقين الذي لا ريب في حجيته، وأنّ العقل الفطري هو الذي يميزّ بين ما تطمئنّ إليه النفس من الحقائق، وبين ما يلتجئ إلى قبولها ببعض الأقيسة الجدلية دون أية سكينة أو طمأنينة. كما أن العقل الفطري يكشف عن عدم جواز الاعتماد على القسم الثاني.

ثانياً: النصوص التي حذرت من الاعتماد على القياس في الدين واليت سوف نستعرض طائفة منها في الباب التالي، وفيها عبارات شديدة كقوله عليه السلام: (والسنّة إذا قيست محق الدين).

وهذه الأحاديث تشمل حالات القطع التي تحصل عند اصحابها عبر القياس وذلك بسبب الإيحاء الذاتي والجهل المركب..

ثالثاً: النصوص المتواترة التي تدلّ على أن الدين كامل، وأن ما يحتاج إليه العباد متوفّر فيه، وفي مناسبة أخرى سوف نستعرض بعضاً من هذه النصوص مثل قوله سبحانه: (فما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، إن ربّك يقضي بينهم يومَ القيامةِ فيما كانُوا فيه يختلفُون)[١].

تهدينا الآية أنّ الاختلاف إنّما جاء بعد تمام الدين وكماله. وقلوه سبحانه: (فلِلَّهِ الحجَّةُ البالغةُ).

والنصوص الدالة على أنّ في القرآن تبيان كلِّ شيءٍ. والحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين –عليه السلام– : (انتفعوا ببيان الله، واتّعظوا بمواعظ الله، واقبلوا نصيحة الله، فأنّ الله قد أعذر إليكم بالجلية، وأخذ عليكم الحجة، وبيّن لكم محابه من الأعمال، ومكارهه منها لتبتغوا هذه وتجتنبوا هذه)[٢].

ماذا نفهم من هذه النصوص؟ أوَلا نفهم ان الدين غنّي عن استخدام القياس، وعن استنطاق العقل المجرد عن النصوص، واذا كانت هنالك واقعة نحتاج فيها إلى العقل المجرد عن النص أوَلا يدلّ ذلك على ان في الدين نقصاً؟.

رابعاً: النصوص المستفيضة بل المتواترة معنىً التي تدل على أنّ كل شيء يحتاج إليه الناس متوفر في الكتاب والسنّة. وأن الأئمة– عليهم السلام– إنّما يحكمون بهما لا بالرأي والقياس. دعنا نستمع إلى بعضها:

عن سورة بن كلب قال: قلت لأبي عبد الله (الإمام الصادق –عليه السلام–): بأي شيء يفتي الإمام؟.

قال: بالكتاب. قلت: فما لم يكن في الكتاب؟.

قال: بالسنّة. قلت: فما لم يكن في الكتاب والسنّة؟.

---

[١] – الجاثية/ ١٦.

[٢] – بحار الأنوار/ ج٢– ص ١٨٠.

قال: ليس شيء إلاّ في الكتاب والسنّة. قال: فكررت مرة أو اثنين، قال: يسدّد ويوفّق فأمّا ما تظنّ فلا[١].

وفي نصوص مشابهة أكد الأئمة ذلك وقالوا: للراوي: ليس حيث تذهب، ليس حيث تذهب[٢].

أَوَتَدْري ماذا كان يظنّه الرواة ويذهبون إليه؟ كانوا يزعمون أن الأئمة يقيسون كما كان يفعل غيرهم أو يقولون بآرائهم، وقد صرحوا بنفي ذلك بتاتاً:

فقد روي عن ابي عبد الله الصادق– عليه السلام–: (والله لولا انَّ الله فرض ولايتنا ومودّتنا وقرابتنا ما أدخلناكم بيوتنا، ولا أوقفناكم على أبوابنا، والله ما نقول بأهوائنا ولا نقول برأينا، ولا نقول إلا ما قال ربّنا)[٣].

وفي حديث مأثور يخاطب الإمام الباقر– عليه السلام– الراوي قائلاً: (ياجابر! إنَّا لو كنّا نحدّثكم برأينا وهوانا لكنّنا من الهالكين، ولكنّا نحدّثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم)[٤].

وفي بعض الأحاديث التعبير عن تلك الأحاديث بـ (اصول علم عندنا) أو (اصول عندنا)[٥].

وهكذا نستفيد من هذه الطائفة من الأحاديث أنَّ كل شيء يحتاج إليه الناس موجود في الكتاب والسنّة، وان الأئمة –عليهم السلام – كانوا يأخذون منهما ولم يفتوا الناس بآرائهم، فهل يجوز لنا أنْ نفعل ذلك؟ ولماذا لا نبحث في اصول العلم التي ورّثوها شيعتهم فنأخذ منها بعد التدبّر فيها واستنباط الفروع منها؟

وهل يجوز لنا أنْ نغلق عن أنفسنا أبواب العلم المشرّعة هذه التي بارك الله لنا فيها، ونعتمد على عقولنا الناقصة ونزعم أنها تتحفنا بما هي أحقّ واقرب سداداً؟

خامساً: جملة الأحاديث التي تهدينا إلى أَخذ العلم من معادنه الصافية، والنهي عن اتباع أهل الرأي والقياس. ففيها دلالة على جواز الإعتماد على منهج القياس ولا الأخذ من أهله:

جاء في الحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين– عليهم السلام– أنه قال: يا معشر شيعتنا والمنتحلين مودّتنا، إيّاكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السنن تفلتت منهم الأحاديث ان يحفظوهما واعتم السنّة أن يعوها[٦]، فاتخذوا عباد الله خولاً، وماله دولاً[٧] فذلت لهم الرقاب، وأطاعهم الخلق أشباه الكلاب، ونازعوا الحقّ أهله، وتمثّلوا بالأئمة الصادقين، وهم من الكفار الملاعين، فسئلوا عما لا يعلمون فانفوا[٨] أنْ يعترفوا بأنهم لا يعلمون فعارضوا الدين بآرائهم فضلّوا واضلّوا، أما لو كان الدين بالقياس لكان باطن الرجلين أولى بالمسح من ظاهرهما.

والأحاديث التي ترجع الناس إلى رواة الأحاديث وتجعلهم بين الشيعة حكاماً لتدل على هذه الحقيقة.

---

[١] – بحار الانوار/ ج٢– ص١٧٥.

[٢] – المصدر.

[٣] – المصدر/ ص ١٧٣.

[٤] – المصدر/ ص ١٧٢.

[٥] – فاتهم حفظ الأحاديث وصعب عليهم وعي السنة.

[٦] – استعبدوا عباد اله واغتصبوا اموالهم وتداولوها بينهم.

[٧] – استكبروا عن الإعتراف بجهلهم.

[٨] – بحار الأنوار/ ج٢– ص ٨٤.

سادساً: الروايات التي تدلّ على أنّ كل العلوم الإسلامية الصحيحة صادرة من الإمام أمير المؤمنين– عليه السلام– وأنّ ما فيها من اختلافٍ فإنّما هو من آراء الناس التي أضافوها إلى تلك الأحاديث.

فقد روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر –عليه السلام– أنه قال: (أما أنّه ليس عند أحدهم علمٌ ولا حقّ ولا فقه، إلاّ شيء أخذ عن علي بن أبي طالب، وعنا أهل البيت، وما من قضاء يقضي به بحقّ ولا صواب، إلا بدء ذلك ومفتاحه وسببه وعلمه من عليّ ومنا. فإذا اختلف عليهم أمرهم قاسوا وعملوا بالرأي. وكان الخطأ من قبلهم إذا قاسوا. وكان الصواب إذا أتّبعوا الآثار من قبل عليّ)[١].

أفلا تدل هذه الرواية على نهي إضافة الرأي والقياس في الدين إلى أحاديث الأئمة الأطهار –عليهم السلام– وأن هذه الإضافة سوف تورث الإختلاف والخطأ؟

سابعاً: وأبلغ النصوص دلالةً على ضرورة اتّباع الأئمة –عليهم السلام– فيما يقولون واخذ معالم الدين منهم وعدم جواز الميل عنهم إلى غيرهم أو إلى الهوى.. هي النصوص التالية:

(منْ دان اله بغير سماعٍ من عالم صداق ألزمه الله ألتّية إلى الفناء، ومن ادّعى سماعاً من غير الباب الذي فتحه الله لخلقه فهو مشرك.. وذلك الباب هو الأمين المأمون على سر الله المكنون)[٢].

فهل يستطيع أحد أنْ يدّعي أنّ استقلال عقله بشيء ومن ثم تعبّده به من دون سماع من إمامٍ صادقٍ لا يعرضه للتيه الأبدي؟

وحديث آخر مأثور عنه –عليه السلام– بذات المحتوى يقول: (منْ دان الله بغير سماع عن صادقٍ ألزمه الله التِّيه إلى يوم القيامة)[٣].

وفي حديث آخر عن علي بن عبد الله، قال: سأله رجل عن قوله الله عز وجل: (فمن أتّبع هداي فلا يضّل ولا يشقى) قال: من قال بالأئمة واتبع أمرهم ولم يحز طاعتهم.

وروي أن الإمام الباقر– عليه السلام– قال لأثنين من علماء الرأي والقياس وهما سلمة بن كهيل، والحكم بن عتيبة قال: (شرّقا وغرّبا لن تجدا علماً صحيحاً إلا شيئاً يخرج من عندنا أهل البيت)[٤].

وبما أنّ هذين الرجلين كانا من البتريِّة (أصحاب كثير النوا) وكانا يدعوان إلى ولاية علي –عليه السلام–ولكنهما يخلطانهما بولاية غيره وكانت لهذه الطائفة آراء في أصول العقائد وفي الفقه قائمة على أسس خاطئة، فإن كلام الإمام لهما يشمل من يعتمد على رأيه، ولا يأخذ من أهل البيت –عليهم السلام–أفكاره وأحكامه.

والحديث التالي يكشف عن ذلك:

---

[١] – المصدر/ ص ١٠٥.

[٢] – المصدر/ ص ٩٣.

[٣] – المصدر.

[٤] – المصدر/ ص ٩٢.

يروي ابو بصير ويقول: سألت ابا جعفر (الإمام الباقر- عليه السلام-) عن شهادة ولد الزنا تجوز؟ قال: لا. فقلت: إنّ الحكم بن عتيبة يزعم أنها تجوز؟ فقال: اللهم لا تغفر هل ذنبه، ما قال الله للحكم أنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون فليذهب الحكم يميناً وشمالاً فوالله لا يوجد العلم إلا من أهل بيتٍ نزل عليهم جبرئيل[١].

وهكذا نهر الإمام حكماً لأنه اعتمد في علمه على غير أهل البيت الذين نزل عليهم جبرئيل، فيا ترى أولا يشمل هذا العتاب أولئك الرجال الذين يزعمون أنّ للعقل أحكاماً خاصة به نستوحيها من العقل وحده؟

وفي حديث آخر مروي عن الثمالي قال: سألت أبا جعفر عن قول الله عز وجل: (ومن اضلُّ ممن اتّبع هواه بغير هدىً من الله)؟ قال: عنى الهل لها من اتخذ دينه رأيه من غير إمام من أئمة الهدى[٢].

ولا ريب في شموله هذه الرواية لمن يزعم أنه قادر على كشف حقائق الدين بلا مراجعة لأحاديث الأئمة.

ويقول الإمام الصادق-عليه السلام- في حديث عميق المعنى استفاض عنهم: (أبى الله أن يجري الأشياء الا بالأسباب، فجعل لكّل سببٍ شرحاً، وجعل لكلِّ شرحٍ علماً، وجعل لكلِّ علمٍ باباً ناطقاً عرفه من عرفه، وجهله من جهله ذلك رسول الله ونحن.

وفي حديث آخر مروي عن الإمام الباقر-عليه السلام-:

(كل ما لم يخرج من هذا البيت فهو باطل)[٣].

مناقشة الأحاديث

وقد ناقش في دلالة هذه الطوائف من أخبار الباب، الأستاذ الكبير النائيني تبعاً للشيخ الكبير الأنصاري وغيره بقوله- حسب أجود التقريرات-: الثانية الأخبار الدالة على وجوب أخذ الأحكام منهم، وعدم الاعتناء على الادراكات العقلية. وظاهر هذه الطائفة أنهّ÷ا في مقام الردع عما يفعله أئمة النفاق والكفر- عليهم لعائن الله- من الاستقلال في الفتوى بآرائهم الفاسدة المبنيّة على العمل بالأقيسة والاستحسانات الظنّية من دون الرجوع إلى أئمة الهدى- صلوات الله عليهم- بل ربما كانوا يعارضونهم، وأين ذلك ممّن يعتقد بإمامتهم، ويرجع في مقام الفتوى إلى كلماتهم، والأخبار الصادرة عنهم -صلوات الله عليهم- وربما يتفق له استقلال عقله بحسن شيء أو قبحه. ويستكشف من ذلك آراءهم- صلوات الله عليهم- بطرق الآن لما ثبت عنده من تبعيّة الأحكام للمصالح والمفاسد وعدم كونها جزافاً كما يدّعيها الأشاعرة من دون شعور[٤].

والأسئلة التي تطرح على هذه المناقشة هي التالية:

أولاً: حينما يعترض الأئمة على البعض لأنه يأخذ دينه بالرأي والقياس نعرف أنّ ملاك اعتراضه هو استخدامه الرأي والقياس في الدين. ولذلك فهو يشمل كل من يفعل مثل فعلته..

---

[١] - المصدر/ ص ٩١.

[٢] - المصدر/ ص ٩٢.

[٣] - طريق الوصول إلى المعلول من علته.

[٤] - اجود التقريرات/ ص ٤١.

ولا أعرف معنىً للرأي والقياس، وإلا اعتماد المطالب العقلية، والاستدلالات المنطقية التي كانت قد اشتهرت في عهد الأئمة والتي لا تختلف كثيراً عمّا نجده عند البعض منا اليوم.

ثانياً: إن لسان كثير من الأخبار يأبى عن تخصيصها بغيرها. مثلاً اعتراض الإمام –عليه السلام– على أبان لأنه أخذه القياس. فهل كان أبان من المخالفين؟ كلا.. إنما خلط رأيه وقياسه بأخبار أهل البيت –عليهم السلام– ونحن– ايضاً– إذا خلطناهما كنا مثله.

والإنصاف أنَّ من يطّلع على مجموع احاديث الباب المتواترة لا يشكّ في أنّ كثيراً من مناهجنا الإستدلالية مشمولةٌ للنهي. ويبقى عنده السؤال العريض التالي: إذا ما هو موقع العقل الذي هو حجة الله الباطنة؟ ولماذا أمر الائمة علماء شيعتهم باستنباط الاحكام، وهل يمكن الاستنباط من دون إثارة العقل، والإستفادة من نوره؟ لا بّد أنْ نبحث عن إجابةٍ لهذا السؤال في تضاعيف الآيات والروايات، ويبدو لي أنّ العقل الذي هو نور الله يؤتيه من يشاء من عباده غير الرأي والقياس لأنّه علمٌ وهما جهلٌ، وهو هدى الله وهما من إيحاءات الشياطين، وهو يطابق الشرع وهما عادة يطابقان الهوى. صحيح إنّ النفس الأمّارة بالسوء، وكما يختلف الوجدان عن الأهواء والشهوات، كذلك يختلف العقل عن القياس.

وكان توجّه الأئمة–عليهم السلام– تبصير الإنسان بهذه الحقيقة لينفصل عنده عقله عن هواه، علمه عن جهله، نداء الرحمن في وجدانه عن وساوس الشيطان. وإذا تمّ الفصل عند الإنسان استطاع انْ يعرف الحقائق بعقله وبتأييد نور الوحي وكلمات أهل بت الوحي.

وهكذا نج أنهم –عليهم السلام– يأمرون علماء شيعتهم بالاستنباط من القرآن ويقولون لهم هذا وأمثاله يفُهم من القرآن. بينما ينهون الناس من تفسير القرآن ويقولون عن أحكام الله إنّها أبعدُ شيء عن عقول الرجال..

وليس في ذلك أدنى تناقض، لأنّ مثله مثل الحكيم حين ينهي سائر الناس عن ممارسة مهنة الطب بينما يأمر الدكاترة بذلك.

وقد سبق وأنْ، أشرنا إلى أنّ العقل الإلهي يختلف عن المناهج القياسية التي تسمىَّ بهذا الاسم، والمغالطة إلى قامت بها الفلاسفة وأنصارهم بتسمية مناهجهم بالتعقل هي المسؤولية عنارتباط البعض ومحاولتهم تبرير العمل بها لأنّ الإسلام أمر الناس بالرجوع إلى العقل..

وقد نبّه كثير من الفقهاء إلى ذلك ولا سيما المحدثون منهم كما أشرنا إلى ذلك سلفاً.

القياس عند الإمام علي–عليه السلام–

ونختم حديثنا في هذا الفصل بحديث مفصل مأثور عن سيد الحكماء أمير المؤمنين –عليه السلام– يصف فيه القائلين في الدين بالرأي والقياس، ويحدد لنا منهجاً واحداً لبلوغ أحكام الله وهو الرجوع إلى أئمة الهدى–عليهم السلام–.

دعنا نتلو معاً هذه الخطبة الشريفة التي احتوت على جملة من أصول المعرفة في نهج الإسلام في المعرفة، وبالذات في فقه الشريعة.

نصائح عامة

بعد حمد الله، والصلاة على نبيه، وتحمَّل مسؤولية حديثه أوصى الإمام بالتقوى وبيّن أنها تصوت الإنسان من الهلاك، وقال: (أمّا بعد فذمّتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم) هكذا بيّن أنه مسؤول عن كلامه، وهو يعي هذه المسؤولية لأنّ كلامه يرهن ذمته رهينة لا تنفك عنه حتى يكون كلامه صادقاً وهو زعيم وكفيل بما يقول:

وأضاف: (إنه لا يهيج[١] عن التقوى رّع قوم، ولا يظمأ عنه سنخ أصلٍ، يعني لا زراعة تفسد إذا أحيطت بسور التقوى، ولا تظمأ شجرة استقت من ينبوع التقوى لأنّ التقوى حياة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وبيّن الإمام أهميّة اعتراف الإنسان بواقعه ومعرفة قدر نفسه حتى لا يضعها فوق مرتبتها، ولا يتكلّف علماً لم يؤت أدواته ولا منصباً لا يستحقه وقال: (وإنّ الخير كلّه فيمن عرف قدر نفسه، وكفى بالمرء جهلاً ألاّ يعرف قدره).

ويبدو أنّ كبر النفس وغرورها، وتطلعها إلى مراتب عالية أكبرُ حجابٍ بينها وبين الحقائق. وإن الإنسان لا يبلغ الخير إلاّ بالتواضع لله، ومعرفة قدر نفسه.

خائض عشوات:

ثم يتناول الخطاب القسم الهام من الموضوع حيث بين صفات أدعياء العلم وهم أبغض الخلق عند الله. وسبب ضلالتهم انقطاعهم عن حبل الله. حيث وكلهم الله إلى أنفسهم فانحرفوا عن قصد السبيل، وعشقوا البدع، وغلّفوها بكثرة الصلاة والصيام وأصبحوا فتنةً لكلّ من ابتغى الفتنة من الناس. ولم يهتدوا بسيرة الصالحين من قبلهم. ولا أورثوا سيرةً صالحةً لمن جاء من بعدهم. وهكذا احتملوا اوزار تابعيهم إلى اوزارهم الذاتية.

قال الامام:

(وإنّ ابغض الخالق عند الله رجل وكّله الله إلى نفسه، جائر عن قصد السيل مشغوف[٢] بكلام بدعة).

لماذا يحب البدعة؟ لعله لأنه من أهلها ويرى مصالحه فيها، ولا يرى تحقيق ذاته إلاّ في أجوائها، وأضاف الإمام–عليه السلام–:

(قد لهج فيها بالصوم والصلاة، فهو فتنةٌ لمن افتتن به، ضالّ عن هُدى من كان قبله، مُضِلّ لمن اهتدى به، حمّالُ خطايا غيره، رهينٌ بخطيئته).

هكذا أصبح مثلُ هذا الرجل حلقة في سلسلة الضلال. لأنه ولع بالفتنة وأحب البدعة. وتراه يلملم مفردات الجهل، يبحث عن كل ضلالة وشبهة وفكرة سلبية تدعم خطّةُ المنحرف، كما فعل من قبله الجهال الذين أحاطت بهم ظلمات الجهل وغرته

---

[١] – قال أهل اللغة: هاج الزرع أي يبس واصفر.

[٢] – أي يحب البدع حبا جما.

ظلمات الفتنة، أوليس قد وضع نفسه في تيّار الإنحراف؟ قال الامام: (قد قمشه جهلاً في جهال غشوة، غار بأغباش الفتنة، عمى عن الهدى، قد سمّاه أشباه الناس عالماً، ولم يغن فيه يوماً سالماً)[١]

وهكذا تراه جمع أفكار ضلالة، حتى سمّاه الناس عالماً وأنّى له ذلك! وكما الظمآن الذي اندفع في شرب الماء المالح تراه يزداد تجميعاً للشبهات بلا فائدة له.

(بكّر فاستكثر ممّأ قل منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من آجن، واستكثر من غير طائل، جلس للناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، إن خالف من سبقه، لم يأمن من نقض حكمه من يأتي بعده كفعله بمن كان قبله).

وهكذا كشف الامام –عليه السلام– عن صفةٍ في هذه الطبقة تتمثل في عدم اتّباعهم لنهجٍ معين، لأنّهم يتبعون اهواءهم ويضعون للتيارات التي تضغط عليهم.. ويميلون مع كل ريحٍ عاصف. أما الصفة الثانية فيهي كما يقول الامام:

(وإنْ نزلت به إحدى المهمات هيّأ لها حشواً من رأيه ثم قطع عليه). فهو يتبع رأيه الباطل وكلنه يقطع عليه جزماً لأنّ محوره ذاته وإلهه هواه. (فهو من لبس الشبهات في مثل غزل العنكبوت، لا يدري أصاب أم أخطأ. ولا يرى أنّ من وراء ما بلغ مذهباً، إنْ قاس شيئاً بشيء لم يكذب رأيه، وإنْ أظلم عليه أمير إكتتم به لما يعلم من نفسه من الجهل والنقص الضرورة كي لا يقال إنه لا يعلم. وهكذا تجد هذا الشخص يتكلّف اليقين ولا يقين له. ويدّعي القطع ولا يقطع بشيء. وينكر وجود العلم لجهله المطبق وتكبره عن الحق. ويمضي الحديث في بيان هذه الصفة الشائنة وما يرافقها من أعمال منكرة ويقول: (ثم أقدم بغير علمٍ فهو خائض عشواتٍ، وكّاب شبهاتٍ، خبّاط جهالات[٢]لا يعتذر ممّأ لا يعلم فيسلم، ولا يعض في العلم بضرسٍ قاطع فيغنم).

ثم يحدَّد الامام موقف هذا الشخص من الأحاديث أنّه يتعامل معها باستهانةٍ وجهالة فإذا به يخلطها ببعضها، ولا يتدبّر في معانيها، ويحرّف كلماتها عن مواضعها كما تفعل بالهشيم الرياح الهوج حيث تذورها ذرواً.

وهذكا لا يعتني بها ولا يسلم لها، بل يطيّرها أو يسحقها كما تفعل الريح بالهشيم (يذري الروايات ذرو الريح الهشيم، تبكي منه المواريث وتصرخ منه الدماء، ويستحلّ بقضائه الفرج الحرام، ويحرّم، به الحلال ولا يسلم بإصدار ما عليه ورد، ولا يندم على ما منه فرط)[٣].

٢– الأئمة سفن النجاة:

وفي القسم الثالث من الخطبة يوص الإمام بإتّباع نهج الأئمة لأنّهم سفن النجاة، وحبل الله المتين. ويقول:

(أيّها الناس! عليكم بالطاعة والمعرفة بمن لا تعذرون جهالته، فإنّ العلم الذي هبط به آدم وجميع ما فضلت به النبيّون إلى محمد خاتم النبيين، في عترة محمد، فأين يتُاه بكم؟ ل أين تذهبون، يامن نسخ من أصلاب أصحاب السفينة، فهذه مثلها فيكم

---

[١] – أي لم يتم يوماً واحداً في نور العلم والمعرفة، فكيف يسمى بالعالم.

[٢] – كناية عن عدم اتقانه للعلم.

[٣] – بحار الأنوار/ ج٢– ص ١٠٠ –وللحديث بقية.

فاركبوها، فكما نجا في السفينة من نجا كذلك ينجو في هذه من دخلها أنا رهين بذلك، قسماً حقّاً، وما أنا من المتكلّفين، الويل لمن تخلف ثم الويل لمن تخلّف[١].

خلاصة الافكار

وخلاصة الحديث في هذا الباب:

إنّ مفتاح هذا الباب معرفة العقل حسب منطق الوحي وأهله، وتمييزه عمّا يسمّيه الآخرون عقلاً وما هي إلا مناهج يخلط فيها الرأي بالقياس وبأهواء تُتبع وتقاليد تُرعى.

ومن أعانه الله على نفسه فعرف عقله، وزكاه بنور الوحي، وقمع شهواته، واستعاذ بالله من وساوس الشيطان وهمزاته ولمزاته، واتصل قلبُه عبر نور ولاية الله وولاية أوليائه وعبر ضياء عبودية الله الخالصة اتّصل بالحقائق حتى شاهدها عين اليقين.

إنه يرى –يؤمئذ– حقائق الدين، ويستنبط أحكامه من جوامع العلم التي يرثها من كتاب الله وسنّة النّبي وأهل بيته، وبما أوتي من ضياء الإيمان ونور العقل.

أمّا من لا يزال يعيش في ظلمات الهوى والشهوات وتحيط به غشوات الغفلة والجهالات فعليه انْ يعرف قدر نفسه ويبتعد عن الفتيا فراره من الأسد. وأنّ من مصائبنا أننا بدل انْ نفتش عن مناهج الدين في معرفة الأحكام الالهية ترانا نخوض في غمرات الشك ونتسائل دائماً عن وظيفة الجاهل، كمن لا يعالج بصره حتى يرى الحقائق رأي العين. ويفتش دائماً عن عصى العميان ولو بذلنا هذا الجهد الكبير الذي صرفناه لمعرفة وظائف الشاكّ بذلناه لمعرفة سبيل المعرفة لكفان علماً وهدى

بلى.. إنّ بلوغ حقائق الدين ليس بذلك العمل البسيط.. لأنه بحاجةٍ ال التسليم النفسي لأمر الله حتى يتغلّب الإنسان على الكير والغرور في نفسه ومن رواسبه السابقة ومن أغلال الشهوات وأُصرُ الطغاة.

ولعلّ تأكيد الوحي على التسليم للرسالة والرسول.. والتصديق به، وتعزيرهُ، ونصره وعدم الإحساس بالحرج من قضائه كل ذلك يأتي تمهيداً لتخلص النفس من الرواسب المادية ولكي تستعيد لتلقي الحكمة الإلهية.

ومن الرواسب التي تتخلّص النفس حينئذ منها–بإذن الله–غرور العلم بالمطلق. حيث ساق جهل الإنسان البدائي، وما أفرزه من فلسفةٍ ناشئةٍ في عهد اليونان الأقدمين، ساقه إلى أن يزعم أنّه قادرٌ على الإحاطة علماً بالكليات ابتداءً من خالق السموات حتى طبيعة السموات.. وجوهر الموجودات وطبيعة الإنسان. لذلك تراه تخبّطَ في أكثر الموضوعات خبط عشواء، وتكلّفَ علوماً لم يملك شيئاً من أدواتها، كعلم الفضاء حيث اعتقدوا بأنّ للسموات روحاً وأنّها عقولٌ مجردة وما اشبه وهذا الغرور الناشئ من الجهل جعله يعيش حالة الجهل المركّب.

وكان أثر هذه الحالة في مجال المعارف فجيعاً، إذ تراه يبحث فيها عن نوعٍ من اليقين لا يوجد إلاّ في الرياضيآت، ولإن هذا القين لم يكن يحصل له بالبحث التجريبي والدراسة الميدانية، والسبل العقلائية للمعرفة، كفر بجدوائية هذه الأبواب الطبيعية للمعرفة، وصنع لنفسه هرماً من الأقيسة الرياضيّة لعلّه يقف عليها وينظر من قمتها إلى حقائق الأشياء.

---

[١] – بحار الأنوار/ ج٢– ص١٠٠– وللحديث بقية.

وكان مصيره بالتالي الجهل العميم الذي يقول عنه الإمام علّي–عليه السلام–:

(من ادّعى من العمل غايته، فقد أظهر من الجهل نهايته[١].

ومن هنا ينبغي التخلص من غرور الجهل والإعتراف بحدود النفس في مجال المعرفة، لأنه كما يقول أمير المؤمنين–عليه السلام–:

(غاية العقل الإعتراف بالجهل)[٢].

وكما أن الكمال المطلق لا يوجد في المخلوق، كذلك العلم المطلق حيث لا يعلم الغيب إلاّ الله. حيث يقول ربّنا لرسوله الأكرم: (وقُل ربِّ زِدني علما).

والذين يدّعون العلم المطلق يخلطون بين العلم والجهل، ويلّون السبيل بينما الذين يعرفون قدر أنفسهم يضعون حدّاً واضحاً بين ما يعلمون وما يجهلون.

وعلم مراد الدين منها: هو تزويدنا بفرقانٍ نعرف به الحقّ والباطل، ونميّز بين ضياء العقل ووساوس النفس. ولذلك أمرنا باتّباع الرأي واستخدام القياس. وحذّرنا من القول بغير علمٍ والإفتراء على الله و...

وهكذا هدانا الله بأولي أمرنا إلى سبل السلام فمن سلكها نجا ومن تخلَّف عنها ضلّ وهوى.

كذلك أخبرنا إمام الهدى علّي–عليه السلام– في الخطاب المفصل الذي سبق آنفاً، ولايجوز ا، نزعم بأنّ هذا الخطاب لا يخصّنا، إنّه يشمل كل شخص أتّصف بتلك الصفات السيئة وابرزها الجهل المركب، والاستكبار على الحق.

نحن لا نريد أن ننكر أبداً دور العقل، إنما نريد أن نبصر أنفسنا بالعقل، ونعطيه من ثم الدور الأساس في فهم الشرع وفي تطبيقه. فالعقل والوحي شعاعان لنور واحد.

الباب الثاني:

بحوث في الكتاب والسنة

الفصل الأول عن الكتاب

تمهيد:

١– (فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) [١]بهذه الكلمة الرائعة عبّر قادة الإسلام عن مقام القرآن الذي هو محور الامة، والمصدر الوحيد لتشريعهم وثقافتهم وصبغة حياتهم.

---

[١] – الحياة/ ج١–ص ٦٦.

[٢] – المصدر.

إنه الرسالة التي تهيمن على سائر رسالات الله، وهو حبل الله المتين المتصل بين السماء والأرض.

إنه الثقل الأكبر الذي خلَّفه الرسول في أمته فقال –صلَّى الله عليه وآله–: (إني تارك فيك الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضّلوا أبداً) ولم يختلف المسلمون في عظمة القرآن، وأنه مصدر النور في حياتهم، ولكنهم اختلفوا في منهج الاستفادة منه. فمنهم من حدّد المنهج في بضع أمور هامشية، ومنهم من لم يحدد أساساً منهجاً للتعلم منه. وبين الفريقين المتطرفين يمنة ويساراً مذاهب شتى.

ولإختلاف الناس في هذا الأمر الأساسي، اختلف تعابير أئمة الهدى ابتغاء إصلاح الأفكار المتطرفة.. في هذا الاتجاه أو ذاك.

فإذا ضعف إيمان الناس بالذكر وشغلتهم الدنيا بزينتها، وانتشرت بينهم الثقافات الجاهلية، وظهرت فتن الضلالة، تصدى الأئمة –عليهم السلام– لذلك ببيان مقام القرآن وضرورة العودة إليه..

لنستمع إلى الحديث التالي:

يقول الحارث الأعور: (دخلت على أمير المؤمنين–عليه السلام– فقلت: يا أمير المؤمنين! إنّا إذا كنّا عندك سمعنا الذي نسدّ به ديننا، وإذا خرجنا من عنك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة ولا ندري ما هي؟ قال: أَوَ قَدْ فعلوها؟ قلت: نعم قال: سمعت رسول الله –صلَّى الله عليه وآله– يقول: (أتاني جبرئيل فقال: كتاب الله فيه بيانُ ما قبلكم من خبرٍ، وخبرُ ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من وليه من جبار فعمل بغيره، قصمه الله، ومن التمس الهدى في غيره أضلّه الله. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم لا تزيغه الأهوية ولا تلبسه الألسنة، ولا يخلق على الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، وهو الذي لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا: (إنّا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد) من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن اعتصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم، هو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم الكتاب حميد)[٢] هكذا نرى حين شاعت الفتن وانتشرت الضلالة سارع الإمام أمير المؤمنين –عليه السلام– إلى مقابلتها بالقرآن الذي يعصم الله به عباده من الفتن ويهديهم من بعد الضلالة والتيه!

٢– واختلفت المذاهب وتناقضت الآراء على أصعدةٍ شتى وبعوامل مختلفة في الثقافة، والأدب، في الفقه والتشريع، في السياسة والاقتصاد. ولا، القرآن كان المصدمر التشريعي الوحيد عن أبناء الامة، فإذا كلّ فريق يختار من آيات الذكر ما يتناسب في زعمه ومذهبه بعد تأويلها حسب هواه.. ولوجود آيات متشابهة في القرآن تسمو على فهم أغلب الناس فقد درج أصحاب المذاهب لتأويلها حسب افكارهم..

---

[١] – بحار الأنوار/ ج ٩٢ ص ١٩.

[٢] – آل عمران/ ٧.

ولقد حذر القرآن الحكيم من ذلك وقال: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أُمُّ الكتاب وأُخر متشابهات، فأما الذي في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابهَ منه ابتغاء الفتنةِ وابتغاء تأويلِهِ وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخُون في العلم يقولون آمنا به كُلٌّ من عند ربّنا)[١].

واتباعاً للقرآن جاءت النصوص تترى في التحذير من ذلك وفي بيان المنهج السليم في تفسير المتشابه من آيات الذكر وهو الرجوع إلى أئمة الهدى من أهل البيت وهكذا جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر–عليه السلام–: أنه سأله يزيد ابن معاوية: عن قوله عز وجل: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) قال: يعني تأويل القرآن كله إلا الله والراسخون في العلم فرسول الله أفضل الراسخين، قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله منزلاً عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله، فقال الذين لا يعلمون: ما نقول إذا لم نعلم تأويله؟ فأجابهم الله: (يقولون آمنا به كل من عند ربّنا) والقرآن له خاص وعام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، فالراسخون في العلم يعلمونه).

٣– واشتدت حاجة المسلمين إلى معرفة أحكام الحوادث المستجدة لتطوّر الحياة فنشأت مجاميع من المتفقهين في الدين الذين أخذوا يفسرون آيات القرآن بغير علم ودون أن يميزّوا الناسخ من المنسوخ، والعام من الخاص، والفريضة من المندوب،والحرام من المكروه، فعلموا بالقياس واستعملوا الرأي ونبذوا كتاب الله وسّنة رسوله وهدى أوصيائه وراء ظهورهم فجائت تحذر من أمثال هؤلاء بشدة. والحديث التالي نموذج منها:

روي عن الإمام الصادق–عليه السلام– أنّ الله تبارك وتعالى بعث محمداً فختم به الأنبياء فلا نبَّي بعده، وأنزل عليه كتابً فختم به الكتب فلا كتابَ بعده، أحلّ فيه حلالاً وحرَّم فيه حراما، وحلاله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فيه شرعكم وخبر من قبلكم وبعدكم، وجعله النبي–صلَّى الله عليه وآله–علماً باقياً في اوصيائه فتركهم الناس وهم الشهداء على كل زمان، وعدلوا عنهم ثم قتلوهم، واتّبعوا غيرهم وأخلصوا لهم الطاعة، حتى عاندوا من أظهر ولاية ولاة الأمر وطلب علومهم، قال الله سبحانه (فنسوا حظّاً ممّأ ذكروا به) ولا تزال تطلع على خائنةٍ منهم، وذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض واحتجوا بالخاص وهم يقدرون أنه العام، واحتجّوا بأول الآية وتركوا السبب في تأويلها، ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام والى ما يختمه ولم يعرفوا موارده ومصادره، إذ لم يأخذوه عن العالم فضلّوا واضلّوا.

وأعلموا –رحمكم الله–أنه من لم يعرف من كتاب الله الناسخ من المنسوخ، والخاص من العام، والمحكم من المتشابه، والرخص من العزائم، المكي والمدني، وأسباب التزيل والمبهم من القرآن ن ألفاظه المنقطعة والمؤلفة وما فيه من علم القضاء والقدر، والتقديم والتأخير، والمبين والعميق، والظاهر والباطن، والابتداء من الانتهاء، والسؤال والجواب، والقطع والوصل، والمستثنى منه والجار فيه، والصفة لما قبل ممّا يدل على بعد، والمجمل منه والمفصل، وعزائمه ورخصه، ومواضع فرائه وأحكامه ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحون، والموصول من الألفاظ، والمحمول على ا قبله وعلى ما بعده، فليس بعالم بالقرآن، ولا

[١] – بحار الأنوار/ ج٢ ص ٩٢.

هو من أهله، ومتى ما ادّعى معرفة هذه الأقسام مدّعٍ بغير دليلٍ فهو كاذب مرتاب، مفترٍ على الله الكذب ورسوله ومأواه جهنم وبس المصير[١].

٤- وفريق رابع أخذوا العلم من مصادره وزكوا أنفسهم من محب الرئاسة واتباع الهوى، وسلموا لله ولرسوله ولأولي الأمر من أوصيائه-عليه وعليهم صلوات الله- حتى زهر مصباح الهدى في أنفسهم، وأصبحوا من أهل الذكر وفتح الله عقولهم بكثرة نظرهم في علمه، وهؤلاء أودع الله قلوبهم علمه وعلم أولياه، وجعلهم ورثة أنبيائه وحجج الله بعد الأئمة المعصومين، وهم بعض فقهاء الشيعة من أصحاب الأئمة.

هؤلاء عرفوا ما ينبغي معرفته ليصبحوا أخلاً للفتوى واستنباط الأحكام من الوحي فأمرهم أئمة الهدى بأنْ يفهموا من القرآن أحكام الدين. وليك نزداد وعياً بهذه البصائر التي ذكرناها آنفاً نقرأ معاً نصوص الوحي فيما يتّصل بالاستنباط من القرآن عبر مجاميع متواصلة:

١- القرآن هدىً ونور:

(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً)[٢].

(هذا بصائرُ من ربّكم وهدىً ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون)[٣].

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبينَّ لكم كثيراً مما كنتم تُخفون من الكتاب ويعفُو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين)[٤].

بهذه الكلمات المضيئة هدانا الرب إلى أنَّ كتاب ربّنا برهانٌ ونورٌ مبينٌ، وأنَّه هدىً ورحمةٌ وكتابٌ مبينٌ. ولا ريب أنّ ذلك يعني إثارة العقل للإطلاع على الكتاب، والإستزادة من معارفه. وحينما يتوجّه الخطاب إلى الناس كافة أو إلى المؤمنين جميعاً أو إلى أهل الكتاب فإنهم مدعوّون إلى الإنتفع بالقرآن من دون حجاب، وهل النور بحاجة إلى ما يضيئة ويدل عليه؟ أو البيان بحاجة إلى الشرح؟.

وقد أشارت الأحاديث المأثور عن النبي وأهل بيته -عليه وعليهم السلام- إلى ذلك.

فقد روى الإمام الصادق عن النبي- صلَّى الله عليه وآله-: (القرآن هدى من الضلالة، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة)[٥].

(إنّ هذا القرآن هو النور المبين، والحبل المتين، والعروة الوثقى، والدرجة العليا، والشفاء الأشفى)[٦].

---

[١] - تفسير الصافي/ ج ١-ص ٣٨-٣٩.

[٢] - النساء/ ١٧٤.

[٣] - الأعراف/ ٢٠٣.

[٤] - المائدة/ ١٥.

[٥] - عن تفسير العياشي/ ج ١-ص ٥.

[٦] - عن بحار الأنوار/ ج ٩٢- ص ٣١.

وروي عن فاطمة الزهراء–عليها السلام–قولها: (لله فيكم عهد قدمه، وبرهان متجلية ظواهره، مديم للبرية استماعه، وقائد إلى الرضوان اتباعه، ومؤد إلى النجاة أشياعه)[١]. وروي عن الإمام الرضا–عليه السلام– أنّ÷ قال: (كلام الله لا تتجاوزوه، ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلوُّا)[٢].

وهكذا يجب انْ نستضيء بهاذ النور ونعتصم بهذا الحبل، ونجلي قلوبنا بنوره.. ولا يجوز هجر كتاب ربّنا، وندّعي أنه متعالٍ عن أفهامنا.

ويهدينا إلى ذات الحقيقة نصوص التدبّر التي تأمرنا بالتأمل في كتاب ربّنا واستنباط حقائقه.

٢– القرآن كتاب تدبر:

قال ربّنا سبحانه:

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[٣].

(كتاب أنزلناه اليك مباركٌ ليدَّبَّروا آياته وليتذكّر أُولوا الألبابِ)[٤].

(أفلم يدبّوا القوم أم جاءكم ما لم يأت آباءهم الأولين)[٥].

(أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[٦].

هكذا ذكر التدبر كهدف للكتاب، وقد جاء في الحديث عن الإمام زين العابدين –عليه السلام: (آيات القرآن خزائن العلم فكلّما فتحت خزانه فينبغي لك أن تنظر فيها)[٧].

وعن الإمام الصادق –عليه السلام–من دعائه قبل أن يقرأ القرآن: (ولا تجعل قراءتي قراءةً لا تدبر فيها، بل أجعلني أتدبر آياته وأحكامه أخذاً بشرائع دينك، ولا تجعل نظري فيه غفلةً، ولا قراءتي هذرا إنك انت الرؤوف الرحيم)[٨].

عن الإمام الصادق–عليه السلام–أيضاً: (لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه، ولكنهم لا يبصرون)[٩].

وهكذا وصانا قادتنا بالتزوّد من علم القرآن المتوفر في خزائنه، والنظر إلى نور الله المتجلّي في آياته.

والقرآن يذكرنا بأنه تبيان لك شيء مما يرغّبنا في المزيد من الحث فيه والتدبّر في كلماته.

٣– القرآن تبيان كل شيء:

قال ربّنا سبحانه:

---

[١] – عن علل الشرائع.

[٢] – البحار/ ج ٩٢– ص ٣٦١.

[٣] – سورة محمد/ ٢٤.

[٤] – ص/ ٢٩.

[٥] – المؤمنون/ ٦٨.

[٦] – النسا/ ٨٢.

[٧] – بحار الأنورا/ ج ٩٢– ص ٣١٦.

[٨] – بحار الأنوار/ ج ١٦–ص ٢٥٨.

[٩] – بحار الأنوار/ ج ٩٨– ص ٥.

(ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء)[١].

(ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتابٍ مبين)[٢].

(ما فرّطنا في الكتاب من شيء)[٣].

(ما كان حديثً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء)[٤].

وري عن الإمام الصادق- عليه السلام-: (إن الله لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة، إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله، وجعل لكل شيء حدّاً وجعل عليه دليلاً يدل عليه)[٥].

ومعلوم أن بيان حقائق الدين في الكتاب المبين قد يكون بصورة تفصيلية، وقد يكون ببيان الأصول العامة ومناهج الاستفادة منها!

وروي عن الإمام الباقر-عليه السلام-أنه قلا لأصحابه: (إذا حدثتكم بشيء فسألوني أين هو من كتاب الله تعالى. ثم قال في بعض حديثه: إن رسول الله نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال، فقيل له: يابن رسول الله: أين هذا من كتاب الله؟ قال: إن الله تعالى يقول: (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) وقال: (لا تأتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً) وقال: (لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم)[٦].

وعن الإمام الصادق-عليه السلام- أنه قال: (ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله لكن لا يبلغه عقول الرجال)[٧].

وروى عطاء بن السائب عن الإمام الباقر-عليه السلام- عن النبي-صلّى الله عليه وآله- قال: (أُعطيت خمساً لم يُعطهن نبي.. (إلى أنْ قال) وأُعطين جوامع الكلم، قال عطاء فقلت: ما جوامع الكلم؟ قال: القرآن)[٨].

وعن أمير المؤمنين-عليه السلام- أنه قال: (وسلوني عن القرآن، فإنّ في القرآن بيانَ كلِّ شيء وفيه علم الأولين والآخرين، وإنّ القرآن لم يدع لقائلٍ مقالةَ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم).

وروي عن الإمام الباقر-عليه السلام- أنه قال: (إن الله تعالى لم يدمع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلاّ أنزله في كتابه لرسوله -عليه السلام-)[٩].

وقد أشار أئمة أهل البيت -عليهم السلام- أنّ علمهم كان من القرآن.

---

[١] - المصدر ج ١٦-ص ٢٥٨.

[٢] - النحل/ ٨٩.

[٣] - يونس/ ٦١.

[٤] - يوسف/ ١١١.

[٥] - بحار الأنوار/ ج ٩٢- ٢ ٨١.

[٦] - تفسير الصافي/ ج ١-ص ٥٠.

[٧] - تفسير الصافي/ ج ١- ص ٥٠.

[٨] - المصدر.

[٩] - بحار الأنوار/ ج ٩٢ ص ١٤.

٤- علم الهداة من القرآن:

جاء في حديثٍ مأثور عن الإمام علي-عليه السلام- انه سُئل عندكم من رسول الله شيء من الوحي سوى القرآن؟ قلا: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلاّ أن يعطى عبداً فهماً في كتابه)[١].

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام-: (إن الله تعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن إلاّ وقد أنزله الله فيه)[٢].

٥- المصدر الوحيد للمعارف:

ونهى القرآن عن اتّباع غيره والتماس الهدى ممّا سواه فقال سبحانه: (فإمَّا ياتينكم مني هدى فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى)[٣].

(ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواءِ السبيل)[٤].

وجاء في الأثر المروي عن النبي -صلَّى الله عيه وآله-(من آثر (القرآن) على ما سواه هداه الله ومن طلب الهدى في غيره أضله الله) وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: (كلام الله لا تتجاوزوه، ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلوا)[٥].

وهذا يهدينا إلى ضرورة الاستنباط من القرآن لمعرفة حقائق الدين.

٦- الاستنباط من القرآن:

قال ربّنا سبحانه:

(ولو ردُّوه إلى الرسول والى أولي الأمر لعلمه الذين يستنبطونه منهم)[٦].

وحينما سأل الإمام أحد أصحابه عن مسألة شرعية أجابه الإمام بالقول: (هذا وأمثاله يفهم من القرآن لقول الله: (ما جعل الله عليكم في الدين من حرجٍ).

وروي عن الرسول ا- صلَّى الله عليه وآله-أنه قال: (من أراد علم الأولين والآخرين، فليقرأ القرآن)[٧].

وروي عن الإمام علّي -عليه السلام- أنه قال عن القرآن: (جعله الله رِيّاً لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء)[٨].

٧- العمل بالقرآن:

ولأنّ القرآن هدىً ونورٌ، ولا،ه آيات بيّنات محكماتٌ فلا بدّ من العمل فيما اهتدى إليه الإنسان واستبان له من أحكامه، قال ربنّا سبحانه: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)[١].

---

[١] - تفسير الصافي/ ج ١-ص ٥٠.

[٢] - تفسير الصافي/ ج ١-ص ٣١

[٣] - طه/ ١٢٣.

[٤] - المائدة/ ٧٧.

[٥] - الحياة/ ج ٢/ ص ١٦٩ نقلاً عن بحار الانوار ج ٩٢- ص ٣١.

[٦] - المصدر/ ص ١٧٠ عن تفسير العياشي ج ١-ص ٣.

[٧] - عن كنز العمال.

[٨] - نهج البلاغة/ خ ١٩٨ ص ٣١٦.

وجاء في وصية الإمام أمير المؤمنين –عليه السلام– الأخيرة: (الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم)[٢].

وعن الإمام الصادق–عليه السلام– أنه قال: (عليكم بالقرآن فما ودتم آية نجا بها ن كان قبلكم فأعملوا به وما وجدتموه هلك من كان قبلكم فاجتنبوه)[٣].

وروي عن الإمام الحسن–عليه السلام–أنه قال: قيل لرسول الله: إن أمتك ستفتتن، فسئل ما المخرج من ذلك، فقال: كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، من ابتغى العم في غيره أضلّه الله)[٤].

٨– القرآن ميزان:

ومن أبرز مصاديق العمل بالقرآن إتخاذه ميزاناً لمعرفة الحق والباطل، وأهل الحق وأهل الباطل، والصحيح والخطأ..

قال الله سبحانه: (وأنزل الفرقان) [٥](نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)[٦].

وجاء على لسان الإمام السجَّاد–عليه السلام–: وفرقاناً فرقت به بين حلالك وحرامك)[٧].

وقال عنه–عليه السلام–: (وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه، ونور هدىً لا يطفأ عن الشاهدين برهانه).

وعن الإمام الباقر–عليه السلام–في وصية لجابر بن يزيد الجعفي: (واعلم بأنك لا تكون لنا وليّاً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله، زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه، فاثبت وأبشر، فانه لا يضرّك ما قيل فيك)[٨].

وكذلك أمر النبي وأهل بيته–صلوات الله عليه وعليهم–بأن يعرض كلامهم على القرآن.. فقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق–عليه السلام– قال: (كل شيء مردود إلى كتاب الله والسنّة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف).

(ما أتاكم عنا من حديث لا يصادقه كتاب الله فهو باطل).

عن أبن أبي عمير، عن الهشامين جميعاً وغيرهما قال: خطب النبي–صلَّى الله عليه وآله– بمنى فقال: (أيها الناس ما جاءكم عني فوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف القرآن فلم أقله)[٩].

عن ابي يعفور قال: سألت ابا عبد الله الصادق– عليه السلام– عن اختلاف الحديث يرويه من يثق به، فقال: (إذا ورد عليكم حديث فوجتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله–صلَّى الله عليه وآله–، وإلاّ فالذي جاءكم به أَوْلى)[١٠].

---

[١] – المائدة/ ٦٨.

[٢] – نهج البلاغة/كتاب ٤٧ص ٤٢٢.

[٣] – تفسير العياشي/ ج ١–ص٥.

[٤] – بحار الأنوار/ ج ٩٢– ص ٢٧.

[٥] – آل عمران/ ٤.

[٦] – الفرقان/ ١.

[٧] – الصحيفة السجادية/ ص ٢٦٤ (دعاء /٤٢).

[٨] – تحف العقول/ ٢٠٦.

[٩] – بحار/ ج ٢– ص ٢٤٣.

[١٠] – بحار/ ج٢– ص ٢٣٣.

عن الحسن بن الجهم، عن العبد الصالح–عليه السلام– قال: (إذا كان جاءت الحديثان المختلفان فِقسهما على كتاب الله على أحاديثنا فإنْ أشبههما فهو حقّ وإنْ لم يشبهها فهو باطل)[١].

وعن قرب الإسناد في حديث من كتاب علي –صلوات الله عليه– قال رسول الله –صلَّى الله عليه وآله– سيُكذَب علَّي كما كذب على من قبلي فما جاءكم من حديث وافق كتاب الله فهو حديثي، وما خالف كتاب الله فليس من حديثي.

وعن أيوب بن الحر قال سمعت أبا عبد الله– صلوات الله عليه–يقول: (كل شيء مردود إلى الكتاب والسنّة وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف)[٢] عن العياش عن أيوب بن الحر قال سمعت ابا عبد الله –صلوات الله عليه– يقول: (كل شيء مردود إلى الكتاب والسنّة وكل حديث لا يوفق القرآن فهو زخرف)[٣].

عن ابي عبد الله –صلوات الله عليه– قال: قال رسول الله –صلَّى الله عليه وآله–ك(على كل حقٌ حقيقة وعلى كل صواب نور، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه)[٤].

عن أبي عبد الله –صلوات الله عليه– قلا: (الوقوف عند الشبه خيرٌ من الاقتحام في الهلكة، إنّ على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نور، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه).

عن العياش مسندا عن جعفر عن أبيه عن علي –صلوات الله عليه–أنه قال في حديث: (فما وافق كتاب الله فخذوا به، وإلاّ فقفوا عنده، ثم ردوه إلينا حتى يستبين لكم).

وفيه عن أبي جعفر– صلوات الله عليه–في رواية شريفة بعد كلام له في الوصية لبعض الشيعة قال: (انظروا أمرنا وما جاءكم عنا فإنْ وجدتموه للقرآن موفقاً فخذوا به، وإنْ لم تجدوه موفقاً فرّدوه، وإن اشتبه الأمر عليكم فقفوا وردّوه إلينا حتى نشرح لكم من ذلك ما شرح لنا)[٥].

وعن هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله–صلوات الله عليه– يقول: (لا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا تعالى وسّنة نبيّنا محمد–صلَّى الله عليه وآله– فإنّا إذا حدثنا قلنا: قال الله عزّ وجل وقال رسول الله –صلّى الله عليه وآله–)[٦].

وعن ثامن الأئمة–صلوات الله عليه– في حديث: (فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن فإّا إنْ حدّثنا حديثاً بموافقة القرآن وموافقة السنة أنّا عن الله وعن رسوله نحدّث، ولا نقول فلان وفلان فيتناقض كلامنا، إنّ كلام آخرنا مثلُ كلام أولنا، وكلامَ أولنا مصداقُ كلامِ آخرنا، وإذا أتاكم من يحدّثكم بخلاف ذلك فردّوه عليه وقولوا أنت أعلم وما جئت به، فإنّ مع كل قول منّا حقيقة وعليه نور، لما لا حقيقة معه ولا نور عليه، فذلك قول الشيطان)[٧].

---

[١] – بحار/ ج ٢ –ص ٢٤٤.
[٢] – الوسائل.
[٣] – المستدرك.
[٤] – الوسائل.
[٥] – الوسائل.
[٦] – البحار.
[٧] – البحار.

وما أجاب أو الحسن عي بن محمد العسكري في رسالته إلى أهل الأهواز إلى أنْ قال–صلوات الله عليه–: (فإذا شهد الكتاب بتصديق خبرٍ وتحقيقه وأنكرته طائفة من الأمة وعارضته بحديث من هذه الأحاديث المزورة، صارت بإنكارها ودفعها الكتاب كفاراً ضُلاَّلاً، واصبح خبر ما عرف تحقيقه في الكتاب مثل الخبر المجمع عليه من رسول الله –صلَّى الله عليه وآله– حيث قال: إني مستخلف فيكم خليفتين: كتاب الله وعترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضّلوا بعدي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علّي الحوض. واللفظة الأخرى عنه في هذا المعنى بعينه قوله– صلَّى الله عليه وآله– إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علّي الحوض ما ا، تمسّكتم بهما لن تضلّوا فلما وجدنا شواهد هذا الحديث نصّاً في كتاب الله مثل قوله: (إنما وليُّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون). ثم اتفقت روايات العامة في ذلك لأمير المؤمنين أنّه تصدّق بخاتمهِ وهو راكع. فشكر الله ذلك له وأنزل الآية. ثم وجدنا رسول الله – صلَّى الله عليه وآله– نادى بأنه من أصحابه إلى أن قال: فعلمنا أنّ الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار وتحقيق هذه الشواهد فلزم الأمة الإقرار بها، إذ كانت هذه الأخبار وافقت القرآن ووافق القرآن هذه الاخبار، فلما وجدنا ذلك موافقاً لكتاب الله ووجدنا كتاب الله موافقاً لهذه الأخبار وعليها دليلاً.. الخ)[١].

وعن محمد بن مسلم قال: قال أبو عبد الله –صلوات الله عليه–: (يا محمد ما جاءك في رواية من برٍّ أو فاجر فوافق القرآن فخذ به، وما جاءك في رواية من برٍّ أو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به)[٢].

عن أبي يعفور قال: سألت أبا عبد الله– صلوات الله عليه– عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به قال: (إذا ورد عليكم حديث فوجتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله–صلَّى الله عليه وآله– فالذي جاءكم به هو أُولى به)[٣].

وهذه الطائفة الكبيرة من الروايات تهدينا إلى أمرين:

الأول: أنّ الأصل في معارف الدين هو القرآن الذي يجب انْ نعيد إليه كلّ شبهة، وكل اختلاف، وكلّ حكم فرعي. فإن في القرآن ميزاناً وفرقاناً يبين الحق والباطل.

الثاني: أنه يجوز بل يجب ردّ علم الفقه إلى جوامع العلم في القرآن وتفسير الواحد بالآخر.. فجوامع العلم (الأصول العامة) تفسرّها المصاديق الفرعية تماماً كما أن الأمثلة توضح الحقائق الكلية.

الفقهاء والاستنباط من القرآن

---

[١] – المصدر عن الإحتجاج.

[٢] – المصدر.

[٣] – الوسائل وهذه الأخبار نقلناها من كتاب ابواب الهدى (مخطوط) للعلامة الميرزا الأصفهاني/ ص ١١٩–

في حديثه المفصل عن العمل بظواهر الكتاب يرّد الأستاذ الأكبر الشيخ الأنصاري على البعض الذين يزعمون أنّ مجال الاستفادة من آيات القرآن في الأحكام محدود لأن آياته الكريمة التي وردت في الأحكام الشرعية مفسِّرة بالأحاديث وواضحة المعاني.. فيقول:

ولعه قصر نظره إلى الآيات الواردة في العبادات فإن أغلبها من قبيل ما ذكره وإلاّ فالإطلاقات الواردة في المعاملات مما يتمسّك بها في الفروع الغير المنصوصة أو المنصوصة بالنصوص المتكافئة كثيرة جدّاً مثل: أوفوا بالعقود، وأحلّ الله البيع، وتجارة عن تراضٍ، فرهان مقبوضة، ولا تؤتوا السفهاء أموالكم، ولا تقربوا مال اليتيم، وأحلّ لكم ما وراء ذلكم، وإنْ جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا، ولو لا نفر من كلّ فرقة، فاسألوا أهل الذكر، وعبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، وما على المحسنين من سبيل. وغير ذلك مما لا يحصى. بل وفي العبادات أيضاً كثيرة مثل قوله: إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام. وآيات التيمم، والوضوء، والغسل، وهذه العمومات وإن ورد فيها أخبار في الجملة إلاّ أنّه ليس كل فرع مما يتمسّك فيه بالآية ورد فيه خبر سليم عن المكافئ فلاحظ وتتبع[١].

ويناقش الشيخ أيضاً الذين استدلُّوا ببعض الاحاديث الناهية عن العمل بالكتاب لعامة الناس.. وعن التفسير بالرأي. ويعتقد أن هذه النصوص إنما وضعت شروطاً للإستفادة من القرآن مثل الإلمام بالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، ومراجعة أهل الذكر في تشابهات القرآن، ويضيف قائلاً:

(مع معارضة الأخبار المذكورة بأكثر منها، مما يدملّ على جواز التمسك بظاهر القرآن مثل خبر الثقلين المشهور بين الفريقين وغيرها، مما يدل على الأمر بالتمسّك بالقرآن والعمل بما فيه وعرض الأخبار المتعارضة، بل ومطلق الأخبار عليه، وردّ الشروط المخالفة للكتاب في أبواب العقود والأخبار الدالة قولاً وفعلاً وتقريراً على جواز التمسك بالكتاب مثل قوله –عليه السلام– لما قال زرارة: من أين علمت أنّ المسح ببعض الرأس؟ فقال: لمكان الباء فعرّفه –عليه السلام–مورد استفادة الحكم بظاهر الكتاب. وقول الصادق (عليه السلام): في مقام نهي الدوانقي عن قبول خبر النمام أنه فاسق، وقال الله تعال: (إنْ جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيَّنوا) الآية، وقوله لابنه إسماعيل: إنّ الله عز وجل يقول: (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) فإذا شهد عنك المؤمنون فصدقهم. وقوله–عليه السلام– لمن أطال الجلوس في بيت الخلاء لإستماع الغناء اعتذاراً بأنه لم يكن شيئاً أتاه برجله: أما سمعت قول الله عز وجل : (إن السَّمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عن مسؤولاً)، وقوله–عليه السلام– في تحليل العبد للمطلقة ثلاثاً أنه زوج قال الله عز وجل: (حتى تنكح زوجاً غيره) وفي عدم تحليلها بالعقد المنقطع انه تعالى قال: فإن طلقها فلا جناح عليهما) أو تقريره –عليه السلام– التمسك بقوله تعال: (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) وأنه نسخ بقوله تعالى: (ولا تنكحوا المشركات) وقوله–عليه السلام– في رواية عبد الأعلى في حكم من عثر فوقع ظفره فجعل على أسبعه مرارة أنّ ها وشبهه يعرف من كتاب الله (ما جعل عليكم في الدين من حرجٍ) ثم قال: امسح عليه، فأحال–عليه السلام– معرفة حكم المسح على أسبعه المغطى بالمرارة إلى الكتاب مومئاً إلى أن هذا لا يحتاج إلى السؤال لوجوده في ظاهر

[١] – فوائد الأصول/ ص ٤٠.

القرآن. ولا يخفى أن استفادة الحكم المذكور من ظاهر الآية الشريفة مما لا يظهر إلاّ للمتأمل المدقق نظراً إلى أنّ، الآية الشريفة إنّما تدلّ على نفي وجوبِ الحرج، أعني المسح على نفس الأصبع، فيدور الأمر في بادئ النظر بين سقوط المسح رأساً، وبين بقائه مع سقوط قيد مباشرة الماسح للمسوح. فهو بظاهره لا يدّل على ما حكم به الإمام –عليه السلام– لكن يعلم عند التأمل إن الموجب للحرج هو اعتبار المباشرة في المسح فهو ساقط دون أصل المسح، فيصير نفي الحرج دليلاً على سقوط اعتبار المباشرة

في المسح، فيمسح على الأصبع المغطى. فإذا أحال الإمام –عليه السلام– استفادة مثل هذا الحكم إلى الكتاب، فكيف يحتاج نفي وجوب الغسل أو الوضوء عند الحرج الشديد المستفاد من ظاهر الآية المذكورة أو غير ذلك من الأحكام التي يعرفها كل عارف باللسان من ظاهر القرآن إلى ورود التفسير بذلك من أهل البيت –عليهم السلام–.

ومن ذلك ما ورد من أنّ المصلّي أربعاً في السفر أن قرت عليه آية القصر وجب عليه الإعادة وإلاّ فلا، وفي بعض الروايات قرأت عليه وفسّرت له والظاهر ولو بحكم صالة الإطلاق في باقي الروايات أنّ المراد بقوله تعال: (لا جناح عليكم أن تقصروا) بيان الترخيص في أصل تشريع القصر وكونه مبيّناً على التخفيف، فلا ينافي تعين القصر، على المسافر وعدم صحة الإتمام منه. ومثل هذه المخالفة للظاهر يحتاج إلى التفسير بلا شبهة. وقد ذكر زرارة ومحمد ابن مسلم للإمام –عليه السلام– أن الله تعالى قال: (لا جناح)، ولم يقل: افعلوا، فأجاب –عليه السلام– بأنه من قبيل قوله تعال: (فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما). وهذا أيضاً يدل على تقرير الإمام لهما في التعرض لاستفادة الأحكام من الكتاب والدخل والتصرف في ظواهره. ومن ذلك استشهاد الإمام –عليه السلام–بآيات كثيرة مثل الاستشهاد لحلِّية بعض النسوان بقوله تعالى: (وأحلّ لكم ما وراء ذلك) وفي عدم جواز طلاق العبد بقوله: (عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء) ومن ذلك الاستشهادة لحليّة بعض الحيوانات بقوله تعال: (قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً) الآية إلى غير ذلك مما لا يحصى. ويقول المفسر المعروف الفيض الكاشاني في معرض حديثه عن العمل بالقرآن: (إنّ من زعم أنّ لا معنى للقرآن إلاّ ما يترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدّ نفسه، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومقامه، بل القرآن والأخبار والأثار تدلّ على أنّ في معاني القرآن لأرباب الفهم متّسعاً بالغاً ومجالاً رحباً. قال الله عز وجل: (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أنقفالها) وقال سبحانه: (ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) وقال: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، وقال: (لعلمهُ الذين يستنبطونه منهم).

وقال النبي –صلَّى الله لعيه وآله– (إذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله تعالى فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط) وكيف يمكن العرض ولا يفهم به شيء؟ وقال–صلَّى الله عليه وآله– : (القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه).

وقال أمير المؤمنين–عليه السلام–: (إلاَّ أنْ يؤتي الله عبداً فهما في القرآن). وقال –عليه السلام–: (منْ فهم القرآن فسر جمل العلم).

أشار به إلى أّ، القرآن مشير إلى مجامع العلوم كلها، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار. فالصواب أن يقال: من أخلص الانقياد لله ولرسوله– صلَّى الله عليه وآله–ولأهل البيت –عليهم السلام– وأخذ علمه منهم، وتتّبع آثارهم، وأطلّع على جملةٍ من أسرارهم، بحيث حصل له الرسوخ في العلم، والطمأنينة في المعرفة، وانفتح عينا قلبه، وهجم به العلم على حقائق الامور وباشر روح اليقين، واستلان ما استوعره المترفون، وأنس بما استوحش منه الجاهليون، وصحب الدنيا ببدنٍ روحه معلقه بالمحل الأعلى، فله أن يستفيد من القرآن بعض غرائبه، ويستنبط منه نبذاً من عجائبه، وليس ذلك من كرم الله تعالى بغريب، ولا من جوده بعجيب. فليست السعادة وقفاً على قومٍ دون آخرون، وقد عدوا–عليهم السلام– جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم كما قالوا: سلمان منا أهل البيت –عليهم السلام– فمن هذه صفتُه لا يبعد دخوله في الراسخين في العلم، العالمين بالتأويل، بل في قولهم: نحن الراسخون في العلم، كما دريت في المقدمة السابقة، فلا بدّ من تنزيل التفسير المنهي عنه على أحد وجهين:

الأول: أن يكون للمفسَّر في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه هواه ليحتجّ على تصحيح غرضه ومدَّعاه ولو لم يكن ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن على تصحيح بدعته، هو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك، ولكن يلبس به على خصمه، وتارة يكون مع الجهل. ولكن اذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه، ويترجّح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسر القرآن برأيه أي رأيه هو الذي حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجّح عنده ذلك الوجه.

وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدلّ عليه بما يعلم أنه ما اريد به ذلك. كمن يدعو إلى الإستغفار فيستدلّ عليه بقوله–عليه السلام–: (تسحّروا فإن السحور بركة). ويوهم أنّ المراد به التسّحر بالذكر وهو يعلم أنّ به الأكل، وكالذي يدعوا إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول: قال الله تعال: (اذهب إلى فرعون إنه طغى) ويشير إلى قلبه ويومئ إلى أنه المراد بفرعون. وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع منه.

وقد يستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغيير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنّه غير مراد به. فهذه الفنون احد وجهي المنع من التفسير بالرأي.

الوجه الثاني :أنْ يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيها من الالفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيها من الاقتصار والحذف والإضمار والتقديم والتاخير، وفيما يتعلّق بالناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والرخص والعزائم، والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك من وجوه الآيات. فمن لم يحكم ظاهر التفسير ومعرفة

وجوه الآيات المفتقرة إلى السماع وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر الرأي. فالنقل والسماع لابد منه في ظاهر التفسير أولاً أن يتقي مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتّسع التفهّم والاستنباط، فإنّ ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لابد منها للفهم. وما لا بدّ فيه من سماع فنون كثيرة: منها ما كان مجملاً لا ينبئ ظاهرة عن المراد به مفصلاً مثل قوله سبحانه: (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وآتوا حقه يوم حصاده) فانه يحتاج فيه إلى بيان النبي -صلَّى الله عليه وآله- بوحي من الله سبحانه فيبينّ تفصيل أعيان الصلوات وأعداد الركعات ومقادير النُصب في الزكاة وما تجب فيه من الأموال وما لا تجب، وأمثال ذلك كثيرة[١].

الفصل الثاني:

عن السنة

تمهيد:

منذ بزوغٍ فجر الرسالة وإلى الآن كانت السنّة الشريفة مصدراً أساسيًّاً للتشريع وينبوعاً مباركاً للمعارف القرآنية، وقد قال ربنا سبحانه عن الرسول -صلَّى الله عليه وآله- : (يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً)[٢].

أَوَليس السراج المنير يشعّ ضياءً في كل أُفق؟.

وقال ربّنا سبحانه: (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[٣].

وبهذا اقترنت السنّة بالكتاب سبيلاً للمعرفة، وحجةً من الله في الأحكام الشرعية.

ثم اقترنت سنّة رسول الله-صلَّى الله عليه وآله- بما روى عنه أهل بيته- عليهم السلام- من العلم حينما قال النبي-صلَّى الله عليه وآله- : إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي).

وبما استخلف عليا- عليه السلام- من بعده فقال له: (أنت مني بمنزله هارون من موسى).

وأدّبه كما أدّبه وأوكل إليه أمر تأديب أمته، وحمَّله علمه هداه حتى قال الإمام -عليه السلام- : (علّمني رسول الله ألفف باب من العلم، ينفتح لي من كل باب ألف باب). وتوارث أئمة أهل البيت هذا النور كابراً عن كابر حتى قالوا:

---

[١] - تفسير الصافي/ ج ١ ص ٣٢-٣٤.

[٢] - الأحزاب/ ٤٥- ٤٦.

[٣] - الحشر/ ٧.

(لو كنا نحدث الناس أو حدثناهم برأينا لكنّا من الهالكين، وكلنّا نحدّثهم بما لدينا من رسول الله -صلّى الله عليه وآله- نتوارثها كابر من كابر، نكنزها كما ينكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم)[١].

وهكذا تكاملت حلقات السلسلة الذهبية للسنّة الشريفة، التي فسرّت القرآن وأدّبت الامة، ونشرت معارف الدين، وأصدرت فتاوى في الحوادث الواقعة معتمدة على نور الله المبين

ولكن عظمة السنّة وشرفها وجورها الحاسم في حياة الأمة لم تَّحُل دون اختلافهم فيها. فما هي السنة؟ ولماذا اختلفت رواياتها؟ ولماذا تناسخت؟ وهل كلها أحكام تستمر، ام فيها ما تختص بزمامها؟ وكيف اذا تراءى خلافها مع ظاهره الكتاب؟

ولعلّ أهم دور اشتغل به فقهاء الإسلام من كل الذاهب والفرق هو البحث حول السنّة، وانتخاب الروايات التي فيها، وإخراجها ومطلقها إلى مقيّدها، واختيار المفضَّل منها لدى التعارض.

وبحثنا القادم يصلح مفتاحاً لحل بعض المشكلات في السنّة، ونلخصه في نقاط:

ألف- الناس صنفان فقهاء في الدين، علماء بالله، واشياع أتباع يقلدون في أمور دينهم العلماء.

باء- والسنّة قسمان: فمنها ما يهدف إلى تعليم الدين للفقهاء، وتحميلهم معارفه، التي تتمثل في جوامع العلم، وأصول الشريعة، ومنها ما يهدف إلى تحديد حكم الفرد وواجبه العملي.. وهي الفتاوى الفرعية!

أما بالنسبة إلى التعاليم فلا يجوز الخوض فيها الا للفقيه لانه المعين بها ولانها تعتمد على القرينة المنفصلة ولانها لا تفهم الا بعد ان تتكامل.

واما الفتاوى الفرعية فاذا كانت المكلف اليوم هي ذات ظروف السائل ذلك اليوم جاز له العمل بها لأنها احكام جزئية ومعرفة الظروف خاصة الفقيه الذي يعتمد على جوامع العلم في تحديدها.

جيم- وأحكام الدين نوعان: فرض وتفويض أو قل: مؤقَّتات وموسَّعات، فالفريضة كتاب موقوت، بينما النافلة حكم موسع، وما فُوِّض من أمر الدين إلى بعدهم إنما يختصّ بالموسّعات لا الموقّتات.

دال- من الموسّعات ما يتغيّر حكمه باختلاف الناس، وحالاتهم وزمانهم ومكانهم وأكثرها يتّصل بمعايش الناس، وسياستهم، واقتصادهم، واعراف اجتماعهم.. أو تتعلّق بتربيتهم وتزكية نفوسهم من الأوامر الولائية القيادية.

هاء- فإذا تعلّق الحكم بالموسّعات، فقد يجوز للفقيه أن يتجاوز النصوص التي جاءت في الفروع، ويعتمد على الأصول العامة.. وهذا الفرض يشمل الحقائق التالية.

١- ما يتغّير بالظروف كالأعراف والمقاييس.

٢-ما يتّصل بالمعاملات من تحديد وتقييد وحكم مع احتمال أنْ تكون النصوص من قبيل الفتاوى في الموسّعات.. وتحديد الموضوع للشخص حسب أحواله.

٣- ما يتّصل بالأوامر القيادية التي كانت للنبي والأئمة -عليهم السلام- الولاية الإلهية فيها.

---

[١] - البصائر.

٤- ما يتعلّق بالفتاوى في غير ذلك.

بعد هذا الموجز دعنا نخوض في تفاصيل البنود الانفة والتعرف على ادلتها من الكتاب والسنة على اننا نؤخر البحث عن البند الأخير إلى الجزء الثاني انشاء الله لنفصل به القول تفصيلاً كافيا.

الف- السنة بين العلماء والمعلمين:

نعني بالمحكمات-في هذا افصل- جوامع العمل وأصوله وقواعده العامة.. بينما نعني بالمفصّلات الفروع المتشعبة منها. وقد جرت سيرة العقلاء على تقسيم العلوم على قواعدها العامة وفروعها الخاصة.

فأنت حينما تراجع الطبيب في مرضك لا يعنيه كما لا يعنيك علم الطب وقواعده ومعارفه إلا بقدر حاجتك. أما إذا كنت طالباً في كليه الطبّ فإن ما تسعى لتعمّمه هو تلك القواعد العامة.

وهكذا الذي يسعى إلى فقيه ليعرف حكم صلاته في السفر، أو صومه عند المرض، لا يبحث عن أصول الشريعة وقواعدها الفقهية، إنما يستفتيه في أمره، بينما طالب الفقه لا يكتفي بذلك ابداً.

وقد أشارت النصوص إلى هذا التقسيم في مناسبات شتّى، ونذكر هنا بعضاً منها:

آ- عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر-عليه السلام-: (إن رسول الله أنال في الناس وأنال وأنال، وإنّا -اهل البيت- معاقل العلم، وابواب الحكم، وضياء الأمر)[١].

ب- عن هشام بن سالم قال: قلت لأبي عبد الله الصادق- عليه السلام- جعلت فداك عن العامة من أحاديث الرسول شيء يصح؟ قال: فقال: (نعم، إنّ رسول الله أنال في الناس وأنال وأنال، وعندنا معاقل العلم، وفصل ما بين الناس)[٢].

ج- وعن محمد بن مسلم قال، قال أبو جعفر الباقر -عليه السلام-: (إن رسول الله أنال في الناس وأنال وا،ال، وإنّأ اهل البت عرى الامر وأواخيه وضياؤه)[٣].

وعلى هذه السيرة العقلائية المستمرة جرت سنّة المسلمين. فمنذ العصور الأولى كان بينهم فقهاء علماء، وآخرون يتعلّمون منهم ويسألونهم معالم دينهم.

يقول في ذلك العلامة الميرزا محمد مهدي الأصفهاني:

(وعلى هذا تنقسم علوم الدين إلى أصول الدين وما به قوامه وأصوله فروعه وأحكامه، والحجج على هذه هي العقول)[٤].

وهذا ينقسم الناس إلى فقهاء في الشريعة، علماء الدين، والى متعلمين منهم مستفتين إياّهم. قال ربنا سبحانه: (وما كان الناس لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين)[١].

---

[١] - معاقل العلم، حصونه وملاجئه، ولعل مراد الإمام -عليه السلام- انهم ميزان احاديث الرسول لمعرفة معانيها، ورد متشابهاتها إلى محكماتها، ومعرفة الصادق منها المفتري عليه منها وما اشبه بحار الأنوار/ ج ٢-ص ٢١٤.

[٢] - المصدر.

[٣] - المصدر.

[٤] - هناك رسالتان للمؤلف منقولتان عنه عبر الفقاهاء الذين استفادوا منه، احمديهما: رسالة في المعاريض (موجودة في مكتبة الحرم الرضوي بمشهد المشرفة تحت رقم (٨٤٧٣) والأخرى ملحق كتاب معارف القرآن في أصول الفقه اخذتها منه بعض الفقهاء.. ونحن نعتمد في هذا الفصل كثيراً على هاتين الرسالتين.

وقال سبحانه(ولو ردوه إلى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)[٢].

مما يهدينا إلى أنّ الفقهاء هم بعض الأمة وأنّ المستنبطين من القرآن، هم طائفة من المسلمين. وليس كل المسلمين.

وقال سبحانه: (فسألوا أهل الذر إنْ كنتم لا تعلمون بالبيّنات والزبر)[٣].

ونستوحي من ذلك إنّ أهل الذكر هم فريق خاص من ابناء الأمة.

وقال أمير المؤمنين–عليه السلام– في وصيته المعروفة لكميل: (يا كميل، الناس ثلاث: عالم ربّاني، ومتعلّم عل سبيل نجاة، وهمج رعاع).

باء– السنة بين الاصول والفروع.

وفيما يلي نذكر طائفة من النصوص تهدينا ال هذه الحقيقة.

١– نقرأ في نصوص متظافرة أن النبَي -صلَّى الله عليه وآله– علّم الإمام أمير المؤمنين -عليه السلام– ألف باب من العلم ينفتح له من كل باب ألف باب.

وفي بعضها أنه علّم باباً من العلم ينفتح له منه ألف باب، ومن كل باب ألف باب.

لو تدبرنا في هذه النصوص أفلا تهدينا إلى انّ، منهج الدين ومنهج تعليمه من قبل الرسول–صلَّى الله عليه وآله– التدرّج من الأصول العامة إلى الفروع الجزئية. فأصلة التوحيد، وحينما يعي القلب حقائق التوحيد يشعّ نورها في سائر حقول المعرفة، وفي كل حقل يستضاء في معرفة مفرداته. لنتأمّل هذه النصوص معاً:

عن ابن نباتة عن أمير المؤمنين– صلوات الله عليه - قال: (يا أيها الناس إن رسول الله–صلَّى الله عليه وآله– أسّر إليّ ألف حديث في كل حديث ألف باب، لكل باب ألف مفتاح)[٤].

وجاء في حديث آخر: إن رسول الهل عّم عليا باباً يفت له ألف باب، كل باب يفتح له ألف باب)[٥].

وفي حديث ثالث: عن الإمام الصادق–عليه السلام– قال سالم الراوي قال: قلت لأبي عبد الله: بلغنا ان رسول الله علم علياً ألف باب يفتح كل باب ألف باب. ألف باب)[٦].

وحين نتساءل عن طبيعة هذه الأبواب، وكيف ينفتح من كل واحد الف باب للإمام، نحد الإجابة عن أهل البيت -عليهم السلام– حيث أشاروا الى بعض الأصول العامة وقالوا إنها من الأبواب التي ينفتح من كل باب منها ألف باب.

---

[١] – التوبة/ ١٢٢.

[٢] – النساء/ ٨٣.

[٣] – النحل/ ٤٣–٤٤.

[٤] – عن الخصال ج ٢ –ص ١٧٦، ٢٢ موسوعة بحار الانوار الجزء ٤٠ ص ١٣١ عن الإمام الصادق عليه السلام.

[٥] – البصائر.

[٦] – المصدر ص ١٣٠.

حيث روي عن موسى بن بكير قال: قلت لأب عبد الله (الإمام الصادق) -عليه السالم-: (الرجل يغمى عليه اليوم أو اليومين أو أكثر من ذلك، كم صلواته؟ فقال: الا اخبركم بما ينتظم هذا وأشباهه؟ فقال: كلما غلب الله عليه من أمر (فإنه) أعذر لعبده).

وزاد فيه غيره:

قال أبو عبد الله -عليه السلام- : وهذا من الأبواب التي يفتح كل باب منها ألف باب.

هكذا نعرف أنّ هناك أصولاً عامة في افقه كان الأئمة -عليهم السلام- يعلمونها فقهاء شيعتهم ويشيرون لهم بأنه بابٌ لأحكام فرعية تترتب عليها! وفعلاً كان الفقهاء يستنبطون من هذه الأصول العامة الفتاوى الفرعية، كما نقرأ ذلك في الحديث التالي: عن الحسين بن محمد السباري قال: سأل ابن أبي ليلى (وكان من فقهاء المسلمين) محمد بن مسلم (وكان فقيهاً عظيماً من فقهاء الشيعة) فقال:

(أي شيء تروون عن أبي جعفر (الإمام الباقر صلوات اله عليه) في المرأة لا يكون على رُكَبِها شعر، أيكون ذلك عيباً؟.

فقلا له محمد بن مسلم: أما هذا نصاً فلا أعرفه، ولكن حدثني أبو جعفر -صلوات الله عليه- عن آبائه عليهم السلام عن النبي -صلَّى الله عليه وآله- أنه قال: (كلما كان في أصل الخلقة فزار أو نقص فهو عيب).

فقال له ابن أبي ليلى: حسبك، ثم رجع.

ألا ترى كيف علّم الإمام الباقر تلميذه محمد بن مسلم اصلاً عاماً لاستنباط الحكم الفرعي، فلما سأله فقيه آخر القى ذلك الأصل إليه فستفاد منه وعاد أدراجه. وعندما كان واحد من فقهاء الشيعة، يسأل الإمام عن حكم يأمره الإمام باستنباط ذلك من القرآن. فقد روي عن عبد الاعلى قال قلت لأبي عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام): عثرت فانقطع ظفري فجعلت على أصبعي مرارة فكيف اصنع بالوضوء؟ قال:

(يعرف هذا واشباهه من كتاب الله، قال الله عز وجل: (ما جعل عليكم في الدين من حرج) امسح على المرارة[١].

ومعروف أن استنباط هذا الحكم من تلك الآية لا يتسنى لكل الناس بل لأولي الفقه والذر والاستنباط فحسب!

ويبدو أنّ الرواية التالية توضح -بصورة كافية- هذه الحقيقة: وهي أن الإسلام أصول عامة، وفروع خاصة، وأنّ هناك فقهاء حفظوا الدين حين احتملوا علوم أهل البيت -عليهم السلام- ووفروا لمن بعدهم فرصة الاستنباط.

فقد روي عن سليمان بن خالد الأقطع: قال سمعت أبا عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) يقول: (ما أحد أحيانا ذكرنا وأحاديث أبي إلا زرارة وأبو بصير المرادي ومحمد بن مسلم ويريد بن معوية، ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا. هؤلاء حفاظ الدين، أمناء على حلاله وحرامه، هم السابقون إلينا في الدنيا والأخرة)[٢]

فماذا يعني قوله: ما كان احد يستنبط هذ١؟ .

---

[١] – الكافي: التهذيب.

[٢] – المستدرك.

أَوَليس يعني أنّ قوام الاستنباط من تلك الأحاديث التي حمَّلها الإمام الباقر كبار فقهاء شيعته؟.

ولقد أشار الأئمة– عليهم السلام– إلى بعض تلك الأصول وأمروا الفقهاء للإستنباط منها، مثلاً في دم الحيض جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق–عليه السلام– أَنَّ رسول الله –صلَّى الله عليه وآله– سنّ في الحيض ثلاث سنن بيّن كل مشكل لمن سمعها وفهمها حتى لا يدع لأحد مقالاً فيها بارأي. أما أحد السنن[١]..الحديث.

وروي عن زرارة وأبي بصير عن الصادقين –عليهما السلام–: (إن علينا أنْ نلقي إليكم الأصول، وعليكم أن تفرعوا)[٢].

وربما أرجعوا بعض الناس إلى الفقهاء من أصحابهم. فعندما يسأل اسماعيل بن الفضل الهاشمي عن أبي عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) عن المتعة؟ قال له الإمام: (ألقِ إلى مالك بن جريح فأسأله عنها، فإن عنده منها علماً (يقول إسماعي) فلقيته فأمليّ شيئاً كثيراً في استحلالها. وكان فيما يروي فيها ابن جريح أنه ليسل لها وقت ولا عدد. قال (اسماعيل) فأتيت بالكتاب أبا عبد الله –صلوات الله عليه– فقال: صدق. وأقرّ به)[٣].

ولماذا أمر الأئمة –عليهم السلام– بالإهتمام بالدراية وليس مجرد رواية الحديث؟ أليس لا، المطلوب التفقّه في الدين واستنباط الأحكام من خلال الروايات بمعرفة النظائر والأشباه، والعام والخاص. والمطلق والمقيد، وأمثالها!

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق–عليه السلام–: (اعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يحسنون من رواياتهم عنا، فإنّا لا نعدّ الفقيه منهم فقهياً حتى يكون محدّثاً، فقيل له: أوَيَكُون المؤمن محدَّثاً؟ قال: يكون مفهَّماً (و) المفهّم محدّث..).[٤]

ويبدو من هذا الحديث: أن دراية الروايات ومعرفتها معرفة حسنة هي التي تجعل الفقيه فقيهاً ، وقد ترفه إلى مستوى المحدث.

وجاء في حديث شريف عن الإمام الصادق–عليه السلام– : (حيث تدريه خير من الف حديث ترويه، ولا يكون الرجل منكم فقيهاً حتى يعرف معاريض كلامنا، وإن الكلمة منّأ لتنصرف على سبعين وجعاً لنا من جميعها المخرج)[٥].

وقد كان حديث النبي –صلّى الله عليه وآله– –والأئمة عليهم السلام– بليغاً يراعي الظروف المختلفة، لذلك كانوا يحدِّثون الناس على قدر عقولهم وبمقدار وعيهم وحاجتهم ولذلك تعددت وجوه حديثهم وكانت على الزيادة والنقصان.. وإنما يقدر العالم الفقيه على استنباط الأحكام منها، لأنه عراف بوجوه الكلام، وما فيه من لحن القوم أو التوسعة.

والنصوص التالية تشير إلى هذه الحقيقة: في الرواية المأثورة عن الإمام الصادق– عليه السلام– : (أنتم أفقه الناس، إذا عرفتم معاني كلامنا، إنّ الكلمة لتنصرف على وجوه، فلو ساء إنسان لصرف كلامه كيف شاء ولا يكذب)[٦].

وعنه –عليه السلام–: (إنّا لنتكلم بالكلمة لها سبعون وجهاً لنا من كلها المخرج)[٧].

---

[١] – الوسائل.

[٢] – عوالي اللئالي.

[٣] – الوسائل.

[٤] – عن رجال الكشي.

[٥] – بحار الانوار.

[٦] – المصدر.

[٧] – المصدر.

وعنه–عليه السلام–: (خبر تدريه خير من ألف ترويه، وإنّ لكل حقيقةٍ حقّاً، ولكن صوابٍ نوراً، ثم قال: إنّا واللهل، لا نعدّ الرجل من شيعتنا فقهياً حتى يلحن هل فيعرف اللحن)[١].

والدراية هي التي تجعل الفقيه عارفاً بلحن القول، ومعاريض الكلام، وما فيه من تورية–وهل أنه خاص بظرف معين أو شخص، إنه هو عام للجميع، وإن الحكم من المحدّدات أو المسّعات. وما إلى ذلك من وجوه يتعارف العقلاء عليها في محاوراتهم العامة.

ومن خلال الروايات، نعرف أنّ حكم بيان الحديث على الوجوه المختلفة متعددة، وأبرزها هي التالية:

(أولاً :) تربية الناس على الالتزام بالمستحبات حتى يتعودوا عليها، ثم التوسعة على الضعيف والمريض ومن أشبه مما نتعرض له فيما يأتي ان شاء الله.

(ثانيا:) إخفاء الحكم عن غير أهله إمّا لعدم أهليته للحكم أو للتقية، ويظهر ذلك من النصوص التالية:

(عن أبي عبيدة الحذاء قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: يا أبا عبيدة إياك وأصحاب الخصومات، والكذابين علينا فإنهم تركوا ما أمروا بعلمه وتكلفوا علم السماء. يا أبا عبيدة خالقوا الناس بأخلاقهم، وزايلوهم بأعمالهم إنا لا نعد الرجل فينا عقلا حتى يعرف لحن القول، ثم قرأ هذه الآية (ولتعرفنهم في لحن القول)[٢].

من هذا الحديث يتبين، أن مزايلة الناس بأعمالهم تقتضي التكتم عنهم والتظاهر باتباع أخلاقهم وأعرافهم بينما يتمسك المؤمن بما فرض الله عليه من مر الحق.. وهذا يستدعي عدم بيان كل الحقائق أمامهم، وإنما الحديث بالكناية والتورية والمعاريض.

وفي حديث آخر: عن أبي بصير عن الإمام الباقر–عليه السلام–: قال: قيل له وأنا عنده، إن سالم بن ابي حصة يروي عنك انك تتكلم على سبعين وجها لك منها المخرج، فقال: (ما يريد سالم مني؟ أيريد ان أجيء بالملائكة؟ فوالله ما جاء به النبيون. ولقد قال إبراهيم: بل فعله كبيرهم وما فعله كبيرهم وما كذب. ولقد قال يوسف أيها العير إنكم لسارقون، والله ما كانوا سرقوا وما كذب)[٣].

وهكذا يتبين ان منهج الأنبياء في الحديث هو الذي اتبعه الأئمة وهو العدول عن مقتضى السياق إلى كلام آخر، أو الحديث بما يوهم غير ظاهره عند العامة ويعرف الخواص وجه الكلام.

يقول العلامة الأصفهاني تعقيبا بعد نقل هذه الرواية: ظاهر للفقيه، أن الإمام أجاب بتورية الأنبياء، والإتكال على القرائن الخفية عن العامة الظاهرة لمن يفهم. فإن قوله– عليه السلام–بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون، بعد قوله: أأنت

---

[١] – المصدر.

[٢] – المصدر.

[٣] – المصدر.

فعلت هذا بآلهتنا (توريـة)[١] ولو قال: ما فعلته كما هو مقتضى المقام كان كذبا، وكذلك يوسف من أبيه–كما في الرواية– وكذلك قول إبراهيم إني سقيم ففي تفسير القمي إنما ويعرف خصوصية المقام[٢].

وهكذا ينبغي التدبر في النصوص ودرايتها لمعرفة القرائن الخفية التي اعتدوا عليها لسبب أو آخر حتى لا يظهر كل مرادهم للعامة ويظهر لمن أوتي معارض كلامهم ومعرفة لحن القول فيه.

جيم: السنة بين الفرض والتفويض

من الشريعة ما جاءت كتابا مفروضا، كوقت الجمعة حين تزول الشمس، ومنها التي فوضت الناس، أنبياء وأئمة أو من دونهم، وهي الموسعات التي تتدرج كما يلي: منها التي فوضت إلى النبي فكانت سنته الطاهرة.

أو فوضت إلى أئمة المسلمين الهداة.. بصفتهم العارفين بالقرآن والسنة، أو بصفتهم ولاة أمر المسلمين حقا.

أو فوضت إلى المكلف نفسه.

أما سنة النبي –صلى الله عليه وآله– فهي التي أمره الله به أو أدبه عليه، ثم فوض إليه أمره، فمنها واجب وحرام ومنها ندب أو أعافة، والأمثلة كثيرة مثلا ركعات الفائض قسمان: منها فرض الله وهي الركعتان الاوليان من كل صلاة (وهي أمر الله للرسول وان لم ينزل في الكتاب نصا)، بينما الركعة الثالثة في صلاة المغرب، والركعتان الاخريان في غيرها من سنة الرسول الواجبة. وكذلك الرجم للمحصنة من السنة الواجبة، وحرمة الكلب والمسكرات، من المنهيات المحرمة بسنة الرسول، أما المندوبات والمكروهات فهي كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وهذه السنن هي التي فوض الله أمرها إلى الرسول، ثم قال ربنا سبحانه: (ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[٣].

وجاء في الحديث:

(إن الله أدب رسوله فأحسن تأديبه ثم فوض إليه دينه).

وكذلك الأئمة –عليهم السلام– قد فوض الله إليهم دينه. جاء في الزيارة الجامعة: (... وأمره إليكم)[٤].

وقال الإمام أمير المؤمنين –عليه السلام–:

(إن رسول الله –صلى الله عليه وآله–أدبه الله وهو –عليه السلام– أدبني، وأنا أؤدب المؤمنين، وأورث الآداب المكرمين)[٥].

والسؤال: أي نوع من التفويض هذا الذي كان للأئمة.. هل هو تفويض دين الله تشريعا كما كان للرسول، أم انه مجرد تفويض ولائي هدفه تفسير الدين وتطبق بنوده على المؤمنين حسب الظروف المختلفة؟ يبدو من الحديث الثاني أن التفويض من نوع التأديب، بينما الحديث الأول يوحي بالشمول. إلا أنه لا يتناسب وإكمال الدين على عهد الرسول حيث يقول ربنا سبحانه:

---

[١] – لعل معناه: ان الإلهة ان كانت تنطق هي التي فعلت فأسألوهم ان كانوا ينطقون.

[٢] – رسالة المعاريض/ ص ٥ (مخطوط).

[٣] – الحشر/ ٧.

[٤] – ضياء الصالحين/ الزيارة الجامعة.

[٥] – تحف العقول/ ص ١١٩.

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا)[١] وما نقل عن أهل البيت –عليهم السلام– أن كل علم يخرج منهم إلى الناس فإنما هو من عند الرسول.

وهكذا يمكن أن نقول: إن الله سبحانه هو الذي يشرع لعباده وحده ولا شريك له حيث يقول سبحانه:

(أم لهم شركاء شرعوا لهم م الدين ما لم يأذن به الله)[٢].

(فجعلتم منه حلالا وحراما الله أذن لكم أم على الله تفترون)[٣].

ولقد أذن ربنا لنبيه–صلى الله عليه وآله– الذي أدبه فأحسن تأديبه أن يسن من الشريعة ما ينفع الأمة لحكمة بالغة هو أعلم بها.. وربما ليرفعه عن الناس مقاما محمودا. ويؤتيه بعض جزائه في الدنيا بالذكر الحسن، والصلاة الدائمة.

والسنة النبوية لن تخرج من إطار القرآن الكريم.. ولن تخالف آياته أبدا..وإنما هي وحي م عند الله تصدق القرآن وتفسره. إلا أنها تطبيقات خارجية لأحكام الله العامة أمرنا الله بإتباعها، وقال:

(ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[٤].

وكلن الأمر يختلف في أوصيائه، إذ إن التحديد الذي حددوا به عمومات الشريعة قسمان:

(ألف–) تفسير للكتاب والسنة، كما لو فسر حديث شريف معنى الصعيد أو حدود المرفق والكعب في قوله سبحانه: (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين).

ومثل هذا التفسير ملزم لنا لانهم أعرف بالكتاب الذي نزل إلى بيوتهم، وكانوا هم المخاطبين به. ولعل الأحاديث التالية جاءت في هذا السياق: (فليذهب الحكم يمينا وشمالا فوالله لا يوجد العلم إلا من أهل بيت نزل عليهم جبرئيل)[٥].

(شرقا وغربا لن تجدا عملا صحيحا إلا شيئا يخرج من عندنا أهل البيت)[٦].

(أما إنه ليس عند أحد علم ولا حق ولا فتيا إلا شيء أخذ من علي بن أبي طالب –عليه السلام– وعنا أهل البيت، وما من قضاء يقضى به بحق وصواب إلا بدء ذلك ومفتاحه وسببه وعلمه من علي –عليه السلام–ومنا)[٧].

(باء:) ما كان يتصل بالمتغيرات في حياة كل إمام، وهي كثيرة أبرزها: ما يتصل بتأديب الناس وتزكيتهم، أو يتعلق بإدارة شؤون الشيعة، أو يرتبط بالفتوى في الحوادث الواقعة، وأغلب هذا القسم يرجع أمره إلى الفقهاء من شيعتهم. فهم أعرف بمعاريض كلامهم وما فيه من لحن القول، أو تورية، أو مجاز، أو تقييد، أو اختصاص بزمانهم، باعتبارهم ولاة الأمر، ولذلك يجوز لهم الرجوع إلى جوامع العلم التي صدرت مهم دون الفتاوى أو الأوامر الخاصة..

---

[١] – المائدة/٣.

[٢] – الشورى/ ٢١.

[٣] – يونس/ ٥٩.

[٤] – الحشر/٧.

[٥] – بحار الانوار/ ج ٢ ص ٩١.

[٦] – المصدر ص ٩٢.

[٧] – المصدر/ ٩٥.

دال: السنة بين الثوابت والمتغيرات

دعنا نتساءل عن الحكمة في النسخ الذي يقول عنه ربنا سبحانه: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)[١].

ولماذا الاحاديث نسخت بعضها كما تناسخت الآيات؟.

الجواب: ان الحكمة الظاهرة للنسخ أمور:

الأول: ان الحكم كان محدودا بزمان بزوله وهدفه التمهيد لحكم آخر.. مثل قبلة الصلاة التي كانت إلى القدس فلما اقتضت الحكمة تغيرت إلى المسجد الحرام.

الثاني: إن الهدف من الحكم كان امرا طارئا، فلما انقضى عاد الحكم الأولي، مثل الصدقة التي أمر المسلمون باعطائها عند مناجاة رسول الله، ثم نسخ الأمر وقال ربنا سبحانه: (فذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فاقيموا الصلاة)[٢].

الثالث: تربية الناس وتأديبهم وأخذهم بالأشد حتى يستعدوا لما هو أخف.. مثل ان يكون الواحد م المسلمين يواجه عشرة م الكفار ثم خفف بواحد يواجه اثنين وقال سبحانه:

(إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين)[٣].

وكذلك الرفث في ليلة الصيام حيث كان حراما فحلله الله وقال سبحانه:

(أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم.. علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن)[٤].

ولعل حكم الصدقة بين يدي النجوى من هذا القبيل أيضا.

وحتى شدة الشرائع السابقة بالنسبة إلى الشريعة الإسلامية السمحاء قد تكون بحكمة.

تربية الناس على الأصعب لضمان استمرارهم في الأسهل.

ومن هنا قد يوجب ولي الأمر حكما راجحا في الأصل، حتى إذا تعود عليه الناس، رخص فيه مثل قيام الليل حيث عرف المسلمون من خلال آية المزمل: (قم الليل إلا قليلا) إنه واجب مفروض، ثم جاءت الرخصة.

والنصوص التي تدعو إلى المستحبات ظاهرة في الفرض، وعادة لا نفهم الرخصة من متنها، وإنما من دليل خارج عنها، مثل نص، أو إجماع، وذلك أشد بعثا وأبلغ اثرا. ولعل عدم بيان المائز بين أوامر العزيمة والرخصة لعامة الناس كان يهدف إنهاضهم للعمل به وحثهم على القيام بكل التعاليم واجبها ومندوبها.

أجل.. غن الأئمة –عليهم السلام– بينوا للفقهاء خاصة.. الفرق بين العزيمة والرخصة التي بينوها بقرائن خارجية!.

---

[١] – البقرة/١٠٦.

[٢] – المجادلة/ ١٣.

[٣] – الانفال/ ٦٥.

[٤] – البقرة/ ١٨٧.

والحديث التالي قد يدل على هذه الحقيقة بين حقائق أخرى نستوضحها منه: عن كتاب عيون أخبار الرضا–عليه السلام مسندا عن أحمد بن الحسن الميثمي أنه سال الرضا–عليه السلام– يوما–وقد اجتمع عنده قوم من اصحابه وكانوا يتنازعون في حديثين مختلفين عن رسول الله–صلى الله عليه وآله– في الشيء الواحد؟ فقال عليه السلام:

(إن الله عزوجل حرم حراما، وأحل حلالا، وفرض فرائض، فما جاء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما احل (احله) الله أو رفع فريضة في كتاب الله رسمها بين قائم بلا ناسخ نسخ ذلك، فذلك ما لا يسع الأخذ به، لان رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن ليحرم ما احل الله، ولا ليحلل ما حرم الله، وال ليغير فرائض الله وأحكامه، كان في ذلك كله متبعا مسلما مؤديا عن الله، وذلك قول الله عزوجل: (ان تبع الا ما يوحى الي) فكان عليه السلام متبعا لله مؤديا عن الله ما أمر به من تبليغ الرسالة، قلت: فانه يرد عنكم الحديث في الشيء عن رسول الله صلى الله عليه وآله، مما ليس في الكتاب وهو في السنة، ثم يرد خلافه؟ فقال: وكذلك قد نهى رسول الله عن أشياء نهي حرام فوافق في ذلك نهيه نهي الله تعالى: وأمر بأشياء فصار ذلك الأمر واجبا لازما تعدل فرائض الله تعالى فوافق في ذلك أمره أمر الله تعالى. فما جاء في النهي عن رسول الله صلى الله عليه وآله نهي حرام ثم جاء خلافه لم يسع استعمال ذلك. وكذلك فيما أمر به لانه ما نرخص فيما لم يرخص فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا نأمر بخلاف ما أمر رسول اله صلى الله عليه وآله، الا لعلة خوف ضرورة. وأما ان نستحل ما حرم رسول الله صلى الله عليه وآله، أو نحرم ما استحله رسول اله صلى اله عليه وآله فلا يكون ذلك ابدا لأنا تابعون لرسول الله صلى الله عليه وآله، مسلمون له كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله تابعا لأمر ربه عزوجل، مسلما له، وقال الله تعلى: (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وان رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن أشياء ليس نهي حرام (بل نهى) إعافة وكراهة، وأمر بأشياء ليس أمر فرض ولا واجب، بل أمر فضل ورجحان في الدين، ثم رخص في ذلك للمعلول وغير المعلول. فما كان عن رسول الله صلى الله عليه وآله نهي عن إعافة أو أمر فضل فذلك الذي يسع استعمال الرخص فيه إذا ورد عليكم عنا فيه الخبران باتفاق من يرويه في النهي ولا ينكره. وكان الخبران صحيحين معروفين بإتفاق الناقلة فيما يجب الأخذ بأحدهما، أو بهما جميعا، أو بايهما شئت واحببت موسع ذلك لك، لكن من باب التسليم لرسول الله صلى اله عليه وآله، والرد عليه والينا (وعلنيا) كان تارك ذلك من باب، وان العناد والإنكار وترك التسليم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شركا بالله العظيم. فما ورد عليكم من خبرين مختلفين فاعرضوهما على كتاب الله، فما كان في الكتاب موجودا حلالا أو حراما فاتبعوا ما وافق كتاب الله، وما لم يكن في الكتاب، فاعرضوا على سنن النبي صلى الله عليه وآله، فما كان في السنة موجودا منهيا عنه نهي حرام مأمورا به عن رسول الله أمر الزام فاتبعوا ما وافق نهي رسول الله صلى الله عليه وآله وأمره، وما كان في السنة نهي إعافة أو كراهية ثم كان الخبر الآخر خلافه، فذلك رخصة فيما عافه رسول الله وصلى الله عليه وآله وكرهه ولم يحرمه، فذلك الذي يسع الأخذ بهما جميعا، أو بأيهما شئت وسعك الاختيار من باب التسليم والإتباع والرد إلى رسول الله

صلى الله عليه وآله. وما لم تجدوه في شيء من هذه الوجوه فردوا الينا علمه فنحن أولى بذلك ولا تقولوا فيه بآرائكم، وعليكم بالكف والتثبيت والوقوف وانتم مطالبون باحثون حتى يأتيكم البيان من عندنا)[١].

وهاذ الحديث يعتبر أصلا في هذا الباب بما يحتويه من مضامين عالية موافقة لسائر النصوص الشرعية ومقبولة عند العقل ومرتكزات المتشرعين! نستوحي منه عدة بصائر فيما وراء تلك البصائر التي سبقت في سائر النصوص:

(أولا:) إن من الموسعات ما جاء فيه للمعلول وغير المعلول، الترخيص فيه هذا الترخيص يأتي عادة بأمر قانوني!.

(ثانيا:) إن من الموساعات ما كان فيه تخيير بين أمرين يجوز الأخذ بهما أو باحدهما من باب التسليم!.

(ثالثا:) إن أوامر الأئمة–عليهم السلام– لن تخالف أوامر الكتاب والسن، وإنما توافقهما كان أن تعاليم النبي –صلى الله عليه وآله– لن تخالف الكتاب، إنما هي تفسير له وتبيان وشرح، ولعل المخالفة وعدم المخالفة أعم من وجداننا ان نجده في الكتاب أو لا نجده لأننا لسنا في مستوى النبي –صلى الله عليه وآله– والأئمة من أهل بيته–صلوات الله عليهم– في فهم الكتاب واستنباط الأحكام منه. وبالتأكيد لم يترك كتاب ربنا سبحانه شيئا نحتاجه إلا وقد بينه لما لم نجده فيه خصوصا أو عموما يجده النبي وأهل بيته والراسخون في العلم من شيعتهم، فلا يجوز لنا رد شيء من كلامهم بمجرد عدم معرفتنا بموضعه وشاهده من كتاب الله. بلى، لو عرفنا بمخالفته لنس من الكتاب تركناه جانبا.

ولنضرب مثلا: لقد حدد الكتاب ما حرم علينا وقال سبحانه: (قل لا اجد في ما اوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير..)[٢] وقد علمنا أن السنة حرمت الحشرات وهي غيرة موجودة في هذه الآية نصا، فهل يجوز ان نرد هذا التحريم رأسا؟ كلا لأن هناك آية قرآنية تقول: (ويحرم عليهم الخبائث)[٣] ونحن نحتمل ان تكون الحشرات من مصاديق الخبائث.. فتشملها الآية بعمومها.

خلاصة الحديث:

إن على الفقيه الذي هذب نفسه وزكاها ان يستثير عقله حتى يستخرج دفائنه (وبالسبل التي ذكر بها أئمة الهدى –عليهم السلام–) وان يستنطق كتاب الله ويتلوه حق تلاوته وتدبر في آياته..

وان يجتهد في دراية الأحاديث، وفهم أبعادها ومعاريضها ومعرفة بعضها ببعض. كل ذلك من أجل ان يبلغ أصول العلم، وضياء الأمر، ونور الحكم الإلهية، وروح التعاليم وقيمها.. فإذا ورد عليه فرع سهل عليه إرجاعه إلى اصله، وإذا اختلفت عليه النصوص ارجع متشابهها إلى محكمها، لانه يصبح –بفضل الله وبما وفقه من استثارة العقل والتدبر في الكتاب والسنة–من الراسخين في العلم الذين يعرفون أحكام الله الثابتة، كما يستنبطون حكم الحوادث الواقعة ويعلمون أيضا تأويل آيات الله التشابهة.

---

[١] – عيون اخبار الرضا.

[٢] – الأنعام ٤٥.

[٣] – الأعراف.

وإذا بلغ الفقيه هذا المستوى، ثم اشتبه عليه حكم، يرجع إلى الأصول العملية التي تحدد حكم الشاك.. من البراءة أو الإشتغال أو التخيير أو القرعة في بعض الأمور.

ولا ينبغي للفقيه ان يبادر نحو الأصول التي وضعت لحالة الشك.

إلا بعد استفراغ الجهد في التعرف على أحكام الله الأولية بالعقل والكتاب والسنة. ويبدو ان البعض يستعجل في ذلك، ولا يبحث عن الأحكام اليقينية التي تطمئن إليها النفس بالقدر الكافي ويتسرع في القول بانه لا يحل عنده يقين. حتى أ، بعضهم يصرف والوقت في تحديد حكم الشاك، والتنقيب عن الأدلة القياسية في التعرف على الأصول أكثر مما يصرفه في التدبر في القرآن ودراية السنة.

ولعل السبب في سرعة اليأس عن حصول اليقين عندهم واحد م العوامل التالية:

(أولا:) أنهم لا يعرفون معنى اليقين.. ويزعمون أنه انعدام الاحتمال حسب التعريف الفلسفي للقطع وقد سبق أن اليقين غير ذلك انما هو سكينة النفس والتحسس ببرد اليقين فيها.

(ثانيا:) انهم يفتشون عن الأحكام الفرعية أكثر مما يفتشون عن الأصول العامة.

الباب الثالث:

مناهج الإجتهاد

الفصل الأول:

المناهج العامة

تمهيد

كيف نعمل لكي لا نخطئ في الإستنباط؟.

من خلال البصائر التي مرت بنا فيما مضى، عرفنا بعضا من شروط الإستنباط ومناهجه. وما هذا الفصل الا تكميلا أو بلورة لها ونسميه بالمناهج. والمناهج هذه نوعان، الأول: ما يتصل بكل بحث بالمناهج العامة،.

والثاني ما يختص بالفقه، ونسيمه بالمناهج الخاصة.

وقد جمعت كثيرا من الأفكار حول مناهج البحث في كتابي (المنطق الإسلامي) ولا أظن أن لي افكارا كثيرة لأضيفها عليه. لذلك عمدت اليه فاختصرت بعض ما يتناسب وبحوثنا هذه.. ومن أحب التفصيل يمكنه الرجوع إلى ذلك الكتاب.

اما في المناهج الخاصة بإستنباط الفقه فقد أشرت إلى ما تبادر إلى ذهني من أفكار جديدة وبالذات فيما يرتبط بضرورة معرفة متغيرات الزمان في استنباط أحكامها. وكذلك فيما يتصل بصفات الفقيه الذي يجوز له استنباط الحكم.

العوامل للخطأ النفسية

إذا استيقظ العقل، اكتشف مناهجه وعرف بنوره الإلهي كيف يسلكها إلى المعرفة، وكذلك فهو–أيضا– يكشف الأخطاء التي قد يقع فيها، ويعرف كيف يتجنبها وإنما نذكر بها هنا لسببين:

(أولا:) لكي نذكر العقل بذاته وننميه بتحذيره عن عوامل الخطأ، أليس الشيء يعرف بضده؟ كذلك العقل يعرف عندما نعرف ضده الجهل ونتحذر منه.

(ثانيا:) لا، العقل يزداد ويتكامل بالتجارب، وكلما وعي الإنسان تجارب غيره في منهجية استباط الحقائق وكشفها اكتمل نضجه، ولذلك كان أعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله. وهذه العوامل التي نذكرها إنما اجتمعت نتيجة تجارب الآخرين أو تذكرة الشرع.

وقد قسمنا هذه المناهج إلى ثلاثة مباحث تدور جميعها حول عوامل الخطأ التي لابد ان نتحذر منها: الأول عن العوامل النفسية، والثاني عن العوامل المادية، والثالث عن العوامل المنهجية.

وهناك عوامل أخرى للخطأ أعرضنا عنها، مثل عامل الوراثة والتربية والبيئة والإقتصاد وما أشبه. لانها جميعا تعود إلى عامل الهوى الذي أشرنا إليه في احاديثنا السابقة.. وقد فصلنا الحديث في كل ذلك في كتاب (المنطق الإسلامي).

وكذلك بحثنا –في ذلك الكتاب– مناهج البحث في كل حقل من حقول العلم. ولا اظن ان تكرارها في هذا الكتاب ذو فائدة تذكر.. إذ يمكن الرجوع فيها إلى كتابنا، أو أي كتاب منطقي آخر.

مشكلة الإنسان في المعرفة

يتصور الرأي السائد في المنطق ان مشكلة الإنسان في العلم، هي مشكلة عقلية محضة، يمكن حلها بوضع قواعد لتنظيم عملية التفكير. الا ان الحقيقة: ان المشكلة هي مشكلة نفسية، قبل ان تكون عقلية، ولذلك فنحن بحاجة إلى معالجة النفس البشرية، قبل أن نضع قواعد لعقله، وتنظيم فكره.

ومن هنا فإن علم النفس: لابد ان يدخل كطرف مباشر في المنطق كما يقول جون ديوي:

(ان علم النفس ذاته فرع خاص، من فورع منهج البحث فهو–بصفة عامة– يتصل بنظرية البحث المنطقي، بنفس العلاقة التي يتصل بها علم الطبيعة، أو الكيمياء، ولكن–لما كان علم النفس أوثق اهتماما من سائر العلوم الاخرى، بالمركز الرئيسي الذي يصدر عنه اجراء البحث انشاء وتنفيذا –كان من الجائز ان يضيف إلى النظرية المنطقية، إضافات ليست في مقدور العلوم الاخرى، شريطة ان يستخدم أداة لخدمة المنطق، لا ان يكون سيفا له)[١].

[١] – المنطق نظرية البحث/ ص ١٠٧.

وكما يقول هانز: (إن البحث عن نفسية الفلاسفة مشكلة، تستحق من الإنتباه أكثر مما يبديه الكتاب من الذين يعرضون تاريخ الفلسفة)[١].

السؤال الذي يرتسم امام العلماء: البحث عن جذر كل غريزة في نفس الإنسان وهل ان لكل واحدة منها جذرا مختلفا عن الأخرى، أم ان الغرائز تلتقي عند جذر واحد.

إن النظر العميق يهدي إلى وحدة الغرائز من الناحية السيكولوجية، بمعنى أنها نابعة من جذر واحد، هو حب الذات، ورجاء الخير له والخشية عليه من الشر، بيد أن هذه الوحدة السيكولوجية لا تتنافى مع الإختلاف الفسيولوجي والبيولوجي لها، بل نستطيع ان نقول: إن كافة الشهوات تعود إلى غريزة واحدة، فهناك مثلا حب السيطرة، وطلب الشهوة والحياء من الناس، واتباع العظماء، واتباع الوالدين، والاقربين.. إنها تعود إلى ذات الغريزة الواحدة، إذ ما من عمل غريزي يقوم به البشر، الا بسبب اعتقاده، بانه يقوم بصورة مباشرة أو غير مباشرة بإشباع احدى غرائزه الأولية.

فمثلا ابتاع السلطان، قد يكون طمعا في ماله مما يوفر بالتالي للفرد الطعام والجنس و..و.. قد يكون خوفا من عقابه، بمعنى ان عدم هذا الاّتباع يقضي عليه، بالحرمان من الغرائز، فاتباعه يوفر له ما كان يخشى ان يُحرم منه. فرجاء البلوغ للشهوات، لا يختلف كثيرا عن خوف حرمانها، انهما نابعان من مصدر واحد، هو حب الشهوات. وما من دافع نفسي، يمكن وراء عمل بشري، إلا ويعود–بعد حذف التفاصيل واستخلاص الجوهر من المظاهر–يعود إلى الخوف والرجاء، الخوف من حرمانه مما يملك، والرجاء في حصوله على مالا يملك، فمثلا: الطفل يتبع والديه خوفا من حرمانه إن عصاهم_من رزقهما وحمايتهما– ورجاء في المزيد من الرزق والحماية.

والمرء يتبع جماعته خوف تفرده– لدى انفصاله عنهم– وبالتالي حرمانه من منافع الجماعة، ورجاء المزيد من ذلك!.

والرجل يتبع نهج الصراع الطبقي ضد طبقة أخرى، خوفا من حرمانه من أكله وأمنه، ورجاء في الحصول على المزيد من إشباع الجوع وتوفير الأمن! والإنسان يسعى للرئاسة' لأنه يجدها أنسب الطرق لحماية ما عنده، وحصول ما ليس عنده من الغرائز!!

وحتى بعض الأعمال التي لا ننجد فيها الخوف والرجاء في الظاهر، نجدهما لدى البحث والتنقيب، فمثلا عبادة الأصنام، إذ البشر يتبع الأصنام لخوفه من عوامل الطبيعة، ورجاء في المزيد من الشهوات[٢].

والانسان المسلم يطيع الله خوفا من سطواته التي تحرمه النعم ورجاء المزيد من بركاته وإذا جمعنا الخوف والرجاء في تعبير دقيق قلنا (حب الذات) وال نعني بحب الذات إلا حب الأشياء لها، والخشية عليها من الأشياء.

وإذا فتشنا اللغة لنجد تعبيرا أدق، لما وجدناه إلا في كلمة (هوى النفس). لذلك كان الهوى (هوى النفس) هو الذي حمله القرآن الحكيم مسؤوليات الضلالة البشرية فقال الله بسبحانه:

---

[١] – نشأة الفلسفة العلمية.

[٢] – واتخذوا من دون الله الهة لعلهم ينصرون يس/ ٧٤.

(إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس)[١].

(فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا)[٢].

(فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)[٣].

(ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله)[٤].

وفي الحديث عن الرسول_صلى الله عليه وآله_:

(أما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وطول الامل وينسي الآخرة)[٥].

وقدم سبق ان تحدثنا طويلا عن هذه الحقيقة.

وفيما يلي نتحدث بإذن الله عن مدى علاقة حب الذات (هوى النفس) بجذور الخطأ النفسية.

الجذور النفسية للخطأ

لا بد ان نشير مكررا إلى ان النفس البشرية تتنازعها طاقتا العقل والجهل. وان الجهل، طاقة ذاتية نابعة من طبيعة وجودنا الناقص. أما العقل، فهو هبة من الله القدير.

وان كل ما في النفس من حنين إلى المادة، وحب لها،ناشئة من طبيعتها الذاتية. والجذور النفسية التالية ان هي إلا مظاهر، وانعكاسات لهذه الطبيعة، وان فصل هذه المظاهر عن بعضها يتم بهدف التوضيح، ووضع النقاط على الحروف. وسوف نستعرض في البداية جذر كل خطأ وبعده نبين نتائجه، والجذور التي سوف نستعرضها ثلاثة: الحب، وفقد الثقة، والتسرع.

الف: الحب

ما هو الحب؟ انه انجذاب النفس إلى ويتدخل الحب في المعرفة سلبيا، وله جذر ونتائج، اما الجذر فانه يستقطب كل اهتمام النفس في بؤرة واحدة هي الحبيب ويحاول حمل صاحبه على صرف كل طاقاته فيه. والتفكير طاقة لا تشذ عن سائر الطاقات النفسية المنجذبة بعنف نحو الحبيب. والمعرفة بحاجة إلى التفكير، كي تصبح متكاملة وواضحة إذ ستصبح كل مصادر المعرفة –حتى الإحساس– غير مفيدة (علما) دون وعي وتفكير.

وإذ يصرف الحب فكر صاحبه نحو بؤرة الحب، بعيدا عن الواقع الموضوعي، لا تستطيع النفس ان تعي أو تفكر في الحقيقة. حتى يفقهها فتقع في الخطأ.

وحينما تقول (يصرف الحب) لا نقصد–بوجه– حتمية التصرف هذا، بل ليس إلا ضغط الجانب النفسي الذي يحدثه الحب على الإرادة، وتبقى النهاية الحاسمة، بيد الإنسان يختارها بحرية تامة، وهناك إما يرضح للحب أو يرفض الإستسلام.

---

[١] – ص/ ٢٣.

[٢] – النساء/ ١٣٥.

[٣] – ص/ ٢٦.

[٤] – القسس/ ٥٠.

[٥] – منية المريد/ ص ٣٦.

النتائج:

١/ حب الذات

يتعصب الشر لأفكاره بدافع حب الذات، ويجادل عنها، ويستكبر دون معرفة ما يقابلها ودون الإنفتاح على ما سواها.

ويتعصب أيضا لك فكرة تكسبه نفعا، أو تدفع عنه ضران ويتلون بها حسب الظروف، وينغلق دون غيرها حتى ليعمي بصره.

ويغتر بجهله، ولا يذل نفسه–حسب ظنه– بالسؤال، أو البحث عن الحقيقة، أو التسليم لمن ينادي بها، لمجرد الظن بأن في ذلك منقصة لذاته، ذلك التي يحبها والى هذه الغريزة ترجع عوامل الحسد والحقد والعناد النفسية.

٢/ اسلوب العرض

قد يستهوي الفرد أسلوب عرض الفكرة، فيحبها ويدافع عنها، وينغلق دون ما سواها.

وتأتي ظاهرة التداعي في الحب لربط الأسلوب بالفكرة، ذلك ان اسلوب العرض لا علاقة له لي الواقع بحقيقة الفكرة، والفكرة لا جمال فيها أو قبح الا بقدر ما فيها من نسبة الحقيقة، إلا ان التفكير المنهجي فقط هو الذي يحس بهذه المفارقة.

أما النفس فإنها، إذا أحبت شيئا أحبت كل ما يلابسها لظاهرة التداعي في الحب، تلك الظاهرة التي لا تكشفها لنا تجارب العلم وحدها، بل ووجدان كل منا أيضا!، فإنا نشعر بحب كل شيء يرتبط بما نحبه.

ومن هذه الزاوية تدخل الدعاية في حقل الثقافة البشرية، فتضيف عليها طابعها الواضح الكبير.

٣/ حب الفكرة

قد تحب فكرة لانها لبست حلة قشيبة من الأسلوب الجذاب.. ولكن الظاهرة الأعجب منها– والاقل في ذات الوقت– هي:

أن تحب فكرة لانها تنسجم مع نفسية الفرد أو نفسة الأمة التي ينتمي اليها الفرد.

أ/ أما عن الإنسجام بين نفسية الفرد وإستهوائه لفكرة معينة، فقد بين التحليل النفسي لبض الفلاسفة ان هناك علاقة وثيقة بين (نفسية) الفيلسوف و (نوعية) فلسفته.

فمثلا: في موضوع (وحدة الوجود) قالت طائفة من الفلاسفة: ان كل شيء في الكون هو شيء واحد. بينما قالت طائفة أخرى إن الأشياء هي متعددة.. وليست وحدة واحدة.

وعند التحليل النفسي: كان ذلك الفيلسوف الذي يعتد بذاته ويفرط في الإيمان به، انه كن يرى العلام كأنه مظهر من مظاهر ذاته الواحدة، وبالتالي كان يتصور ان الأشياء جميعها شيء واحد لا أكثر (وحدة الوجود)، مثلا نيتشه الذي قال: كل شيء هو أنا، بينما كان الفيلسوف الذي لا يغالي في الشعور بذاته يعتقد بوجود الأشياء منفصلة عن ذاته وبالتالي يؤمن بأن، كل شيء وجدودا خاصا به وينفي –بذلك– وحدة الوجود.

ب– وقد تكون نفسية الفيلسوف أو المفكر أو الشاعر مرآة تعكس نفسية امة بكاملها، ويكون إنتاجه الفكري صدى لتلك النفسية المنتشرة بين أبناء الأمة كلها.

(من هنا ما يقوله العلماء الغربيون: ان الفيلسوفين (كانت) و (هيجل) يمثلان العقلية الألمانية، وان (ديكارت) و(فولتير) يمثلان العقلية الفرنسية، وان (لوك) و(بيرك) يمثلان العقلية البريطانية، وان (وليم جيمس) و(جون ديوي) يمثلان العقلية الأمريكية).

(هذه الفروق الفلسفية بين الأمم الأربع ليست في الواقع إلا صدى، وان كان صدى رفيع المستوى –لخصائص عقلية وخلقية– تتغلغل بنسب متفاوتة في جميع الطبقات من هذه الأمم وتميز احديهما عن الأخرى)[١].

(فالمنطق الآلي والكمالي النظري الذي يتجلى في فلسفة (ديكارت) يتجاوب في تراجيديات (كورني) و(راسي) وفي الحماسة الملتهبة عند مفكري الثورة الفرنسية، كما يظهر –مرة أخرى– في مشروعات السلم غير العملية–وان كانت كاملة من الوجهة المنطقية– التي امتاز بها الساسة الفرنسيون في الفترة (ما بين الحربين العالميتين.

أما فلسفة (لوك) الإنجليزي فهي مظهر الشخصية الإنجليزية، كما تظهر (ذات الشخصية) في وثيقة (ماجناكاراتا)، وكما تظهر في التشريعات الإنجليزية المتميزة بصياغتها العملية الإجرائية).

(ونرى فلسفة (بيرك) تسعى إلى التوفيق بين ما تدعوا إليه الأخلاق وبين ما تقتضيه الظروف وتوجيه الملائمة السياسية، وهذا الطابع طابع العبقرية السياسية الإنجليزية يتكرر بروزه في سياسة توازن القوى التي تمسكوا بها طويلا وما زالوا عاكفين عليها)[٢].

٤/ حب الآباء

إن حب الآباء يبعث الأبناء نحو تقليدهم، وهو واحد من العوامل الأخرى التي تدفعهم نحه، مثل احترامهم والخشية منهم على المصالح، وترسب أفكارهم منذ الطفولة.

٥/ حب البيئة

والبيئة الإجتماعية والثقافية، تعتمد في تأثيرها على الحب أيضا، ذلك ان الإنسان يحب نظيره الإنسان بصورة فطرية، ويحب لذلك أفكار أقرب الناس إليه فالأقرب (الأصدقاء الأساتذة).

وليس الحب هنا إلا اضعف العوامل الباعثة على تقليد البيئة، فالأقوى تأثيرا: انما هو.. الخوف على المصالح، ثم الإنفتاح على أفكارها الجاهزة واحترامها احتراما يبعث على التقليد.

٦/ حب السلف

إن حب السابقين من العماء والعظماء يبعث على اتباعهم والإتكال عليهم دون بحث جديد في أفكارهم لتقييمها ونبذ الأفكار الخاطئة منها.

---

[١] – يستخدم صاحب النص كلمة العقل مكان الفكر حسب مفاهيمنا الدارجة فيه هذا الكتاب.

[٢] ديمقراطية القومية العربية الدكتور محمد عبد الله العربي/ ص ٦٤ وبتفصيل أكثر راجع كتاب الأسس النفسية لتطوير الأمم/ ص ١٧٢.

باء/ فقد الثقة بالذات

فقد الثقة جذرا آخر من جذور الخطأ، ذلك ان الوعي شرط أساس في المعرفة، ونعني بالوعي (وجدان الذات)، والذي يتسبب من المعرفة بكامل القوى النفسية ثم الثقة، بها وأخيرا ضبطها في اتجاه محدد، ذلك ان الإنسان الفاقد للثقة بنفسه لا يتمكن من التفكير، أو ربما لا يفكر، وان كان قادرا عليه، ثم لا يجزم بنتيجة تفكيره، إذ سيقول أبدا: انا اقل قدرا من معرفة الحقيقة، وهكذا يخطيء فكره وان كان صوابا، لأنه لا يعترف بإمكانية توصل هذا الفكر إلى الحقيقة.

وبتعبير آخر: ان الإنسان يسلك إلى المعرفة إمام طريق الحس أو التعقل أو الإلهام. والذي يفقد الثقة بنفسه يفقد الثقة بالحس، وبالتعقل وبالإلهام وأخيرا لا يعترف بتلك المعرفة التي تأتيه من هذه الطرق، ولذلك فهو لا يصل إلى الحقيقة، وليس فقد الثقة بالذات (أو بوجدان الذات) يعني بالضرورة إنكار كل مصادر المعرفة، فربما بكفر الإنسان بذاته عن طريق انكاره لواحدة من قواه وطاقاته، كالذي ينكر قدرة الإنسان على التعقل، وربما يكفر بنفسه في جهة معرفة خاصة، أو في مقابل شخص واحد، قد عرف خلال ما يعرفه، وهكذا يبدو (وعي الذات) والثقة بما به من مقدرة، على تحصيل المعرفة، شرطا اساسيا للعلم، وبفقدها تقع أخطاء فكرية كبيرة.

كما ان من يفقد القدرة على ضبط مصادر المعرفة، وتوجيهها حسب إراداته، يفقد تلك المعرفة الآية منها أيضا. من هنا كان وعي الذات الذي يستتبع الثقة بمقاييسها، والقدرة على استخدام تلك المقاييس، أول وأهم مقدمات المعرفة. هذا هو الجذر، اما النتائج:

١- الإنغلاق

الإنغلاق دون مصارد المعرفة الذي يشكل أضخم كارثة فكرة تصيب البشرية، وهي من نتائج فقد البشرية الثقة بذاتها.

فالسوفسطائيون والشكاكون الذين قالوا ان المعرفة (أو قدرة البشر عليها) محال، تخبطوا في ظلمات الجهل، فابا بهم لا يبصرون شيئا ولا يعقلون.

والمثاليون الذي انكروا الحس، والماديون الذين انكروا العقل وسابقياته، وأولئك الذين انكروا الإلهام كمصردم موثوق للمعرفة الجازمة.

كل اولئك حجبوا عن الحقيقة، بنسبة معنية، ورفضوا الغتراف بأنفسهم، أو بقدرتهم على المعرفة بذات النسبة، بينما كانوا في الحقيقة قادرين عليها.

٢- الذوبان في شخصية

يقول بعض الفلاسفة: ان تحطيم الماضي نوع من اثبات الذات، والحقيقة انه لا يتمكن البشر من تحطيم ماضيه، دون اثبات ذاته اولا.. ليتمكن من استخدام ذاته وما ليده من مقاييس في عملية التحطيم هذه.

فبسبب قوة شخصية علمية أو سياسية أو دينية، قد يفقد الأفراد–بل حتى الأمم– إينمانهم بأنفسهم، إذا انهم كانوا يترددون في الإعتراف بالحقيقة، التي يصلون اليها إذا كانت مخالفة لما وصل اليها تلك الشخصية.

ان السلبية والإنهزامية امام تيار أو امة متقدمة، كالإنهزامية الفكرية التي يعاني منها المسلمون امام تيار الشيوعية أو امام الأمم المتقدمة في الغرب.. إنها نتيجة واحدة من نتائج الإنبهار بالآخرين، وفقد الثقة بالنفس، وهذه الحالة اشبه ما تكون بحالة الطفل حينما يطرح أفكاره البدائية لإستقبال أبكار والديه أو من هم أكبر منه، وهي ذات الحالة، التي تصيب التلامذة والبسطاء والسذج والأمم الجاهلية التي لا تفكر ذاتيا في الحقائق، لعدم ثقتها بأنفسها، وحتى لو فكرت فيها فانها تطرح أفكارها لحسا أفكار من تعظمها.

وكما سبق، فإن للتقليد اسبابا اخرى، الا ان هذا سبب رئيسي للتقليد بأية صورة كانت من صوره.

جيم/ التسرع في الحكم

لظاهرة التسرع، والعجلة في إصدرا الحكم جذر نفسي واحد، ونتائج شتى.

فالجذر: هو (غريزة حب الراحة) إذ:

الحقيقة التي لا يرتاب فيها احد هي: ان التفكير عملية صعبة ومجهدة، وتركيزه أصعب وأشد جهدا، وقلة المفكرين في العامل ناشئة عن الصعوبة البالغة التي يقتضيها التفكير المركز، كما ان التعلم بما يقتضي من صرف الوقت والمال والجهد ليس بالعمل السهل.

وحب الراحة هو الآخر حقيقة لا يرتاب فيها احد، فمن منا لا يحس بها؟ ومن هنا يتهرب البشر من التفكير المركز، ويهوى التسرع في الحكم لينقذ ذاته من هذه الصعوبة، وهذا هو جذر التسرع، اما النتائج فهي:

الأحكام الكاسحة: الإنطلاق من قضايا خاصة، بظروفها وأسبابها إلى الحكم بالقضايا الكلية.

فمثلا يرى الإنسان جانبا من المدينة خرابا فيحكم عليها بالخراب، ويرى رجلا يموت بحقن البنسلين فيحكم بان كل من احتقن به يموت.

حقا، يستطيع الحدس الواضح ان يقفز من القضية الخاصة إلى ما هي أعم منها، وذلك حينما يعلم بوضوح ان ليس هناك اختلاف في الظروف المحيطة بهذه القضية عن أشباهها، فمثلا: حين يجرب مادة على حيوان فيرى أنها تميته بعد احتقانه بها مباشرة ويكرر التجربة في ظروف مختلفة عدة مرات، حتى يتيقن ان (سبب) الموت ليس الا هذه المادة.

إلا ان الفرق واضح بين الحدس العلمي، وبين التسرع الجاهلي، ذلك ان التسرع إنما هو إدخال غرض نفسي في الحكم، والحدس العلمي لا يكون إلا بعد اليقين بعدم وجود أي سبب لهذه الظاهرة، سوى هذا السبب. ولأنه يعلم بوضوح (ان السبب متى وجد، جاءت الظاهرة). يعلم انه كلما وجد ما وجد هنا كانت ذات النتيجة موجودة.

خلاصة القول: ان التسرع لا يبلغ درجة العلم بوحدة الظروف، في كل من المجرب وغيره، والحدس يبلغها.

دال/ إتباع الافكار الجاهزة

ظاهرة الإيمان بالأفكار الجاهزة سابقا، دون تمحيص، وحتى لمعرفة ما إذا كانت صحيحة أم باطلة وذلك خشية أن تصيب الفرد مشقة كبيرة في عملية التفكير من جديد حلو تلك المواضيع [١]. ولا فرق في هذه النتيجة بين: الخوف من التشكيك في أفكار تبناها الإنسان نفسه، وبين ما تبناه العلماء قديما أو حديثا، أو أملتها الظروف الإجتماعية، أو البيئة الثقافية، ذلك لإشتراكها جميعها في جذر الخطأ النفسي الذي يتخلص في حب الراحة، والذي يدعو إلى تبني أفكار جاهزة.

وربما يكون حب الذات، واحترام العلماء يكون وراء هذه الظاهرة (الإيمان بالأفكار الجاهزة).

ان التقليد قد يوجد دون وجود علاقة عاطفية بين المقلد والمقلد، بل بمجرد أن المقلد ضعيف النفسية وغير مستعد للبحث بنفسه حول القضية فيتبع غيره فيها.

العوامل المادية للخطأ

لكي نحصي عوامل الخطأ لابد ان نذكر بأثر (العوامل المادية) في الفكر البشري لانها قد تكون من أشدها وأكثرها ضغطا عليه بإتجاه الخطأ.

صاحبه إلا ان نسميه بـ (حب الفكرة). وحب الفكرة انما يعني(الدليل) النفسي اليها مما يعطي صاحبها دفعا بإتجاهها لانها تتلاءم مع نفسيته. فهناك –مثلا– نفوس جبلت على الثورة والتحدي، ولذلك تندفع هذه النفوس إلى الرفض والتمرد بأدنى مبرر لأنها (تميل) اليها و(تنسجم) معها بينما نجد نفوسا أخرى (تميل) إلى الخنوع والإستسلام) وتتمتع ببرودة الأعصاب وثق الدم فهؤلاء –بعكس أولئك تماما–يرفضون كل ثورة دون أن يسألوا أنفسهم لماذا.

ومن الناس من (تميل) نفسه إلى التشاؤم فلا يرون إلا الجوانب السلبية من الحياة.

ولذلك تراهم ينسجمون مع الأفكار الأكثر تشاؤما، بينما الآخرون (يميلون) إلى الانطواء لإنسجام أنفسهم معه بينما يحب غيرهم الإنفتاح وهكذا.

يقول إرنست همنغواي في كتابه (وداعا أيها السلاح) : (إلا ان طبعي الخاص يضطرني إلى الشك في انه لن تكون هنالك اقلية ستشهد الحياة وهي تسير إلى نهايتها الت لا يمكن تجنبها. فهل هو لا منتم لانه خائب وسوداوي)؟ [٢].

(فهناك عدد من الرجال يخلقون ثورا بطبعهم وسليقتهم) [٣]وهنا يطرح سؤال: لماذا يحب الإنسان فكرة ويرفض أخرى؟؟

١

لقد توصل ديكارت الفيلسوف الفرنسي إلى ذات الملاحظة حينما قال عن نفسه أنا إنسان من تلقاء نفسي ودون وعي من إلى تيار آرائي القديمة. واحاذر ان اصحوا من غفوتي هذه خشية ان اجد اليقظة الشاقة التي عقب هذه الراحة الهادئة (رينه ديكارت) / ص ٤١.

٢ – ولسن اللامنتمي /ص ١٥.

٣ – يريان كوزير الثائرون/ص ٢٠.

الجواب: لان تركيبة الإنسان النفسية (السيكولوجية) أو العصبية (الفسيولوجية) أو الحياتية (البيولوجية) هي التي تنسجم مع هذه الفكرة أو تلك، والعامل المادي الذي نتحدث عنه إنما هو جزء من تركيبة نفسية الإنسان.

وبتعبير آخر:

ان منهج الإنسان آت من نوعية تفكيره، والتفكير –بدوره– خاضع للإرادة، والإرادة ليست سوى مقاومة النفس لجاذبية الطبيعة (إذا كانت الإرادة إيجابية) أو هي استسلام الذات لضغوط (إذا كانت الإرادة سلبية).

ولكن متى تقاوم الارادة ومتى تستسلم؟؟ عندما تكون الإرادة أقوى من جاذبية الطبيعة تقاوم، ومتى كانت أضعف تنهار. من هنا نستطيع ان نحدد اتجاه السلوك البشري بمقارنة الإرادة الطبيعة ايهما اقوى. ولا يكفي ان نعرف مدى قوى الإرادة بل لا بد ان نعرف–أيضا– مدى قوة الجاذبية في الطبيعة.

والعوامل المادية التي يوف نذكرها انشاء الله، هي بعض مظاهر الضغط التي تتعرض لها النفس البشرية وتتحدى إرادتها في مقاومتها أو الإستسلام لها.

الهدف من ذكرها هو الإستعداد لها التحصن ضدها إذ ليس سواء عند الإنسان التي راح يتعرض لهجوم ان يعرف ان لا يعرف قواعد ومنطلقات الهجوم. وكذلك الذي يعرف –سلفا– أسباب الاعتراف المادية وطبيعة الميول) التي قد تضغط عليه بإتجاه معين. مخصوصا والعوامل المادية من اشد العوامل المادية النفسية تأثيرا وفي نفس الوقت من أقلها ظهورا. أقول: هذا الإنسان يختلف عمن لا يعرف ذلك في انه قادر على التحصن ضد الوقوع في الخطأ.

ما هي العوامل المادية؟

كلمة العوامل المادية تعني (البيئة الطبيعة) سواء كان محور تأثيرها داخليا كالمخدرات وانواع المنبهات والأطعمة، او كان خارجيا كالحر والبرد والرطوبة واليبوسة.

وسواء كان عرضيا وطارئا كالضعف المرضي او اصيلا كمستوى الذكاء.

ونستطيع الحاق الفوارق العرقية بـ (العوامل المادية) بالرغم من اختلاف الناس حولها من منكر لها او متطرف فيها.

كيف تؤثر العوامل المادية؟

كيف يؤثر العامل المادي في توجيه البشر ودفعه الى سبيل الخطأ؟ معروف ان المنبهات الخارجية تتوجه –في البدء– نحو الأعصاب وعن طريقها تخلف آثارها على الفكر. ولا بد ان نوع استجابه الأعصاب لهذه المنبهات يؤثر في نوع تلقي الدماغ لها. فمثلا طبيعة تركيب شبكة العين تؤثر في طرشقة استقبالها للأضواء، التي هي المنبهات الخارجية بحيث انها لا تستقبل الاشعة ما فوق الحمراء ولا الظلال الباهتة، وكذلك طبيعة تركيبة صماخ الأذن تثر في طريقة استقبالها للأمواج الصوتية بحيث انها لا تستقبل الموجة التي تقل درجة التذبذب فيها من عشرين في الثانية الواحدة، ومثل ذلك سائر الأعصاب والأجهزة المستقبلة للمنبهات الخارجية. فهناك–اذا– تأثيرا كبير على الفكر من طبيعة تركيبة الأعصاب تلك التي هي موضوع علم الفسلجة.

وبما ان العوامل المادية تؤثر في تركيبة الأعصاب وفي طرقة ادائها لوظيفتها فهي تؤثر في الفكر بطريقة غير مباشرة ذلك: ان اقتصاديات الجسم البشري لتنتظم حول جهازين يكمل أحدهما الآخر:

١– الجهاز الهضمي الدوري.

٢- الجهاز العصبي العضلي.

وتتحول الطاقات (الطعام) بواسطة الجهاز الهضمي الى نوع من الوقود يسهل ايصاله الى انسجة الجهاز العصبي العضلي عن طريق الجهاز الدوري، ثم يطلق مصدر التنبيه الخارجي (ذبذبات الصوت –مثلا–) الوقود المتخزن في الجهاز العصبي فتحدث الاستجابة، لذلك فرؤية الماء لا تدفع رجلا الى الشرب الا حين يكون عطشانا، كمالا بد من وجود حالة فسيولوجية خاصة قبل ان يدفع مجرد وجود رفيق الحيوان به الى محاولة التقرب الجنسي[١].

فالمنبه الخارجي انما يطلق الطاقات المختزنة، اما ذات الطاقات فهي آتية من الجهاز الهضمي التي بالرغم من تعرضها لعملية التصفية والتكرير عدة مرات فانها لم تزل تحمل بعض آثار الطعام التي راحت تؤثر في الاعصاب الخازنة للطاقات وبالتالي في طريقة عملها والتي تؤثر هي بدورها في الفكر .

ولهذا السبب يتأثر الجهاز العصبي بضعف الجهاز الهضمي، وبالتالي بسائر مناحي الجسم اذ ان الوظيفة السيكولوجية تنطوي دائما على عدد من اجزاء الجسم حتى عملية بسيطة نسبيا– كرؤية ضوء أخضر– تتوقف في حدوثها على سلسلة كبيرة من الحوداث التي تقع يف الشبكة والدماغ وعضلات العين[٢].

ولعل التجارب التي اجريت على التعب تحمل الدلالة الكافية على ذلك، اذ ان التعب يمتص الطاقات المختزنة في الأعصاب حتى لا تكاد تبقي فيها طاقة تصرف في التنبه، ويقاس ذلك بطريقة القياس النفسي المشتملة على مثير واحد ذي تقديرات مختلفة في فترات العمل ويتدرج في القياس الذي يتكون–بقدر الإمكان– من عشر خطوات تصل من السرور والإرتياح في العمل الذي عدم السرور او عدم الإرتياح (بسبب ذلك المثير). وقد وجد ان المنحنى العادي الذي يمثل هذه الأحاسيس في حالة العمل العقلي المتكرر يهبط بسرعة وبعجلة تناقصية (كلما كثر العمل قلت الإستجابة) من بداية العمل الى نهايته[٣].

ولذات اسبب يؤثر نوع الطعام في مدى استجابة الأعصاب للمنبهات، فلقد قرر بعض الباحثين أنه (ليس هناك من شك في ان الشعور يتأثر بكمية الطعام وصفته[٤]وانه لكي تضيع وتتلاشى ارقى التجليات الروحية يكفي حرمانه بلازما الدم من بعض المواد[٥].

اثر الغدة الدرقية على الفكر

كما يؤثر بعض أعضاء الجسم في لذات السبب، اذ انه لا يقوم باداء دوره الكامل مما يؤثر في طريقة اداء الاعصاب لمسؤوليتها، وبالتالي يخلف اثره في التفكر. فمثلا، المفروض في هرمون الغدة الدرقية ان يتوافر في الدم بكمية معنية، فإذا انخفضت نسبته عن ذلك قليلا تغيرت الصورة العامة للشخص في كثير من جوانبها، ففيما يتعلق بالنشاط الذهني وبالشخصية نجده (أي الشخص) يصبح كثير النسيان وتقل قدرته على تركيز الإنتباه كما انه يفقد القدرة على المبادرة والإقدام وحسم المشكلات والى ذلك من تغيرات تعود بالتالي على السلوك بآثارها السيئة[٦].

---

[١] – ميادين علم النفس/ ج ١ – ص ٤٣٨.

[٢] – المصدر/ ج١ –ص ٤٣٦.

[٣] – ميادين علم النفس / ج٢–ص ٦٩١.

[٤] – الكيسيس كارل/ الانسان ذلك المجهول/ ص ٢٣٢.

[٥] – راه ورسم زندكي/ ص ٢٦.

[٦] – مقدمة لعلم النفس الاجتماعي/ ص ٢٩.

وكما ان نقص افرازات الغدة الدرقية يسبب هذه الإضطرابات الخطيرة، كذلك تؤدي زيادة الإفرازات الى اضطرابات لا تقل خطورة عن ذلك، ففيما يتعلق بالنشاط الذهني وبالشخصية يصل الامر في بعض الهلوسات، وفي الحالات الاخف من ذلك قليلا يعاين الشخص من الارق والقلق والتوتر النفسي الشديد[١].

من هنا نستطيع الجزم بوجود ضغط سيكولوجي على الفرد من جانب غدته الدرقية، وسائر الغدد الصماء، بل ان آثار هذا الضغط الخطير دفع العلماء الى اعتبار الغدد الصماء (مؤثرات حتمية) على فكر الإنسان وسلوكه فسماها تبعا لذلك بـ (غدد المصير).

واضطرابات الغدد الدرقية قد تنشأ من الوراثة. وقد تنشأ من الحالات الانفعالية الحادة)[٢].

أثر المناخ الطبيعي على الفكر

واذا كان الطعام مؤثرا على الجهاز العصبي، لانه مصدر وقود له فان كل ما يمتص هذا الوقود يؤثر –بطريقة غير مباشرة– على الاعصاب لانه يمتص وقودها الضروري. ولعل تأثير المناخ الطبيعي، في تكوين الشخصية نابع من هذا السبب. فلذلك (كلما كان الماء أقل يصبح الدم أشد غلظة، وبطبيعة تأثير الدم على الاعصاب تصبح هي أسرع تحركا) [٣]لذلك يكون سكان المنطقة الجرداء متميزين –عادة–بالتسرع وشدة الإثارة.

من جانب آخر، طبيعة التدهين في الجلد وترشح (وافرازات) الغدد التي تحدث في ظروف خاصة تشكل سمة بارزة للإنسان الأسود، (بسبب مناخه الحار اليابس) بينما زيادة (عملية) التبخر التي تهدف تكييف الجسم مع المحيط الخارجي (بما فيه من حرارة ويبوسة) وحفظ التوازن بين حرارة الجسم والخارج، هذه الزيادة تخص الانسان الاسود فقط)[٤] لذلك قد يحدث المناخ مرضا خصا على ساكينه، بسبب تأثيره على أعصابهم (فلقد تبين لعالم نفساني اسكندنافي يدعى (بوك) بعض المناطق الشمالية من السويد تضم نسبة عالية جدا من شخصيات فصامية (شيزوفرينية)[٥].

أثر الوراثة على الفكر

وإذا كان هناك تأثير مباشر على الجهاز العصبي من الهضمي بسبب ان الأول مصدر وقود للثاني فإن اهم آثار الجهاز الهضمي يمكن ان يبرز من خلال طبيعة استجابة الأعصاب للمنبهات الخارجية–بسرعة أو ببطء، بعمق أو بسطحية– مما يخلف أكبر الأثر في الفكر والسلوك، بيد ان تركيبة الجهاز الهضمي قد تكون ناشئة من الوراثة، وكذلك تركيبة الجهاز العصبي مما تؤثر –بالطبع– في التفكير. وقد يكون هذا السبب وراء وراثة الأخلاق التي ازدادت الثقة بها بعد ان اكتشف العلم الجينة المورثة إذ (ازدادت معرفتنا بعوامل الوراثة بفضل العلم بـ(الجينة المورثة) (gene). فالفرد يبدأ حياته في الحمل بإتحاد خلية من كل الابوين–بويضة الانثى– والحيوان المنوي للرجل– وتحتوي كل خلية على مئات الآلاف من الجزئيات الدقيقة جدا والتي تسمى المورثات، وهي حالمة احدى استعدادات الطبع)[٦].

---

[١] – المصدر.

[٢] – براتراند رسل واخرون/ المادية الجدلية والمثالية البرجوازية/ ص١١.

[٣] – د.كاظم وديعي/ جغرافيا انساني عمومي/ فارسي/ ص ٥٣.

[٤] – المصدر.

[٥] – د. الدباغ/ غسل الدماغ/ ص ٩٢.

[٦] – ميادين علم النفس/ : ج٢–ص٥٢٦.

لقد أكدت التجارب التي اجريت على اسر متحدرة من اخوة مختلفين في الأب أو الام مدى تعرض الأبناء لآثار الوراثة من الأب أو الأم، رغم وحدة المؤثرات الأخرى كما (اكد بعض الباحثين اهمية الوراثة عند تفسير الظواهر المعروفة عن الأطفال المتبنين، بالرغم من انهم يعترفون بان البيئة المنزلية المناسبة قد ترفع نسبة الذكاء بمقدار حوالي ٢٠ درجة وتخفضها البيئة غير المناسبة بمقدار حوالي ٢٠ درجة. وهذا التأثير الكبير الذي يصل –إذا–إلى ما يقرب من ٤٠ درجة لا يمكن اهماله)[١].

ان تأثير الوراثة لا يكون من قناة واحدة، بل من عدة قنوات ابتداء من التأثير البيولوجي (بسبب انتقل بنية الأب أو الأم، إلى الوليد) ومرورا بالتأثير الفسيولوجي (وطبيعة تركيبة الأعصاب) وانتهاء بالتأثير السيكولوجي (بسبب الجينة المورثة). ولذلك قال بعض العلماء انه (يحتمل ان يكون ٢٥% من حالات البلاهة نتيجة الإختلالات الحادثة على نمو المخ طوال الحياة الجنسية، أو عند الولادة، أو في المرحلة الاولى من حياة الطفل. ان اتزان الجهاز العصبي، وسلامة التفكير يرتبطان إلى حد بعيد بتركيب المواد الغذائية في مراحل تكون المخ والنتوءات العصبية)[٢].

(إننا مصنوعون من مواد آبائنا وأمهاتنا الخلوية، وتتوقف –في الماضي– على حالة عضوية لا تحلل، ونحمل–في دخل انفسنا– قطعا ضئيلة لا عداد لها من اجسام اسلافنا، وما صفاتنا ونقائصنا الا امتدادا لنقائصهم وصفاتهم)[٣]. وليس هذا الكلام بعيدا عن التجربة إذا لاحظ (كوار) في احصائياته الدقيقة التي اجراها على الايسر التي كان آباؤها وأمهاتها مصابين بضعف العقل –وجود(٤٧٠) ضعيفي العقل منهم، و (٦) فقط سالمين)[٤].

(ان ولد السارق أو مصاص الدماء، قابليته على الإرادة الصحيحة أقل من ولد المجنون)[٥].

الفوارق العرقية

واذا تأكدت خطورة الوراثة مثلا بد ان يكون هناك دور هام وخطير –أيضا– للفوارق العرقية في توجيه الإنسان.

بيد ان دور الإرادة البشرية، ودور التربية والبيئة الطبيعة الذي يختلف غالبا مع دور الوراثة ودور السلالة، لا يجعلنا قادرين على اثبات خطورة الفوارق العرقية، إذ ما من عينة نأخذها للتجربة الا ونجد فيها المؤثرات الأخرى تزاحم تأثير السلالة، ولذلك تبقى الحجة الوحيدة التي يمكننا الإعتمادم عليها في (تأثير السلالة والفوارق العرقية) تبقى ادلة تأثير الوراثة والإستنتاج الفكري منها.

وقد ذكرت النصوص الدينية بدور العوامل المادية في انحراف الفكر الانساني، وفيما يلي نختار طائفة قليلة منها بالرغم من أنها تبلغ المئات.

---

[١] – المصدر.

[٢] – د. الكسيس كارل/ راه ورسم زندكي/ ص ١٥٨ (فارسي).

[٣] – د. كاريل/ الإنسان ذلك المجهول/ ص ٢٠٣.

[٤] – الكسيس كاريل/ راه ورسم زنكي/ ص ٧٤ (فارسي).

[٥] – المصدر/ ص ١٥٦.

١- بين الإسلام تأثير الطعام فجاء في الحديث عن الإمام الرضا -عليه السلام- وهو يعدد مضار شرب الدم: (ويسئ الخلق، ويورث القسوة للقلب، وقلة الرأفة والرحمة، ولا يؤمن أن يقتل ولده ووالده)[١].

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق -عليه السلام- وهو يوصي المتعلمين تجنب الأكل على الشبع: (إياك ان تأكل ما لا تشتهيه فانه يورث الحماقة والبله، ولا تأكل الا عند الجوع)[٢].

وأكد أهمية الوراثة وتأثيرها على نفسية الإنسان، فجاء في الحديث عن الإمام علي -عليه السلام-: (إذا كرم اصل الرجل كرم مغيبه ومحضره)[٣]. وقال: (حسن الأخلاق كرم الأعراق)[٤] وقال وهو يوصي الإنسان بإختيار الزوجة الصالحة لكي يحصل منها على الأولاد الصالحين: (انظر في أي شيء تضع ولدك فإن العرق دساس)[٥].

وقال النبي -صلى الله عليه وآله-: (اياكم وتزوج الحمقاء فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع)[٦] وتعبير النبي -صلى الله عليه وآله- بـ(الضياع) يبين الحقيقة التي بينتها التجارب من ان اغلب اولاد الحمقاوات يصبحون حمقاء وشعفاء العقول.

٣-وبين تأثير السلالة في سلوك الشخص حين قال الإمام الصادق عليه السلام-: (يا هشام لهم اصولا تدعو إلى غير الوفاء)[٧].

٤- كما بين أثر الخلقة المشوهة في خلق الإنسان وسلوكه حيث قال النبي -صلى الله عليه وآله-: (عليكم بالوجوه الملاح والحدق السود فإن الله يستحي ان يعذب الوجه المليح بالنار)[٨].

٥- وبين مدى تأثر الفكر في بعض الحالات الجسمية، حيث جاء في الحديث: (لا ترأي لحاقن ولا حازق) وهما من الذين تلح عليهم حاجة من حوائج الطبيعة).

وضع الجسم اثناء البحث

من العوامل المادية ذات التأثير السيء على التفكير، وبالتالي على عدم اختيار الموقف السليم، هو عدم راحة الوضع الجسدي للباحث،

فوجود أية حاجة بيولوجية للانسان، تسبب في اختلال أجهزته العصبية، وهذه بدورها تؤثر في طريقة تفكيره، الملابس الضيقة، ولا سيما الحذاء الضيق، الآلآم الجسدية الخفيفة، عسر الهضم، الجوع والعطش، البرد والحر، تلوث الهواء، الضوضاء، انتظار أمر هام، الإجابة على التليفون الذي يرن بغير موعد، الأضواء المتحركة والأضواء الخافتة، تحرك ظلال اليد على ورقة الكتابة أو على ورقة المطالعة، الأرق والكرى (حاجة النوم و.. و...

كل هذه قد تسبب في أخطاء فكرية: لانها تعكس آثارا سلبية على الأعصاب ومن ثم على التفكير.. وعلى الباحث ان ينتبه لحالته الجسدية الا تكون مزعجة خصوصا حين يعالج موضوعا صعبا.

---

[١] - بحار الأنوار/ ج ١٤- ص ٧٧٢ (الطبعة الأولى).

[٢] - بحار الأنوار/ ج١ -ص ٢٢٦.

[٣] - غرر الحكم/ ص ١٦٧.

[٤] - المصدر.

[٥] - العرق-كما يبدو- يعطي ذات المعنى الذي يقصده العلم بـ(الجينة) المصدر/ المستطرف ج ١ص ٢١٨.

[٦] - الجعفريات/ ص ٩٢.

[٧]- بحار الأنوار/ ج٥ ص ٢٧٧ (الطبعة الثانية).

[٨]- المصدر السابق/ ص ٢٨١.

والتفكير يستخدم المخ، والمخ بدوره يستخدم أنقى وأفضل زخات الدم، ولذلك يحتاج الإنسان إلى القوة الجسدية الكافية لعملة التفكير. وحالات الضعف الناشئ من أي شيء. هي من أسوأ حالات التفكير. كذلك حالة الشبع والإمتلاء حيث لم يستطع الجسد استيعاب الغذاء بشكل تام.

ولذلك يحبذ ترك العمل الفكري حين تناول الغذاء أو بعده مباشرة، كما يحبذ من جانب آخر التزود ببعض الأكلات الخفيفة اثناء التفكير وعملية البحث.

وبقد ما يحتاج المخ إلى القوة يحتاج إلى الأوكسجين إذ (يتطلب العمل الذهني توفير كمية اكير من الدم للمخ مما يزيد توتر الأوعية إلى حد بعيد، وهذا طبيعي تماما. ولا يسبب عادة اية مضاعفات..

(ويتضمن وضع الجلوس المتخذ عادة في العمل الذهني خاصة، والجسم منحن نصف انحناءة يولد ضغطا معينا على الصدر، وبالتالي تكون تهوية الرئتين غير كافية، وهذا الوضع يعوق تموين الجسم بالأوكسجين.

(ولهذا السبب يجب مراعاة تغيير هذا الوضع من وقت لآخر، ويكون من المفيد القيام (كل ٩٠ دقيقة أو كل ساعتين) والتمشية في الغرفة أو الاستلقاء على الكرسي، ومد القدمين، والزفير ببطء ثم أخذ نفس عميق[١].

والعين، هي بعد الرئة، العضو الحساس الذي ينعكس وضعه على المخ بشكل مباشر، والعين هي أول عضو يحس بالتعب، ولذلك يجب التلطف في الإستفادة من العين، وذلك باعطائها قدرا من الراحة، كلما شعرت بإرهاق. وقد يكون نافعا التعود على (غرغرة) النوم في سبات خفيفة، لإعطاء العين ومن ورائها اعصاب المخ قدرا من الراحة، الذي راح يؤثر في فعالية العين والمخ.

وبالطبع وضع الضوء على يسار الكاتب، وعدم تسليط الضوء على أوراق الدفتر، أو الكتاب لكي لا تنعكس الأمواج الضوئية على العين، أقول بالطبع هذه من ضرورات القراءة والكتابة.

(وأبسط قانون فسيولوجي مناسب، هو أن يستعمل (في حجرات القراءة) مناضد للقراءة مثل القوائم التي يستخدمها الموسيقيون بوضع الكتاب في وضع سليم، بالنسبة للمحور البصري للعين)[٢].

هذه بعض العوامل المادية التي أكد المنطق الحديث على الإهتمام بها أثناء البحث والتي لم تفت علماء المسلمين الإشارة اليها أيضا:

يقول الشهيد الثاني: (ينبغي ألا يشتغل بالدرس، وبه ما يزعجه، فكره، من مرض، أو جوع، أو عطش، أو مدافعة حدث، أو شدة فرح، أو غم أو غضب، أو نعاس، أو قلق، أو برد، أو حر، (مؤلمين) حذرا من أن يقصر عن استيفاء المطلوب من البحث أو يفتي بغير الصواب).

ثم يضيف قائلا:

(ألا يكون في مجلسه ما يؤذي الحاضر، من دخان، أو غبار، أو صوت مزعج، أو شمس موجبة للحر الشديد، أو نحو ذلك، مما يمنع من تأدية المطلوب، بل (لابد أن) يكون (المكان) واسعا مصونا عن كل ما يشغل الفكر ويشوش النفس ليحصل فيه الغرض المطلوب)[٣].

العوامل المنهجية للخطأ

---

[١] – العمل والمخ/ ص ١٣٥.

[٢] – المصدر/ ص ٢٤٧.

[٣] – منية المريد في اداب المفيد والمستفيد/ ص ٧٩.

١- لكي لا نحور المناهج

لا بد أن نضع المناهج السليمة ثم نبحث من خلالها على الحقائق، ولكن البعض يضع نصب عينه الحقائق، أو النظريات ثم يضع المناهج المناسبة لها. كلا.. إن على الباحث أن يجعل نفسه تلميذا في مدرسة المعرفة، فإذا نطقت الحقائق سكت، واستمع اليها. من هنا حذر بعض العلماء من تحوير النهج حسب النظرية التي اختارها الإنسان سلفا. يقول (كلود برنارد): (يجب عليه ألا يحرص على أفكاره السابقة إلا على إعتبار أنها وسيلة يتطلب بها جوابا من الطبيعة، ويجب عليه أن يخضع فكرته للطبيعة وأن يكون على استعداد لتركها أو تعديلها أو تغييرها تبعا لما ترشده إليه ملاحظة الظاهرة في آثارها)[١].

وإنما يبلغ الباحث هذا المستوى الرفيع من المنهجية بالإخلاص لله في تعلم العلم ومعرفة مدى ثواب العالم المخلص.. حيث جاء في الحديث المأثور عن النبي -صلى الله عليه وآله-:

(أفضل العبادة الفقه)[٢].

(فضل العلم أحب إلى الله من فضل العبادة)[٣].

(من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طرقا إلى الجنة)[٤]. وقال الإمام علي -عليه السلام-:

(تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه-لمن لا يعلمه-صدقة)[٥].

وحذر الإمام الصادق- عليه السلام- من الصفات التي تحول دون إخلاص العالم لعلمه والتي تؤثر سلبيا على نفسه العالم. فقال -عليه السلام-:

(الخشية ميراث العلم، والعلم شعاع المعرفة، وقلب الإيمان، ومن حرم الخشية لا يكون عالما، وإن شق الشعر في متشابهات العلم قال الله عزوجل: (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[٦].

وحد العلماء ثمانية أشياء: الطمع والبخل والرياء والعصبية حب المدح والخوض فيما لم يصلوا إلى حقيقته، والتكلف في تزيين الكلام بزوائد الألفاظ، وقلة الحياة من الله، والإفتخار وترك العمل بما علموا)[٧].

٢- تحديد المشكلة

لنعرف أولا أي موضوع مجهول نبحث عنه وأية مشكلة علمية نسعى لحلها، هذا أمر أساسي في البحث العلمي، ويقول عنه بعضهم:

(لا تجلس أبدا إلى العمل دون خطة محدودة و (دون) تحديد كمية معينة من العلم (العلمي) لإنجازها)[٨].

ولعل هذه الحكمة المنهجية هي التي يسميها الرسول -صلى الله عليه وآله- (حسن المسألة) فيقول عنه:

(التودد إلى الناس نصف العقل، وحسن المسألة نصف العلم، والتقدير في النفقة نصف العيش)[٩].

٣- البحث عن الممكن

---

[١] -كلود برنارد/ مقدمة لدراسة الطب التجريبي (عن المنطق الإسلامي للمؤلف/ ص ٣٠٣.

[٢] - بحار الأنوارج١ ص ١٦٧.

[٣] - المصدر.

[٤] - المصدر/ ص ١٦٦.

[٥] - المصدر/ ص١٦٦.

[٦] - فاطر/ ٢٨.

[٧] - بحار الأنوار/ ج ٢-ص٥٢.

[٨] - العمل والمخ/ ص ١٤٠.

[٩] - تحف العقول/ ص ٤٥.

في الحديث الذي نقلناه آنفا عن الإمام الصادق–عليه السلام– قرأنا أن واحدا من مشاكل العلماء: الخوض فيما لم يصلوا حقيقة. ويتحقق ذلك في الصور التالية:

(ألف–) أن يكون مستوى الباحث الشخصي دون العلم الذي يتكلفه. فطالب في الإبتدائية لا يجوز له البحث عن نظريات الفيزياء الذرية، وإن فعل لم يبلغ العلم بل وربما يشوش ذهنه أيضا.

ولعل الآية التالية تشير إلى ذلك.

(يا أيها الذي آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور رحيم، قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين)[١].

إن أولئك سألوا عن علم لم يبلغوا مستوى احتماله، فكفروا به.

وهكذا جاء في الأحاديث النهي عن تحميل الجهال الحكمة الإلهية وتقول: (لا تمنحوا الجهال الحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم)[٢].

وجاء في حديث آخر: (إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)[٣].

(باء–) قد يكون مستوى العلم البشري لما يبلغ موضوعة مجهولة، مثلا: علم البشر، اليوم لم يتمكن من تحديد وسيلة لمعرفة أعماق الفضاء الرحيب فلا يجوز التسرع في إعطاء أحكام معينة.

ولعل الحديث التالي يشير إلى ذلك:

(لا تبحث عما لم يكن ففي الذي كان لك شغل)[٤].

(جيم–) وقد يكون البحث عن أشياء أساسا عن إحاطة البشر فيقع الإنسان في سلسلة لا تنتهي من الأخطاء، بل قد يؤدي به ذلك إلى تعطيل الذهن كليا.

مثلا: التفكير في ذات العقل يسبب الخطأ في معرفته، وقد سبق الحديث عن ذلك.

كذلك التفكر في ذات الله يسبب الحيرة والزندقة، لأن عقل الإنسان لا يستطيع استيعاب كل مخلوقات الله فكيف بذات العزة؟

وقد جاء في الحديث الشريف.

(من نظر في ذات الله كيف هو هلك)[٥].

وجاء في حديث آخر:

(إياكم وأصاب الخصومات، والكذابين، فانهم ما أمروا بعلمه حتى تكلفوا علم السماء)[٦].

(دال–) وقد تكون القدرة البشرية كافية، وحتى قدرة الفرد العلمية ولكن وسائل البحث غير مكتملة، فيتسرع في الحكم كما يستعجل الفرج في اقتطاف الثمرة قبل نضجها. ويقول ربنا سبحانه:

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه)[٧].

٤– تجنب الريب

---

[١] – المائدة/ ١٠١–١٠٢.

[٢] – بحار الأنوار/ ج ٧٨ ص ٣٠٣.

[٣] – بحار الأنوار/ ج١ ص ٨٥.

[٤] – بحار الأنوار/ ج١ ص ٢٢٣.

[٥] – أصول الكافي/ ج١ ص ١٢٦.

[٦] – بحار الأنوار/ ج٢ ص ١٢٩.

[٧] – طه/ ١١٤.

ترى البعض يفقد الثقة بذاته فيستمر في الشك، ويبالغ في الحذر من الخطأ حتى يفرط فيه فلا يؤمن بشيء ابدا مثل السوفسطائيين وهذا بدوره خطأ منهجي جسيم.

إنما علينا إذا توفرت الشروط الموضوعية للقين أن ندع الإفتراضات البعيدة التي لا يعتني بها العقل ولا يعترف بها العقلاء أن ندعها جانبا ونتمسك باليقين.

بلى، إن الشك قد يتفق وهوى النفس البشرية مثل الشك في القيادة عندما تختلف معها، أو عندما تأمرنا بعمل صعب، أو الشك في الواجب الشرعي حينما يكون ذات صعوبة بالغة، من هنا جاء في الحديث الشريف عن الإمام أمير المؤمنين -عليه السلام-:

(لا تجعلوا عملكم جهلا، ويقينكم شكا، إذا علمتم فاعملوا، وإذا أيقنتم فأقدموا)[١].

وروي عنه -عليه السلام-:

(لا ترتابوا فتشكوا، ولا تشكوا فتكفروا)[٢].

٥- الاعتراف بكل المناهج

المناهج العقلية هي السبل التي يسلكها فكر الإنسان لبلوغ حقائق الخليقة، ولا يجوز أن نكفر بمنهج فنسد عن انفسنا بابا يؤدي إلى علم حقيقة، كلما لا يجوز لنا ان نجمد على مجموعة مناهج ونكفر بذلك العقل الذي عرفنا هذه المناهج.

أرأيت الذي لا يبصر بعينه، أولا يسمع بأذنه كيف يغلق بابا إلى عقله فتحه اله له، كذلك الذي يكفر-مثلا بالمنهج التجريبي أو المنهج التعقلي، فإنه يغلق مقل ذلك الباب.

ولأن حقائق الكون مختلفة، فإن المناهج المؤدية إليها متنوعة أيضا فبعضها تعرف عبر منهج دون آخر-كالرياضيات-لا تنفعها التجربة، وبعضها بالعكس مثل الكيمياء فإن منهج التجارب أقرب إليها. وأغلب الحقائق بحاجة إلى تلفيق المناهج ببعضها.

وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام-:

(أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب، وجعل لكل سبب شرحا، وجعل لكي شرح مفتاحا، وجعل لكل مفتاح علما، وجعل لكل علم بابا ناطقا)[٣].

الفصل الثاني:

المناهج الخاصة

تمهيد

بعد بيان أهمية معرفة العلوم القرآنية، ودورها في استنباط الحكم الشرعي نبين -بحول الله-ضرورة معرفة متغيرات الزمان التي تتصل بالحكم الشرعي وبالذات في الحوادث الواقعة، ثم نعرج إلى الحديث عن صفات الفقيه الذي يجوز له استنباط الحكم الشرعي، وهكذا سوف نستعرض حقائق هذا الباب ضمن ثلاثة بحوث:

١- معرفة العلوم القرآنية.

---

[١] - نهج البلاغة/ حكمة ٢٧٤ ص ٥٢٤.

[٢] - بحار الأنوار/ ج٢- ص ١٦٨.

[٣] - بحار الأنوار/ ج٢- ص ١٦٨.

٢- معرفة الحوادث الواقعة.

٣- صفات الفقيه.

١/ معرفة العلوم القرآنية

من خصائص الحكم العقلي، وضوحه وتعاليه عن الريب وما يبعثه في النفس من سكينة ويقين، وإنه لا يختلف مع سائر الأحكام العقلية، ولا تتناقض مع ذاته في الظروف المختلفة، ولا يختلف العقلاء فيه أنى تعددت مشاربهم وإنتماءاتهم.

ولا يبلغ العقل مثل هذه الأحكام-عادة-إلا بعد الإحاطة علما بكل المواد الضرورية للحكم..

فمن اراد استنباط حكم شرعي من القرآن الكريم يحكم عقله بأ، عليه أن يؤتى أولا علم القرآن، وعلم القرآن بدورهيعتمد على معرفة اللغة العربية التي نزل بها القرآن، قال ربنا سبحانه.

(قرآنا عربيا غير ذي عوج)[١].

وعليه أن يعايش آيات الذكر حتى يعرف ظلال الكلمات ومعاريض الحروف، وآفاق البلاغة، وطيف الإشارات واللطائف التي فيه.

أليس القرآن قمة البلاغة التي لا تدانى.. فهو لا يؤدي الموضوع فقط، وإنما يحيط به بيانا، ويلفه بحزمة ضياء، لا يدع جانبا منه في طلا. وقد قال ربنا سبحانه:

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكّر)[٢].

وإن لغة القرآن تعرف بذاتها.. (بعد الإحاطة علما باللغة العربية) فبعضها يفسر بعضا. وسياق آياتها يفسر محتوياتها. وجرس كلماتها يقرع القلب بإشاراتها وإمثلتها وقصصها وبصائرها.

وعند تدبره للقرآن يستثير كوامن عقله، وحفز دافائن وجدانه، حتى تجلو بصيرته بآياته ويستخرج به معادن قلبه. وقد قال ربنا سبحانه:

(ألا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[٣].

وعلم القرآن يستدعي علم ناسخة ومنسوخة، عامة وخاصة، محكمة ومتشابهة، وذلك يتم بدراسته والتدبر فيه، كما يتم بمراجعة السنة المباركة التي هي تفسيره.. من كلمات الرسول وأهل بيته..

وإن القرآن لا يختلف عن السنة، فهو الينبوع الصافي لها وهي الرافد المنبعث منه. والذين يضربون السنة بالقرآن يحجبون عنهما جميعا.

فلا بد أن نقرأ السنة كما لو أنها تفسير للقرآن، ونقرأ القرآن بما لها من إشعاع يتجلى في تفسيرات السنة الشريفة بعضها من بعض،[٤] لا يختلفان حتى يردا على الرسول الحوض كما قال -صلى الله عليه وآله- (اني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض).

وقد سبق في فصل القرآن بعض الحديث في هذا الأمر.

---

[١] - الزمر/ ٢٨.

[٢] - القمر/ ١٧.

[٣] - محمد/ ٢٤.

[٤] - في هذا المعنى يقول الشاطبي: (محال ان تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها. فمن أخذ بنص مثلا في جزئي معرضا عن كلية فقد اخطأ وما ان من أخذ بالجزئي معرضا عن كلية فهو مخطئ (الموافقات/ ج٣ ص ٨) وتجد في الجزء حديثا مفصلا حول ضرورة الجمع بين القواعد العامة وادلة الفرع الجزئية. فليراجع.

والسنة كلها تفسير للقرآن.. حتى ولو لم يذكر في الخبر من أين اقتبس محتواه من الكتاب، ولكن النبي وأهل بيته –عليهم صلوات الله– بينوا أن علمهم من القرآن كما سيأتي. ولعيه فإن علينا مراجعة الروايات التي تحدثنا عن الفروع بصفتها تفسيرا لآيات الذكر. ونسعى جهدنا لوصلها بتلك الآيات التي استلهمت منها. ولعل هذا هو مراد الأئمة عليهم السلام حينما أمرونا بعرض كلماتهم على كتاب الله: فما وافقه أخذ به وما خالفه رد إلى أهله..

ومن هنا فلا يمكن الاستغناء عن القرآن بالروايات التي تبين حكم الفروع، كما لا يمكن الإستغناء عن الأخيرة بالقرآن. ولعل فقهاءانا–رضوان الله عليهم–كانوا يرجعون إلى هذا الأصل حينما يعرضون عن رواية صحيحة لأنها كانت مخالفة لما وعوه وعرفوه من روح الشريعة، وقيم الوحي.. ولعل تعبيراتهم بأنها مخالفة لمرتكز المتشرعة، أو أنها تخالف شم الفقاهة، أو أنها من أخبار الأحاد فلا يؤخذ بها لعلها كانت تعني مخالفة الرواية لجوامع العلم وأصول الفقه التي عرفوها من الكتاب والسنة.

٢– معرفة الحوادث الواقعة

ومعرفة الزمان، والعرف والضرورات والحاجات هي محتوى الفتاوى التي تتصل بالحوادث الواقعة. ولذلك يحكم العقل بلزوم الإحاطة علما بها قبل إصدار أي فتوى.. لأن الفتوى هي الحكم الجزئي الذي يتركب من أمرين الأول: مصادر التشريع. الثاني: تحديد الموضوع. ولا يمكن تحديد الموضوع من دون معرفة المتغيرات، ببديهة الوجدان وشهادة العقل، وحكم الوحي الذي أمرنا بأن نحكم بالعرف في قوله سبحانه.

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)[١].

كما امرنا باستخراج الحكم من القرآن فقال سبحانه:

(واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا هب ولو ردوه إلى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)[٢].

وواضح ان مثل هذه الأمور من شؤون السياسة والحرب ذات علاقة بالمتغيرات التي يحتاج علمها إلى العلم بالزمان والمكان والخصوصيات التي فيهما.

ثم إن حقائق الشريعة، ثابتة ومتطورة، وقد ذكر الوحي بالقسم الأول منها فعرفه الناس بنور عقولهم، واهتدوا إليه بحقائق ايمانهم، بينما أمر في القسم المتطور بالرجوع إلى أهل الذكر يستنبطونه من القسم الأول. ووضع لذلك شرعة ومنهجا.

وقد اختلط عند كثير من الباحثين أمر القسمين فتراهم يستصحبون ادلة القسم الثاني، للقسم الأول. حيث قال بعضهم بالقياس، وأضاف إليه البعض العرف والشرائع السابقة، والمصالح المرسلة، والإستحسان، وسد الذرائع. بينما هذه الادلة لا تكشف حكم الشرع، انما تحدد مجال تطبيقها. ولعل حجية الإجماع أيضا مخصوصة بهذه القسم إلا ما كان كاشفا عن حكم المعصومين بالضرورة.

ويبدو أن السبب في ذلك هو الإعتقاد بان أكثر احكام الشرع ثابتة لا تطور فيها. فلما أعوزهم الدليل على مفرداتها استعانوا بأدلة القسم الثاني فاختلط الأمر عليهم.. ولو أنهم ميزوا بين القسمين وعرفوا أن الثابت من الشريعة شيء قليل بالقياس إلى المتطور منها، لاستراحوا ولم يتكلفوا بإضافة أدلة لمعة ثوابت الشرع.

---

[١] – الأعراف/ ١٩٩.

[٢] – النساء/ ٨٣.

بلى، أصول الأدلة واحدة في القسمين، لأن محور الأدلة العقل، وهو الذي يهدينا إلى الشرع بعد أ، يستشيره الوحي، ولكن العقل لا يحكم بشيء لا علم له به. فلذلك يقسم الأشياء إلى قسمين: فمنها التي لا يحتاج العقل فيها إلى أكثر من مجرد التذكرة والإستشارة، مثل الإيمان بالله، وبرسله، وباليوم الآخر ومعرفة حسن العدل بينما أكثر الحقائق بحاجة إلى معرفة الظروف الخارجية للإفتاء بحكمها. فهل الله يرضى بالتصدي للرئاسة؟ بلى إن كنت من أهلها، وكلا إن لم تكن.

هل يرضى بأن يحكم بحسن التعاون بلى إن كان على البر والتقوى، وكلا إن كان على الإثم والعدوان.

هل الدين يأمر بالحرب؟ بلى إن كانت في سبيل الله، وكلا إن كانت بالعدوان. والسؤال: كيف نحدد الموضوعات الخارجية، وأن هذا الشخص يصلح للرئاسة وذلك لا يصلح، أو أن هذا الأمر بر وتقوى، وذاك إثم وعدوان، وأ، هذه الحرب في سبيل الله، وتلك في سبيل الطاغوت.

هنا ينبغي ان يستعين العقل بالعلم، فإذا كشف العلم أمر الموضوع جاء العقل المستنير بالشرع، ونطق بحكمه.

دعنا–إذا–نقسم الأحكام إلى ما هي مجال الشرع والعقل فقط، وما هي مجالها بالإضافة إلى العلم، ونسميها–اصطلاحا– بالأحكام العلمية.

في الأحكام العلمية قد نجد العلم الذي يكشف لنا الأمر بوضوح كامل.. تستريح إليه النفس وتمتلئ باليقين والسكينة، هنالك نعود إلى العلم راضين مرتاحين. وهذا يسمى بالرجوع إلى أهل الخبرة، لأنهم أهل العلم.

ولكن تحديد الموضوع بطريقة علمية ثابتة أمر نادر بينما أغلب الموضوعات الفقهية غامضة، فماذا نصنع فيها.

هنا ينبغي اتباع منهج العقلاء في معرف الحقائق لشادة العقل بأنها تقوم مقام العلم عند فقدانه أو تعسر الوصول إليه.

فإذا لم يجد العقلاء دليلا علميا يهديهم إلى طريقهم، سيهتدون–عادة– إلى أقوال المارة ويسألونهم أين الطريق حتى لو احتموا جهلهم أو تضليلهم.

ومن الطرق العقلائية في معرفة الحقائق:

اليد والبينة وأخبار الثقة واليقين السابق مما بينه الفقهاء في طرق الإثبات، ولا نريد الحديث فيها هنا.

ومنها: العرف وتجارب الآخرين.

والعرف حسبما عرفه البعض: ما تعارفه الناس وساروا عليه من قول أو فعل أو ترك، ويسمى العادة.[١].

وقال البعض بالعوائد، فقال الشاطبي عنها[٢]: (والعوائد) المتبدلة (اقسام) منها ما يكون متبدلا في العادة من حسن إلى قبح، وبالعس مثل كشف الرأس (للرجال) فانه يختلف، بحسب البقاع في الواقع، فهو لذوي المروءات قبيح في البلاد المشرقية (البلاد العربية الشرقية) غير قبيح في البلاد المغربية (المغرب العربي) فالحكم الشرعي يختلف بإختلاف ذلك (فيما يتصل بشرط المروءة في العدالة) فيكون عند أهل المشرق قادحا في العدالة، وعند أهل المغرب غير قادح.

ومنها ما يختلف في التعبير في المقاصد فتنصرف العبارة عن معنى إلى (معنى في) عبارة أخرى: إلى ان قال: والحكم أيضا يتنزل على ما هو معتاد فيه، بالنسبة إلى من اعتاده دون من لم يعتده، وهذا المعنى يجري كثيرا في الإيمان والعقود والطلاق كناية وتصريحا.[٣].

---

[١] – الأصول العامة للفقه المقارن/ ص ٤١٩ عن علم اصول الفقه لخلاف.

[٢] – المصدر عن سلم الوصول.

[٣] – الموافقات/ ج٢– ص ٢٨٤–٢٨٥.

ومنها ما يختلف في الأفعال في المعاملات ونحوها كما إذا كانت العادة في النكاح قبض الصداق قبل الدخول، أو في البيع الفلاني ان يكون بالنقد لا بالنسيئة، أو بالعكس أو إلى أجل كذا دون غيره. فالحكم أيضا جار على ذلك حسبما هو مسطور في كتب الفقه[١].

ثم قال: واعلم ان ما جرى ذكره هنا من اختلاف الاحكام عند اختلاف العوائد فليس في الحقيقة بإختلاف في اصل الخطاب، لأن الشرع موضوع على أنه دائم أبدي، ثم قال: وإنما معنى الإختلاف ان العوائد إذا اختلفت رجعت كل عادة إلى اصل شرعي يحكم به عليها[٢].

وهكذا يعتبر العرف حجة في امرين:

(الأول:) عندما يتحول إلى سيرة عقلائية تورث اليقين بالحكم الشرعي والحجة هنا العقل، وليس العرف.

(الثاني:) عندما يقوم بتحديد الموضوع (مناط الحكم) وذلك في المجلات التالية.

ألف: عندما ترك الشرع الحكم فيه للقيم دون أن يحدد حكما خاصا، مثل قوله سبحانه: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)[٣]. ما هو الإحسان؟ ومتى؟ وكيف؟ إنها قضايا عقلية يحددها العرف العام.

وقوله سبحانه: (لق أرسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)[٤].

وقوله سبحانه: (اعدلوا هو أقرب للتقوى)[٥].

وقوله سبحانه: (وبالولدين إحسانا)[٦].

ما هو القسط؟ وما هو العدل؟ وما هو الإحسان؟ غنما العرف يحدد كل ذلك فيما يتصل بالقضية المحددة.. وليس هذا من باب تحديد معنى الكلمات اللغوي، لأن مثل هذه الكلمات واضحة، وانما لتحديد المصاديق الخارجية لها.

باء: فيما هو راجع إلى العرف ذاتا مثل المعاملات التي الاصل فيها تبادل المصالح، وتحديد مصالح الناس، وطريقة ضمانها، راجع إلى العرف إلا إذا جاء نص صريح بخلافه.

وقد دلت آيات كريمة على ذلك كقوله سبحانه:

(يا ايها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)[٧].

إذا فسرنا العقود–كما هو الظاهر– بكل عقد يجري بين الناس.

وقال سبحانه: (إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم)[٨].

(يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض)[٩].

فالتجارة التي يتراضى الطرفان بها مقبولة شرعا ويعود أمرها إلى العرف لتحديد التراضي. والى ذلك يرجع: الشورى في السياسة.

---

[١] – الموافقات/ ج٢– ص ٢٨٤–٢٨٥.

[٢] – المصدر/ ص ٢٨٦.

[٣] – البقرة/ ١٩٥.

[٤] – الحديد/ ٢٥.

[٥] – المائدة/ ٨.

[٦] – الإسراء/ ٢٣.

[٧] – المائدة/١.

[٨] – البقرة/٢٨٢.

[٩] – النساء/ ٢٩.

جيم: فيما يرتبط بمعاني الكلمات، المفردة مثل كلمة الصعيد والاناء أو الهيئات المركبة والسياق ولطائف البلاغة والأمثلة وما أشبه، مما يعود إلى التفاهم حيث جاء القرآن بلسان عربي مبين، وتكلم الرسل مع الناس على قدر عقولهم.

فلا بد ان نرجع إلى الناس والى فهمهم العرفي في تحديد معنى الكلمات والتبادر الذي جعله علماء الأصول من أعظم شواهد المعنى واستخدام اللفظ فيه حقيقة. هو التبادر العرفي وليس الشخص لأن اللغة ظاهرة اجتماعية وليست حالة فردية، خاصة بإنسان دون آخر[١].

ومن أبعاد الرجوع إلى العرف الشورى، فإن حقيقة الشورى ليست استفتاء الناس في ثوابت الشريعة أو يجوز استفتاء الشعب في حرمة الخمر أو وجوب الفرائض؟ انما هي في المتغيرات كالحرب والسلم، ومناهج الاقتصاد مما يختلف عبر الظروف والعصور والأمصار، ولعل قوله سبحانه في صفة المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم)[٢] يهدينا إلى أن الشورى تهم أمور المؤمنين وليس أمر الله.

وحتى في أمور الناس الشورى تنقل إلى القيادة الرشيدة، (الخبرة) التي تحدد (مجال الحكم) و(موضوع القرار)، والقيادة الفقهية تستلهم (الحكم) الإلهي في ثوابت الشريعة أي من القيم العامة ومن النصوص الخاصة، ويصدر الحكم وقضي بالفتوى.

ويبدوا أن هذه الثنائية بين رؤية الناس ورأي الدين، هي التي تحل أعقد لغز في القضية الدينية وايت جعلت النصارى يفصلون بينهما بقولهم ماالله لله وما لقيصر لقيصر.

أما القرآن فيقول: (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه)[٣]، (لله الدين الخالص)[٤]، ويقول: (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين)[٥]، وبالتدبر في هذه الآية يتبين أن العزم والقرار النهائي بيد القيادة، أما الشورى فيه تمهد للقرار، أو تسهل تنفيذه.

والرجوع إلى العرف ينسجم مع بصائر القرآن عن العقل، وأنه نور إلهي يؤتيه من يشاء، وعن الفطرة وأنها تتوافق ودين الله القويم.

وقد تواترت آيات الكتاب التي تأمر بالرجوع إلى العرف واتخاذه ميزانا، كما استفاضت الآيات التي تستشهد بعقول أولي الألباب وتحاكم الخصوم بهذا الميزان القويم.

دعنا نتدبر في كلام ربنا لعله يهدينا إلى سواء السبيل.

لقد أمرنا الله بان نأمر بالمعروف، وهو ما يراه عقلاء الناس معروفا. فقال سبحانه:

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)[٦].

وعند الحديث عن الوصية المستحبة للأقربين ترك القرآن الأمر إلى المعرف أو إلى العرف، فقال سبحانه: (كتب عليكم إذا حضر احدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين)[٧].

كذلك عند بيان مهر بعض النساء ترك الأمر إلى العرف، وكيف يحدد مقدار المهر فقال سبحانه:

(ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين)[١]

---

[١] – راجع في هذا الموضوع الاصول العامة للفقه المقارن/ ص ٤٢٢-٤٢٣ والموافقات ج٢/ ص ٨٥.

[٢] – الشورى/ ٣٨.

[٣] – يوسف/ ٤٠.

[٤] – الزمر/ ٣.

[٥] – آل عمران/ ١٥٩.

[٦] – الأعراف/ ١٩٩.

[٧] – البقرة/ ١٨٠.

كذلك عند بيان متاع المطلقات ومقداره أوكله إلى العرف، فقال سبحانه (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين)[٢].

وكذلك عند حكم المطلقة مرتين حيث اوجب التعامل معها بالمعروف، فقال تعالى: (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)[٣].

وكذلك أمر معاشرة النساء بالمعروف فقال سبحانه:

(يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف)[٤].

وكذلك في التعامل مع الناس في مختلف شئون الحياة، أمر أن يكون بالمعروف فقال سبحانه:

(يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فمن عفي له من أخيه شيء فإتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان)[٥].

٤- صفات الفقيه

هل يستطيع كل مدع أن يبلغ مستوى تلقي أحكام الشريعة ؟ كلا، لأن نور الوحي -تماما-كنور العقل، موهبة إلهية لا يتلقاها الا القلب الشهيد والاذن الواعية، والنفس الزكية والروح النقية.

يقول ربنا سبحانه:

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة فولا نفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين لينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)[٦].

وهكذا كان الحذر من الله، المنبعث من إنذار الفقهاء هو الهدف الأسمى للتفقه في الدين مما يهدينا إلى أن الفقيه ليس كل من عرف دقائق الفروع. بل الذين يسموا إلى مستوى المنذرين، في خشية الله والإخلاص له.

وقال ربنا سبحانه:

(انما يخشى الله من عباده العلماء)[٧].

وهكذا نعرف ان القلب القاسي لا يتلقى علم الرب.

وقال سبحانه:

(وليعلم الذين أتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنا به فتخبت له قلوبهم)[٨].

وهكذا الإخبات يكون نتيجة العلم والإيمان، ومن دونه كيف يتفقه المرء في دين الله؟..

وإذا كان الهوى يضل الإنسان عن سبيل الله، فإن اتباع الحق يهديه باذن الله إلى نور المعرفة ولذلك نهى الله نبيه داود عن اتباع الهوى بعد أن جعله خليفة في الأرض وقال سبحانه:

(يا داود انا جاعلك خليفة في الأرض فأحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)[٩].

---

[١] - البقرة/ ٢٣٦.

[٢] - البقرة/ ٢٤١.

[٣] - البقرة/ ٢٢٩.

[٤] - النساء/ ١٩.

[٥] - البقرة/ ١٧٨.

[٦] - التوبة/ ١٢٢.

[٧] - فاطر/ ٢٨.

[٨] - الحج/ ٥٤.

[٩] - ص/ ٢٦.

وقد بين الله سبحانه شروط العلماء الذين يحق لهم حكم المسلمين بكتاب الله التوراة) فقال سبحانه:

(إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون)[١].

فهناك اربعة شروط نستوحيها من هذه الآية الكريمة:

كتاب الله والشهادة عليه، وخشية الله دون الناس، ومقاومة إغراءات المادة أو الزهد في ثروات المترفين وتحدي ضغوط الطغاة).

ويبدو من آية كريمة ان الفقيه ليس سوى العالم بالله، المتبتل اليه، قال ربنا سبحانه:

(أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هول يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب)[٢].

ويبقى العالم في حصن الله ما لم يتبع هواه، فإذا اتبع هواه انسلخ عنه، وكان (مثله كمثل الكلب) أو (كمثل الحمار يحمل اسفارا).

قال الله سبحانه:

(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها.. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد إلى الارض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث)[٣].

وقال عز من قائل:

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين)[٤].

إن شريعة الإسلام مستوحاة من معارف القرآن، وهي -بدورها- بجليات لنور معرفة الله، ومعرفة الله انما تعمر قلوب الخاشعين. كذلك قال الإمام الصادق-عليه السلام- فيما روي عنه:

(فإن اردت العلم فاطلب أولا في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم بإستعماله، واستفهم الله يفهمك)[٥].

ولعل التعبير الشائع في روايات أهل البيت (العلم بالله) يدل على ذلك وأن العلم الحق هو الذي يكون بالإستعانة بالله.

فقد روي عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- انه قال: (وأما علامة العلم فأربعة: العلم بالله، والعلم بمحبيه، والعلم بفرائضه، والحفظ لها حتى تؤدى)[٦].

ويفسر حديث مأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام- ذلك بالقول: (ان أعلم الناس بالله أخوفهم لله، وأخوفهم له أعلمهم به، وأعلمهم به ازهدهم فيها)[٧].

وروبي عنه -عليه السلام-:

(الخشية ميراث العلم، والعلم شعاع المعرفة، وقلب الإيمان، ومن حرم الخشية، لا يكون عالما)[١].

---

[١] - المائدة/ ٤٤.

[٢] - الزمر/ ٩.

[٣] - الأعراف/ ١٧٥-١٧٦.

[٤] - الجمعة/ ٥.

[٥] - الحياة/ ج٢ ص ٢٧٥.

[٦] - الحياة/ ج٢-ص ٣١٣.

[٧] - المصدر ولعل المراد في الدنيا.

ومن أبرز حقائق العلم بالله الزهد في الدنيا، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة وهو حجاب كثيف بين القلب وحقائق المعرفة. وهكذا روي عن الإمام الصادق–عليه السلام–.

(من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأ،طق بها لسانه وبصره عيوب الدنيا، داءها ودواءها، وأخرجه الله من الدنيا إلى دار السلام)[٢].

وروي عن المسيح عليه السلام قوله:

(وكذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات، ويدنسها الطمع، ويقسيها النعيم، فسوف تكون أوعية للحكمة)[٣].

وروي عن الإمام الصادق–عليه السلام–:

(لا يكون الرجل فقيها حتى لا يبالي أي ثوبيه ابتذل، وبما ساد فورة الجوع)[٤].

الفقيه الذي تشع الحكمة من مشكاة قلبه هو الذي أيقن بأن القرآن كتاب ربه، فاطمئنت نفسه به، ورغبت عما سواه، واستوقفت بينه وبين كتاب ربه عرى الحب والاحترام.

روي عن الإمام أمير المؤمنين–عليه السلام–.

ألا أخبركم بالفقيه حقا؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره)[٥]

وإذا بلغ الفقيه هذه الدرجة جرت ينابيع الحكمة في قلبه وألهمه الله سبحانه الحق في الأمور..

روي عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال:

(اعرفوا منازل شيعتنا بقرد ما يحسنون من رواياتهم عنا، فانا لا نعد الفقيه منهم فقيها حتى يكون محدثا، فقيل له: أو يكنون المؤمن محدقا؟ قال: يكون مفهما (و) المفهم المحدث)[٦].

الفصل الثالث:

المارات أو المناهج العرفية

ما هي الامارات؟

عندما يبين الفقهاء حجية الظواهر– ظواهر الكتاب بالذات– تراهم يستشهدون على ذلك بانها من الطرق العقلائية في التفاهم. مثلا يقول العلامة محمد تقي الحكيم:

(حجية الظواهر: وهي اوضح من ان يطال فيها الحديث ما دام البشر في جميع لغاته قد جرى على الأخذ بظواهر الكلام، وترتيب آثارها، ولوازمها عليها، بل لو أمكن ان يتخلى عنها لما استفهام له التفاهم بحال.. لان ما كان نصا في مدلوله مما ينتظم في كلام لا يشكل الا اقل القليل.

---

[١] – المصدر/ ص ٣١٦.

[٢] – المصدر/ ص ٣١٧.

[٣] – المصدر/ ص ٣١٨.

[٤] – المصدر/ ص ٣٢٠.

[٥] – المصدر/ ص ٣٢٣.

[٦] – المصدر/ ص ٣٥٩ نقلا عن موسوعة بحار الانوار ج٢–ص ٥١.

وبالضرورة ان عصر النبي -صلى الله عليه وآله- ما كان بدعا مهن العصور لينفرد به النسا في اساليب تفاهمهم بنوع خاص من التفاهم لا يعتمد الظهور ركيزة من ركائزه، وما كان للنبي طريقة خاصة في التفاهم انفرد به من معاصريه، وإلا لكانت احدوثة التاريخ، فالقطع بإقرار النبي لطريقتهم في التفاهم كاف في إثبات حجية الظواهر)[١].

وحينما يستدل الفقهاء على حجية الاستصحاب تراهم يعتمدون مرة أخرى على بناء العقلاء، فيقول العلامة المظفر (قدس سره) في ذلك

(لا شك في ان العقلاء من الناس على اختلاف مشاربهم وأذواقهم جرت سيرتهم في عملهم وتبانوا في سلوكهم العملي على الاخذ بالمتيقن السابق عند الشك اللاحق في بقائه. وعلى ذلك قامت معايش العباد، ولولا ذلك لاختل النظام الاجتماعي ولما قامت لهم سوق وتجارة)[٢].

وفي معرض حديثه عن حجية الخبر الواحد يقول: (انه من المعلوم قطعا الذي لا يعترية الريب استقرار بناء العقلاء، طرا واتفاق سيرتهم العملية على اختلاف مشاربهم واذواقهم على الاخذ بخبر من يثقون بقوله ويطمئنون إلى صدقه ويأمنون إلى كذبه. وعلى اعتمادهم في تبليغ مقاصدهم على الثقات. وهذه السيرة العملية تجارة حتى في الاوامر الصادرة من ملوكهم وحكامهم وذوي الأمر منهم)[٣].

ويقول العلامة الأصفهاني عند بيان حجية اليقين (وهو عنده غير العلم): (لما كان احتمال الخلاف غير موجود عند وانجده، ولا يرى نفسه إلا مصيبا كان حجة بالفطرة العقلائية، إذا كان حاصلا عن الاسباب العقلائية طابق الواقع أو خالف فإن العقلاء يجرون عليه ويحرزون به الواقع، وهو -بعد العقل والعلم المعروف بالفطرة- لك احد، احكم الطرق العقلائية واتقنها إذا كان عن منشأ عقلائي، بخلاف ما إذا كان ناشئنا عن منشأ غير عقلائي، فانه لا حجية له عندهم، ويذمون من جرى على طبقه، ولهذا يلومون الوسواسين والقطاعين في الجري على طبق يقينهم)[٤].

وحكي عن العلامة النائيني انه قال في مقام الحديث عن حجية الامارات ورد بعض المناقشات فيها قال:

(هذا الإشكال على تقدير تسليمه، انما يختص بخصوص ما إذا جعل الشارع حجية امارة ابتداء، وهذا فرض غير واقع في الشريعة. واما إذا كان جعله عبارة عن امضائه لما جعله العقلاء حجية معتبرة عندهم في عرض الطرق العليمة لما يرون ان اصابته للواقع ليس بأقل من اصابتها)[٥].

وقال بمناسبة أخرى:

(واذا كانت الطرق المجهولة طرقا عقلائية ولم يكن للشارع بالإضافة اليها تصرف الا امضاؤها، فلا بد وان يكون المجعول محض صفة الطريقية والمحرزية، ضرورة أن جعل الأحكام التكليفية في موارد تلك الطرق غير محتمل من العقلاء بالكلية، بل شأنهم إنما هو إلغاء احتمال الخلاف الموجود في موارد تلك الطرق وجعله كالمعدم، والمعاملة معها معاملة الطرق العلمية)[٦].

وهكذا نجدهم -رضوان الله عليهم- يجعلون الطرق العقلائية اصلا في حجي الامارة، فما هي الطرق العقلائية وكيف اصبحت حجة، واذا عرفنا حجيتها افلا ينبغي لنا ان نعمدها في كل المجالات وكيف؟

---

[١] - محمد تقي الحكيم/ الاصول العامة/ ص ١٠٢.

[٢] - محمد رضا المظفر/ اصول الفقه/ ج٢- ص ١٤٤.

[٣] - المصدر/ ص ٨١.

[٤] - ميرزا مهدي الأصفهاني (قدس سره) / معارف القرآن/ ص ١٤٤.

[٥] - اجود التقريرات للمرجع الخوئي/ ج٢- ص ٦٥.

[٦] - المصدر/ ص ٧٥.

نعود– للإجابة عن هذه المسألة– إلى البصائر التي سبقت الإشارة اليها، وابرزها ان حكمة ابتعاث الرسل تتمثل في إثارة عقل الإنسان وتنوير ركائز وجدانه، وتذكره بما نسي من فطرته لم يكن الشرع بديلا عن العقل، بل مكملا له.

وكذلك بالنسبة إلى العقلاء وأعرافهم الحميدة، ومناهجهم الرشيدة، فلم يأت الشرع لإنكارها، بل لتزكيتها وتنمية الجوانب الإيجابية فيها. لذلك فانه أمر بالعرف، واستشهد بوجدان ذوي الألباب.

ولم نفهم من عقولنا أن مراد الشرع منا أكثر من تحري أوامره ونواهيه بالسبل العرفية التي يجري عليها العقثلاء وهكذا نعرف– من وجدان عقولنا–أن من تحرى عن أحكام دينه بهذه السبل فهو قد أبرأ ذمته، وأدى واجبه.

فمن سمع من ثقة خبرا، ولم كن هناك ما يدعو إلى الريب في كلامه عرفا فلم يعمد به كان عند العقلاء ملموما وغير معذور، وعكسه صحيح أيضا: فلو عمل بكلامه برئت ذمته، وقبلت حجته، وهكذا فإن أدلة الإشتغال أو البراءة، هي الأخرى محمولة حسب الفهم العرفي ايضا، واذا لا دليل على اشتغال ذمة المكلف بأكثر من القدر العرفي فيكفي فيه البراءة بذات الطريقة.

ولما استقرأنا سبل الشرع في إبلاغ أحكامه، لم نجده يشذ عن تلك السبل العقلائية، بل أمضاها وأكد عليها في مناسبات شتى فعلمنا من استقرائها جميعا، علم اليقين بأنه مضى على نهجهم، وأمضى سننهم، ولم يبتدع نهجا جديدا ولا ارتدع عن نهج ارتضاه العقلاء في تعاملهم مع بعضهم.

بلى نجد الشريعة تنهى عن القياس في الدين، وعن الأخذ بقول الفاسق، وعن اتباع الهوى، وعن اتباع اصحابه، مما نعرف – بعد النظر وبعد تذكرة الشارع المقدس– نعرف أنها ليست من السبل الرشيدة عند العقلاء، فقد يقيس البعض في أمور تافهة ولكنهم لا يستعملون القياس مثلا في الأمراض الخطيرة، وفي الحروب، أو في مصالحهم العامة، وكذلك لا يأبهون بخبر الفاسق الكاذب أو صاحب الهوى في قضاياهم الرئيسية.

وبما ان الدين هو من اهم قضايا البشر لم يجز القياس فيه، أو قبول خبر الفاسق أو ما اشبه.

على ان القياس يجوز فيما يبلغه عقل الإنسان اما فيما سواه فلا تجد عاقلا يرتضيه.

وصفوة القول: ان العقل يحكم بأن، الشرع المقدس يعتمد في إبلاغ أحكامه على السبل العقلائية، لأن تلك السبل مما يعتبر سبيلا–عند العقل–إلى المرادات.. ونصوص العمل بالعرف المعروف، وأوامر التعقل والتذكر، والتيقن في الأمور، وما أشبه، شواهد على هذه الحقيقة، قال الله سبحانه: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)[١].

(يا أيها الذين آمنوا إ جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)[٢].

حيث إن التبين ليس أكثر من التحري عن الحقيقة بالسبل العقلائية.. وقال سبحانه:

(شهادة بينكم إذا حضر احدكم الموت حين الوصةي اثنان ذوا عدل منكم)[٣]

(يا أيها الذي آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه)[٤].

حيث ان شهادة العدلين، أو عدل خبير، أو شهادة الكتابة، كل ذلك من السبل العقلائية التي تورث الطمأنينة في النفس..

وقال سبحانه:

(ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين)[٥].

---

[١] – الأعراف/ ١٩٩.

[٢] – الحجرات/ ٦.

[٣] – المائدة/ ١٠٦.

[٤] – البقرة/ ٢٨٢.

[٥] – التوبة/ ٦١.

حيث تدل الآية على تصديق قول المؤمنين.

وهناك آيات كثيرة تنعت المكذبين بأسوار النعوت، مما يشمل ايضا الذي يكذبون بالحقائق التي تبلغهم حسب السبل العقلائية.

قال سبحانه:

(أم لم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه)[١].

وقال تعالى:

(بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه)[٢]

والآية التي تأمرنا بإتباع احسن القول بعد الإستماع، اليه، تشهد ابن على الإنسان ان يعمل عقله ويتحرى بالسبل المعروفة حتى يصل إلى الحقيقة قال الله تعالى:

(فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)[٣].

بصائر في المناهج العرفية

ومما سبق يستبين لنا الحقائق التالية:

(أولا:) إذا امكن للانسان أن يبلغ العلم اليقين بالمناهج التي تحدثنا عنها في بحوثنا السابقة، بلا حرج أو مشقة، فعليه ألا يكتفي بالسبل العقلائية غير العلمية. إلا إذا جاء تصريح من لدن الشارع بجواز ذلك تسهيلا للناس، وأكثر الإمارات تدل على صحة الإعتماد عليها حتى عند امكانية الحصول على العلم مع حث وتحريض على تعلم العلم.

(ثانيا:) إن كل سبيل اعتبره العقلاء وسيلة للتعرف على الحقيقة، واورث الطمأنينة لكل إنسان معتدل الرؤية،.. كفاه والفرق بينه وبين العمل بالظن عموما في امرين:

(الأول:) في ان مرادنا من الطمأنينة) ما يلغي العقلاء الاحتمال المضاد بينما مرادهم من الظن مطلق الرحان في جانب ولو كان بنسبة ٥١% والواقع ان هذا المقدار من الظن لا يكفي عند العقلاء.

(الثاني:) ان المعيار عندنا ليس الطمأنينة عند الشخص، بل لا بد ان تكون بحيث يبعث الطمأنينة، في نفس كل إنسان لو كان في ظروف هذا الشخص.

والفرق واضح بين الأمرين: فإذا قلنا بحجية كل ظن شخصي كان علينا الإلتزام بحجية الظنون الآتية من مصادر غير عقلائية، مثل الجفر والرمل والرؤيا، وخبر غير الثقة والقياس وما أشبه، ولا دليل على صحة مثل هذه الظنون أبدا.

بينما إذا قلنا بحجية الطرق التي تورث الطمأنينة عند العقلاء فإن أمثال تلك الظنون تستثني بالطبع! ويكون الدليل على صحة الإعتماد عليها حكم العقل بإعتماد الشرع على سيرة العقلاء في محاوراتهم وطرق الإثبات عندهم.

(ثالثا:) لأن الإمارات العقلائية تعتمد على أساس سيرة العقلاء وسنتهم، فإن هناك استثناءات معينة عليها مثلا: ليس كل خبر حكاه الثقة حجة، فإذا كانت القضية من النوع الذي تحتاج إلى أكثر من ثقة واحدة كالأخبار بوقوع حرب عظيمة ونحن لم تردنا اخبار أخرى بها، فإن العقلاء لا يعتمدون كلام الثقة في مثل هذا المورد، لان هذه القضية مما لو كانت لبانت لكثير من الناس فبعد أخبار غيره نشك في أخباره.. ولعل امره الهلال من هذا النوع أن لو رآه واحد لرآه خمسون، فلو أخبرنا الثقة به ثم لم يصدقه الآخرون لا يحصل للعقلاء طمأنينة كافية بإخبار الثقة به.

---

[١] – المؤمنون/ ٦٩.

[٢] – يونس/٣٩.

[٣] – الزمر/ ١٧-١٨.

وكذلك في الإجماع حجة إذا كشف عرفا عن حكم المعصوم، كما إذا كان الاجماع في موضوع مبتلى به، وكان الإجماع من لدن قدماء الاصحاب، ولم كن هناك احتمال عقلائي قوي بان يكون منشأ الإجماع حالة نفسية– مثل الغو في الدين، أو التقصير في امره– مثل هذا الاجماع حجة، لماذا؟ لأنه يورث طمأنينة عند العقلاء وهي تعتبر حجة عقلية..

أما الإجماع الذي لا يرقى إلى هذا المستوى، فانه ليس بحجة.

وكذلك امارات الإثبات مثل اليد فهي حجة عرفا فيما لو اورثت الطمأنينة عند العقلاء، اما لو لم تفعل ذلك مثلما لو كانت الأيادي الظالمة كثيرة فإن الثقة بها مفقودة وتسقط–بالتالي– عن حالة الحجية عند العقلاء.

وهكذا الاصول فالاستصحاب حجة عند العقلاء عندما يكون احتمالا استمرار الشيء قويا. اما عند قوة الإحتمال المعاكس فإن حجيته مشكوكة مثلا.. لو دخل أحد بلدا فرآه على هيئة ثم -بعد غيبة خمسين سنة عنها– عاد اليها ثانية فإن بقاء ذات الهيئة في مثل الحياة الحاضرة بعيد، وعليه فاستصحابه لا يكون حجة..

(رابعا:) وفيما يتصل الحكم بإستنباط الحكم الشرعي من الأدلة التفصيلية، التي تعتمد على الإستلهام من الأدلة التي تهدينا إلى الحكم الشرعي. فإن تراكم الأدلة والشواهد والمؤيدات إذا بلغ حدا كافيا لطمأنينة النفس عند أغلب الناس يكفي حجة شرعية.. ولا يجز الإنتظار حتى يحصل المستنبط على دليل قاطع واحد مما ذكر في الأصول. فقد يكون اجتماع الشواهد والمؤيدات عنده يعطيه طمأنينة كافية بينما مفردات هذه الشواهد لا تعطيه مثل ذلك.

(خامسا:) ينبغي ألا يلاحظ المستنبط في استفادته الحكم وضعه عند الإحتجاج على غيره فإن الإنسان قد يقتنع بفكره بشواهد معينة ولا يستطيع إقناع الآخر بها أما بسبب ضعف مستوى ذاك أو عدم القدرة على البيان عند هذا..

ولا ريب أن من أسباب الخطأ تحديد الفكر في قالب أفكار الآخرين، ولعل هذا هو الحكمة من تحريم المراء في الدين وانه يسبب الشك.

الفهرس

المقدمة

الباب الأول: بين العقل والشرع

الفصل الأول: ما هو العقل؟

تمهيد

العقل في بصائر الوحي

– الإمام الكاظم يصف العقل

– الله تعالى يبشر العقلاء

– الوحي يكمل العقل

– كيف كمل الوحي عقل الإنسان؟

– حجة ظاهرة وحجة باطنة

- صفات العقل
- العقل وسيلة الطاعة
- كيف ننمي موهبة العقل؟

العقل في المصطلح البشري

- بين العلم والقطع

الفصل الثاني: العقل يهدي إلى الشرع

جور العقل في حقائق الوحي

١/ تصديق الوحي

٢/ فقه الأحكام

- استنباط الفروع من الاصول
- بين الإستنباط والقياس

الفصل الثالث: الشرع يكمل العقل

تمهيد

ايقاظ العقل

تزكية النفس

-بين العلم والهوى

-شهوات الهوى

تنمية الارادة

معارف القرآن تزيد العقل

الفصل الرابع: الأحكام العقلية

تمهيد

أسئلة حائرة

١/ هل يجب إتباع الأحكام العقلية؟

٢/ التطابق بين العقل والشرع د

-أدلة الأستاذ النائيني

٣/ مناهج القياس

-الأخطاء والإختلاف

-خفاء الملاكات الشرعية

-خلاصة الأفكار

٤/ هل يجوز التعبد بالقطع؟

-أدلة المحدثين في التقييد

-مناقشة الاحاديث

القياس عند الإمام علي–عليه السلام–

نصائح عامة

–خائض عشوات

–الائمة سفن النجاة

–خلاصة الافكار

الباب الثاني: بحوث في الكتاب والسنة

الفصل الأول: عن الكتاب

تمهيد

١/ القرآن هدى ونور

٢/ القرآن كتاب تتدبر

٣/ القرآن تبيان كل شيء

٤/ علم الهداة من القرآن

٥/ المصدر الوحيد للمعارف

٦/ الإستنباط من القرآن

٧/ العمل بالقرآن

٨/ القرآن ميزان

الفقهاء والإستنباط من القرآن

الفصل الثاني: عن السنة

تمهيد

الف: السنة بين العلماء والمتعلمين

باء: السنة بين الأصول والفروع

جيم: السنة بين الفرض والتفويض

دال: السنة بين الثوابت والمتغيرات

–خلاصة الحديث

الباب الثالث: مناهج الإجتهاد

الفصل الأول: المناهج العامة

تمهيد عومال الخطأ النفسية

–مشكلة الإنسان في المعرفة

الجذور النفسية للخطأ

الف: الحب

–النتائج:

١/ حب الذات

٢/ اسلوب العرض

٣/ حب الفكرة

٤/ حب الآباء

٥/ حب البيئة

٦/ حب السلف

باء/ فقد الثقة بالذات

-النتائج:

١/ الإنغلاق

٢/ الذوبان في شخصيته

جيم/التسرع في الحكم

-الاحكام الكاسحة

دال/ اتباع الأفكار الجاهزة

العوامل المادية للخطأ

-ما هي العوامل المادية

كيف تؤثر العوامل المادية

-أثر الغدة الطرقة على الفكر

-أثر المناخ الطبيعي على الفكر

-أثر الوراثة على الفكر

-الفوارق العرقية

العوامل المنهجية للخطأ

١/ لكي لا نحور المناهج

٢/ تحديد المشكلة

٣/ البحث عن الممكن

٤/ تجنب الريب

٥/ الاعتراف بكل المناهج

الفصل الثاني: المناهج الخاصة

تمهيد

معرفة العلوم القرانية

الحوادث الواقعة

صفات الفقيه

الفصل الثالث: الإمارات؟ بصائر في المناهج العرفية

المصادر

المصادر العربية

١/ القرآن الكريم.
٢/ نهج البلاغة.
٣/ بحار الأنوار.
٤/ تحف العقول.
٥/الكافي.
٦/ رسالة المعاريض -تقريرات الميرزا الأصفهاني (مخطوط).
٧/ الحياة.
٨/ المنطق الإسلامي اصوله ومناهجه.
٩/ كلمة الله.
١٠/ غرر الحكم ودرر الكلم.
١١/ فرائد الاصول.
١٢/ كفاية الاصول.
١٣/ حقائق الاصول.
١٤/ أجود التقريرات.
١٥/ تاريخ الفلسفة الإسلامية.
١٦/ تاريخ الفلسفة العربية.
١٧/ ابواب الهدى للعلامة الميرزا مهدي الاصفهاني (مخطوط).
١٨/ الاصول العامة لفقه المقارن.
١٩/ المنطق نظرية البحث.
٢٠/ نشأة الفلسفة العلمية.
٢١/ منية المريد.
٢٢/ ديمقراطية القومية العربية.
٢٣/ ولسن اللامنتمي.
٢٤/ الثارون.
٢٥/ ميادين علم النفس.
٢٦/ الإنسان ذلك المجهول.
٢٧/ مقدمة لعلم النفس الإجتماعي.
٢٨/ المادية الجدلية والمثالية البرجوازية.
٢٩/ غسل الدماغ.
٣٠/ الجعفريات.

٣١/ العمل والمخ.
٣٢/ الموافقات.
٣٣/ تفسير الصافي.
٣٤/ تفسير العياشي.
٣٥/ علل الشرائع.
٣٦/ الصحيفة السجادية.
٣٧/ كنز العمال.
٣٨/ وسائل الشيعة.
٣٩/ مستدرك الوسائل.
٤٠/ البصائر.
٤١/ الخصال.
٤٢/ عوالي اللئالي.
٤٣/ رجال الكشي.
٤٤/ ضياء الصالحين.
٤٥/ عيون أخبار الرضا.
٣٦/ معارف القرآن.
٤٧/ اصول الفقه.

المصادر الفارسية
١/ علم ما به عالم خارج.
٢/ راه ورسم زندكي
٣/ جغرافياى انساني عمومي.